إبراهيم المويلحي

ما هنالك من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد

الكتاب الذي صادره السلطان عبد الحميد عام ١٨٩٦

دراسة تاريخية وتحقيق : أحمد حسين الطماوي

الطبعة الثالثة







مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسم الكتاب: ما هنالك من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد
اسم المؤلف: إبراهيم المويلحي
المحقق وصاحب الدراسة : أحمد حسين الطماوي
رقم الإيداع : ٩٥٥٠

الطبعة الثالثة ٢٠١٢



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت: ٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٠٠٠٠٥٤٦١
Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء الدراسة

إلى الباحث الجليل الأستاذ : محمد سيد كيلاني

رمز مخالطة طويلة ، ومسامرات جميلة ، استحكم فيها الود ، واسترسل معها العقل في سبل الفكر ، فكان منك الرأي المحمود ، والقول الصريح ، والنظر العالي في الأمور ، فأتلقاها عنك في ثقة وطمأنينة .

فتقبل إهدائي فإنه بعض إهدائك .

أحمد حسين الطماوي

مقدمة الطبعة الثالثة

موضوع هذا الكتاب هو السلطان عبد الحميد (١٨٤٢-١٩١٨)، ومؤلفه إبراهيم المويلحي الذي لا يتناول سيرة السلطان وفقًا لمنهج السيرة المعروف، أي لا يتدرج به زمنيًا من ولادته إلى السنة التي توقف عندها، وإنما يقدم عنه صورًا جزئية تكوّن في مجموعها صورة عامة تترك انطباعًا في ذهن القارئ، وفي هذه الصور يحاول المويلحي التغلغل في عوالم نفس السلطان، لاستبطان ما استتر فيها، وإنارة مساربها لاستشفافها، وتبيّن دخائلها، والبحث في مكوناتها، ولا أعنيَ أن الكتاب صور نفسية محضة، وإنما هو إلى جانب ذلك صور تاريخية واجتماعية، وأخرى إنسانية وأخلاقية لأتباع السلطان من دساسين وجواسيس، وفضوليين، ومتملقين، ووصوليين، مع إظهار خفاياهم، وإبراز أغراضهم، وكل هذا يساهم بقدر وافر في إيضاح شخصية السلطان، وهذا يجعلنا نقول: إن المويلحي في كتابه ليس مؤرخًا خالصا، تتلاحق في كتابه الوثائق، والتواريخ والنصوص، وإنما ميدانه الواسع شخصية السلطان، ومدى تأثرها بالدسائس، والشائعات، والوشايات، والأكاذيب، وكل ما يرجف، وتأصُّل هذا فيه، وما ينجم عنه من حوادث ومواقف، وجفاء لأناس، مما جعله يعيش في صراع، وقلق، وشك، وخوف، ووهم.

وحسب المويلحي فإن موظفي «المابين» لا يتوقفون عن إثارة السلطان، وإيهامه بأن الأخطار تحدق به، وأن قوى دانية وقاصية خافية عنه تتأهب ضده، وتضمر له الشر، فيحقق ويدقق فيما يصله، ومن هنا لم يوفروا له الوقت والراحة للنظر في أمور الدولة، وهذا ما عبر عنه المويلحي باستفاضة في «ما هنالك».

ونظرًا لقرب المويلحي من قصر السلطان، ودوائره، ومعرفته بما يدور فيه، وإلمامه بأحوال تلك الفترة، ونفاذ بصيرته، يأتي كتابه عن الافتراضات

الوهمية والتكهنات ، وجاءت الاحداث فيه موافقة لروح الزمن الذي وقعت فيه، ومجريات الأحوال السائدة، والكاتب الذي يستقرئ الواقع ، يتوفر الصدق في كتاباته ، وينأى عن الغلو والإغراب .

وكتّاب السير المحدثين يتخيلون أطياف الشخوص القدامى الذين يكتبون سيرهم ، ويتلقون صورًا إجمالية أو تفصيلية عنهم من كتّاب الماضي، وقد تكون الأخبار التي ترد إليهم من القدماء ناقصة، الأمر الذي يجعلهم يفترضون أشياء لسد النقص، قد تكون غير صحيحة، وهذا يكون له أثر في السيرة .

أما كاتب السيرة الذي يعاصر شخصية يدبج سيرتها ، فإنه لا يتلقى في الغالب أخبارا مبتورة ؛ لأنه قريب من الحوادث وصناعها، وعليم بالمواقف من شهودها ، ويستطيع الاستيثاق من أي شيء من المقربين لمصادر الأقوال والأفعال . وعلى هذا فكاتب السيرة المعاصر للشخصية تصله صور واضحة لم يجعلها الزمن الطويل شاحبة، ويرصد حقائق كثيرة من شهود عيان ، وبعد ترتيب كل هذا في أنساق، وتأمله وتقديره يمكننا أن نثق إلى حد كبير في أحكامه ورؤاه ، وهذا ما ينطبق على سيرة السلطان عبد الحميد التي سطرها المويلحي.

والمويلحي مولع بجمع الحكايات الغريبة ، والأسرار الخفية؛ لإقامة الحجة على فساد رجال البلاط ، وانزعاج السلطان لأتفه الأسباب، خوفًا على حياته ، وتعجب من كثرة ما جمعه، واستشهد به ، وكأنه جاسوس على السلطان وحاشيته، أو كأن له عيونا ترقب وتبلغه، فإن قسمًا كبيرًا من هذا الكتاب يعرض قصصًا نادرة ، كأن يقول لك: إن السلطان وصله ثلاثة تقارير من الجواسيس في مسافة نقض الوضوء.

ومن حكاياته في هذا المجال قوله: «إن تركة شُهر مبيعها فحضر فريق عسكري ليشتري منها ما يعجبه ، فأعجبه جملة من الكراسي، فاشترى منها خمسة وثلاثين كرسيا ، فكتب الجاسوس تقريرًا في الحال يقول فيه: إن فلانا

الفريق قد حضر إلى التركة الفلانية ، واشترى منها خمسة وثلاثين كرسيا، ولولا أنهُ عزم أن يعقد جمعية ما اشترى هذا العدد الكثير من الكراسي، فصدر الأمر بعزل الفريق».

فمن أين للمويلحي بمعرفة هذه الخبايا ، وكأنه يتسمع خلف النوافذ، أو ينظر من ثقب الباب؟ ثم انظر كيف قبل السلطان تفسير الجاسوس؟ واشتعل غضبًا وأطاح بالفريق ، وقد كثرت حكايات المويلحي في هذا الاتجاه ، وبيّن دورها في إيضاح شخصية السلطان، وهي غاية سعى إليها ويسعى إليها كل كاتب سيرة.

***

والسلطان عبد الحميد هو أكثر سلاطين بني عثمان إثارة للجدل، وقد صدرت عنه كتب كثيرة متباينة الاتجاهات ، منها ما يظهر استبداده، ومنها ما يدافع عنه ، حتى أنه يصعب علينا تحديد موقف إزاءه.

ولكن الثابت أنه سلطان كان يحكم على طريقة سلاطين القرون الوسطى، كل شيء في يده ، وكل عمل يتم بأمره ، دون النظر إلى التطورات التي مرت بها نظم الحكم في العالم ، أو الأخذ في الاعتبار الميول الشعبية، فهو في موقع السيادة ، وأي شخص آخر في مهب الريح، لذلك كانت دولته تنطوي على أسباب انحلالها واضمحلالها.

وهو بإلغاء مجلس النواب أو مجلس المبعوثان الذي منحه للأمة بُعيد توليه السلطنة عام ١٨٧٦ ، يكون عطل السلطة التشريعية، واستمر في حكم الدولة بقوانين العصور الوسطى التي كانت تلائم الماضي، وقد أدانه عدد من المؤرخين ، ووصفوه بالحاكم الاستبدادي، يقول د.كمال بكديللي: «أصبح الاستبداد هو الصفة الغالبة في الحكم على عهد السلطان عبد الحميد، واستمرت مرحلة الانهيار والتفكك في أوصال الإمبراطورية خلال المدة التي بدأت منذ نهاية الحرب الروسية الكبرى سنة ١٨٧٨ ،

وامتدت حتى خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش ١٩٠٩م»[١].

ويقول إحسان حقي: «عبد الحميد لم يكن ملكًا ديمقراطيًا مثل ملك إنجلترا أو السويد مثلًا، بل كان ملكًا أتوقراطيًا يملك ويحكم، وإذا كان قد ظهر منه شيء من الاستبداد فذلك شيمة الملوك في ذلك الزمان»[٢].

نضيف إلى أقوال المؤرخين: أن السلطان كان جامدًا متصلبًا، فلم يكن لديه القدرة على التشكل بأشكال مختلفة مع القوى المناوئة له في الخارج، أو إتباع أسلوب الملاينة مع مناهضيه في الداخل الذين لم يكونوا أقل خطورة من أعدائه الأوربيين في الخارج، وإنما كان يرغب في أن يظهر بمظهر السلطان الغلاب التَّياه جهير الصوت الذي يطلب المجد بالقوة والقهر.

فقد كان عليه أن يخالط الأحرار الدستوريين المطالبين بالقانون الأساسي أو الدستور، ويدخل ساحاتهم، ويحاورهم ويحاسنهم، ويلين شوكتهم، لا أن ينصب لهم الشراك، ويرصد حركاتهم، ويتعقبهم، فيطيرون منه، ويحطون في باريس، ويتخذون منها منطلقًا لمحاربته، وتأليب الشعب والعسكر عليه، وهو بإتباعه هذه السياسة يسير على خطى سلاطين العصور الوسطى الذين كانوا يتعاملون مع الثائرين عليهم بالحرب والمواجهة، والسلطان بمواجهة أعضاء جمعية «الاتحاد والترقي» الدستورية أو «تركيا الفتاة» لم يستطع القضاء عليهم، ولم يأمن مكرهم، أو يسلم من أذاهم، ودام الصراع بينه وبينهم إلى أن تمكنوا من خلعه في أبريل ١٩٠٩، فيما عرف بالانقلاب العثماني.

ولأنه كان يحكم على طريقة سلاطين القرون الوسطى، وكان جامدًا

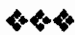
---

(١) «الدولة العثمانية .. تاريخ وحضارة» إشراف وتقديم كمال الدين إحسان أوغلو، ترجمة صالح سعداوي – استانبول – ١٩٩٩، ٢ جـ – الفصل الثاني من الباب الأول ص١١٤.

(٢) الملاحق التي أعدها إحسان حقي لكتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» للزعيم محمد فريد بك ص ٧٤١– دار النفائس – بيروت ٢٠٠٦.

متصلبًا لا يراعى ظروف الزمان والمكان، فقد أضاع ممتلكات الدولة العثمانية في شرق أوروبا، تلك الأصقاع الواسعة التي فتحها السلاطين العثمانيون بالدماء والجهاد، وكانت قد وقعت قلاقل كبيرة في ممتلكات العثمانيين الأوربية، فهددت روسيا بالحرب، وعقدت عدة دول أوروبية مؤتمرات لمنع العراك، وطلبت من السلطان تقديم تنازلات كثيرة، فرفضها، ثم تم تعديل هذه التنازلات شيئًا فشيئًا إلى أن وُقّع في ٣١ من مارس ١٨٧٧ «بروتوكول في لندن من قبل إنجلترا، ألمانيا، روسيا، فرنسا، النمسا، المجر، وإيطاليا، تعرض فيه على الدولة العثمانية شروطًا أخف، وتنحصر في إجراء بعض الإصلاحات في دول البلقان بالنسبة للرعايا المسيحيين، وإعطاء منطقة صغيرة للجبل الأسود، وتقليص عدد جنود الدولة العثمانية على طول نهر الدانوب»[1]، وهي تنازلات محدودة، وكان على السلطان أن يقبل بها، لا لأنها عادلة، ولكن لأن خزينته كانت خالية، وأسلحته غير كافية، وجيشه دون الجيش الروسي، ولكنه لم يقبل هذه التنازلات، ووقعت الحرب في ١٨٧٧/ ١٨٧٨، وكانت الكارثة والهزيمة، وعلى أثر الحرب وُقّعت معاهدة أيا استيفانوس، وعُدّلت بمعاهدة برلين ١٨٧٨، وخلاصة هاتين المعاهدتين فقدان الدولة العلية ممتلكاتها في أوروبا باستثناء استانبول وما حولها من أراض في الشمال والغرب أي جزء من الروم إيلي.

لو كان السلطان يتمتع بمرونة مثل الخيزرانة التي تتمايل وتتماوج مع الريح إذا هبت شديدة، ثم يعتدل وينتصب، ما ضاعت ممتلكاته في البلقان.



---

(١) أورخان محمد علي: «السلطان عبد الحميد الثاني – حياته وأحداث عهده»، دار النيل للطباعة والنشر ٢٠٠٨.

وإذا كنا ذكرنا ما على السلطان، فإنه يجب الإشارة إلى أنه تولى السلطنة في زمن كانت فيه «المسألة الشرقية» أو تقسيم الإمبراطورية العثمانية بين دول أوروبا موضع بحث وتنفيذ، لذلك كان ينتهز الأوروبيون الفرص ليبلغوا أمانيهم.

واستغلوا وصول السلطان عبد الحميد إلى الحكم، وهو فوق الثلاثين بأربع سنوات عام ١٨٧٦، وبعد توليه السلطنة بعدة شهور، وكانت تجاربه في الحكم ناقصة، ومعرفته بالتواءات السياسة قاصرة. ولا يعرف كيف يتصرف إذا داهمته الخطوب، ونزلت به النوازل. أقول: استغلوا ذلك، واعتدت جيوش روسيا ومعها قوات رومانيا والأرمن والصرب على ممتلكات العثمانيين.

وبعد الهزيمة المحزنة، وعقد معاهدتي أيا استيفانوس[1] وبرلين ١٨٧٨، انسلخ الجزء الأكبر من الدولة العثمانية، فأخذت إنجلترا قبرص ثم مصر، وكانت البوسنة والهرسك من نصيب النمسا، واستولت روسيا على بساربيا، وضمت اليونان تساليا إلى أراضيها، ونالت فرنسا تونس، واستقلت صربيا ورومانيا والجبل الأسود.. ولا عجب في ذلك، فالقاهر يتحدث إلى المقهور من حالق ليبلغ أمانيه ويحقق أغراضه.

وهذه المأساة الكبرى التي تعرض لها السلطان عبد الحميد، والدولة العثمانية عملت على نضجه، وجعلته يبصر أشياء لم يكن يبصرها من قبل، ويتقصى آثار الهزيمة، فقام بإصلاحات كثيرة في مجالات المواصلات والاتصالات البرقية، وأدرك أهمية التوسع في التعليم، وضرورة الاستنارة، فأنشأ الجامعة، وأكثر من تشييد المدارس، واعتنى بالجيش، فقويت الدولة، وأخذ يتعلم ألاعيب السياسة، فلما اعتدت اليونان على مسلمي كريت، لم يهاجم من هاجموا المسلمين، وإنما أخذ يبلغ دول أوروبا وساستها بما تفعله اليونان أولا بأول، وعندما هاجمت اليونان الحدود

---

(١) أيا ستيفانوس أوسان ستيفانوس من ضواحي استانبول.

العثمانية أبلغ ذلك إلى عواهل أوروبا ، ولما استيقن أن أوروبا لم تعد متعاطفة مع اليونان ، أمر جيشه بالرد القوي، فاجتاح المشير أدهم باشا الحدود اليونانية ، وانتصر في دومكة ، وصارت اليونان كلها عام ١٨٩٧ مفتوحة أمام جيوش السلطان العثماني، وعقدت هدنة ، ثم وُقعت معاهدة صلح.

وأجلّ مآثر السلطان هي رفضه إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وهذه القضية ليست هي عدم قبوله لعرض هرتزل عندما انطوى قلبه على السوء ، وفاتحه في أمر دولة لليهود فحسب، وإنما مواجهته لضغوط دولية كثيرة من بينها دول أوروبا وأمريكا ، وكان يتغاضى عن مطالبهم ، وفي الوقت نفسه يعرض حلولا ليمتص غضبهم ، ولكنها لم تكن تنال رضاهم، ثم تتفاقم المشكلة من جديد.

وظل الصراع بين عبد الحميد واليهود ، ومن ورائهم أوروبا وأمريكا والماسون وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي التركية، وكان معظمهم ماسونيين، إلى أن سقط حكم السلطان، وبعد خلعه اهتبلت هذه القوى الفرصة ، وفتحت أبواب الهجرة أمام اليهود، وتزاحمت جموعهم النازلة من المراكب الكبيرة على شواطئ فلسطين ، وكان ذلك قبل وعد بلفور بسنين.

وقد استفاض الكاتب التركي «ميم كامل أوكي» في شرح أبعاد الصراع بين عبد الحميد واليهود والقوى الكبرى العالمية في كتاب كامل ترجمه إسماعيل صادق ، ونشرته دار الزهراء للإعلام العربي عام ١٩٩٢ تحت عنوان «السلطان عبد الحميد الثاني بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية» ، وبيّن جهاد السلطان ضد القوى الدولية في هذا المجال.



صدرت الطبعة الأولى من «ما هنالك» عام ١٨٩٦، وصادرها على الفور السلطان عبد الحميد ، وأمر المويلحي بجمع النسخ وإرسالها إليه،

فامتثل ، وفي لقاء لي مع إبراهيم المويلحي الحفيد بدار الجمعية الجغرافية، حيث كان يعمل، قال لي: إن اثنتي عشرة نسخة فقط أفلتت من هذا الكتاب، كانت قد وزعت على الأقارب والأصدقاء كهدايا.

وقد وقعت في يدي نسخة من هذه النسخ مصادفة نحو عام ١٩٨٠ فاغتبطت بها ، وحافظت عليها ، وكانت عندي معلومات وافية عن «ما هنالك» ، وذات ليلة التقيت بصديقي د. علي شلش رحمه الله ، وكان يقيم في لندن ، ويأتي إلى مصر في زيارات، وتحدثنا في كتاب «ما هنالك» ، وقال لي: إن كتاب ما هنالك بحثت عنه في دار الكتب المصرية وفي باريس وفي لندن ، ولم أقع عليه، وأضاف قائلًا: إن الشيخ جمال الدين الأفغاني لم يذكره، ولا أشار إليه الشيخ محمد عبده ، ثم قال بعد صمت قليل: إنه كتاب وهمي، فقلت له: ماذا تعني بكلمة وهمي؟ فقال: لم يطبع أصلا، ففاجأته بقولي : الكتاب عندي ، فعرته دهشة شديدة، ثم ذكرت له أوصافه، فطلب مني أن يطلع عليه ، وأعطيته له، واستبقاه عنده فترة ، ثم طلب مني كتابة دراسة عنه، وتوضيح بعض غوامضه، وأضاف هو إلى كلامي مقدمة ، وتم تصوير الكتاب، ونشره المركز العربي للإعلام والنشر في أواخر عام ١٩٨٥.

وقد قابل الكتّاب «ما هنالك» مقابلة حسنة ، فقد كتب عنه الأستاذ مصطفى نبيل مقالًا كبيرًا في الهلال، والأستاذ عبد الفتاح رزق في «روزا ليوسف» والأستاذ خيري شلبي في مجلة «لإذاعة والتليفزيون» ، ثم عاد وكتب عنه مقالتين طويلتين في مجلة «الإذاعة والتليفزيون» ، والأستاذ توفيق حنا في مجلة «القاهرة» ، والأستاذ رفعت السعيد الذي كتب مجموعة مقالات صغيرة في جريدة «الأهالي» ، والأستاذ شريف المصري الذي كتب في مجلة «الدستور» ثلاث مقالات.

وقد مضى على الطبعة الثانية أكثر من ربع قرن نفدت فيها نسخ الكتاب، والكتاب مازال صالحًا للقراءة ، لأن التاريخ لا يسقط بالتقادم ، كذلك فإن فائدة «ما هنالك» تتجاوز السلطان عبد الحميد ، فلابد أن يعرف أبناء الجيل الجديد كيف تكتب السياسة والتاريخ بأبلغ الأساليب.

وكتاب «ما هنالك» سيئ الحظ ، فالطبعة الأولى صادرها السلطان عبد الحميد ، والطبعة الثانية جاءت طباعتها رديئة ، فكلمات مطموسة وأجزاء من صفحات ممسوحة، وسطور باهتة تجهد العين في قراءتها ، وهكذا ، ونتمنى لهذه الطبعة أن تكون أحسن.

وفي الطبعة الثانية ، وضعت الهوامش التي كتبتها جميعًا في آخر الكتاب ، لأنه كان مصورًا ولا يمكن أن أضيف شيئًا إليه ، كذلك فإن وضع الهوامش مجتمعة في آخر كل فصل ، أو في آخر الكتاب طريقة غير عملية ، وقلما ينظر القارئ فيها، لذلك وضعتُ الشروح والتراجم والتعريفات في هامش كل صفحة ليسهل على القارئ أن ينظر فيها ، ويفيد منها وهو يطالع الكتاب صفحة بعد صفحة .

ولما كان لإبراهيم المويلحي خمسة هوامش في كتابه، فقد أوردتها في هامش صفحاتها كما كتبها ، وكتبتُ في آخر هامش كل منها اسم «المويلحي» بين قوسين ، أما سائر الهوامش التي قمتُ بكتابتها والمنقولة من الطبعة الثانية ، فقد وضعتُ في آخر كل هامش منها حرف (ط) أي الطماوي.

وعلى الله التوفيق

القاهرة في
١٨/٣/٢٠١٢

أحمد حسين الطماوي

مقدمة الطبعة الثانية

هنالك!!! ماذا جرى على ضفاف البسفور زمن حكم البادشاه، ظل الله على الأرض، سلطان البرين، وخاقان البحرين، حامي السلم، وماحي الظلم، وناشر العدل، أمير المؤمنين الغازي عبد الحميد خان كما كان يلقب.

هنالك !!! ماذا جرى في قصر يلديز، ودوائر المابين، من دسائس قاتِلة، وحوادث فاجعة، ومواكب حافلة بالأبهة والجلال ؟

ترى ماذا جرى؟؟

هذا ما يحدثنا عنه الكاتب الشامخ إبراهيم المويلحي في ذلك السفر النادر.

ما هنالك ؟

صفحة سوداء في تاريخ الدولة العثمانية الشائخة، سطرها رجل بعد طول مراقبة ومراجعة، وعرض فيها للوقائع الصاخبة، والمشاهد الدامية، دون تمويه أو تعمية، حيث ذكر الأشياء بأسمائها، والرجال بألقابهم.

بيد أن المويلحي أمّ غرضا واحدا، هو إدانة السلطان عبد الحميد وعصره وما لحق به من بطانة وحاشية. وقوّم مادته بأدلة دالة، وكلمات شارحة، وكأن ذلك السلطان مُسخر للظلم، مسلط على الرعية بالوهم، مكلف بالتخريب والإفساد. وهي صورة على ما فيها من صواب، تعوزها بعض الحقائق الأخرى التي تشهد بوجود الإصلاح. لذلك حاولنا تلافي جانب القصور في صورة المويلحي، بذكر محاسن عبد الحميد كما استقيناها من مظانها، حتى يعتدل الميزان بعض الاعتدال، فتنخفض درجة كفةٌ شالت، وترتفعُ درجة كفةٌ مالت.

وإذا كان المويلحي قدم لنا صورة سياسية لقصر يلديز وكشف عما دار

على مسرحه السياسي من خفايا وأسرار ، فإنه لم يصور لنا صورة جمالية وصفية لذلك القصر تساعدنا على تمثله ، حتى نلم بمحتوياته ، ونسرح الخيال في مغانيه ، ولا تعمق في أحوال العمران بدرجة كافية ، ولا توسع في هيئات السكان بمادة واضحة ، ولا بيّن دور التعليم في الحياة الاجتماعية بشكل يدل على شمول الرؤية عنده .

ولأجل إتمام الصورة من هذه الناحية . رجعنا لمن أعانونا على استيفائها، فاستظهرنا شهاداتهم ، وأوردنا شيئا من مقولاتهم ، وأشرنا إلى الروافد التي أخذنا عنها ليستزيد القارئ إذا رام الزيادة .

وهذا بعض ما سطرناه في المدخل التاريخي للكاتب وموضوع الكتاب.

ولما كان « ما هنالك » يشتمل على أسماء كثيرة ، وأحداث عديدة ، لم تعد تلهج بها ألسنتنا ، فإننا قمنا بالترجمة لأهم الأعلام الواردة فيه ، والقضايا السياسية المشار إليها ، وذلك في هوامش الكتاب الملحقة به ، حتى تتضح معالمه أمام القراء ، فما أكثر الكتب التي تستشكل علينا مضامينها .

ولأن « ما هنالك » اسم غامض ، لا هم له إلا إثارة حب الاستطلاع ، فإننا رأينا أن نضيف إليه « من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد » وهو عنوان يناسبه حتى يكون القارئ على بينة بموضوع الكتاب فما أنكر الكتب التي تخدعنا أو تستبهم علينا عناوينها .

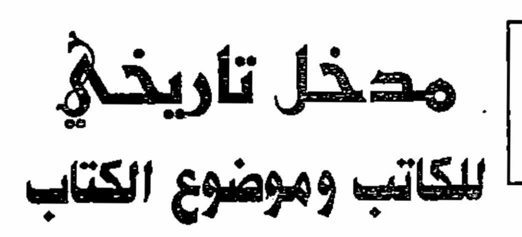
وبلاط الملك أو السلطان كلمة تطلق على قصر الحاكم ومجلسه وحاشيته أو بطانته وما يتعلق بذلك من أخبار وأسرار . وهو ما دار عليه كلام المويلحي في كتابه « ما هنالك » فلعلنا وفقنا .

والله ولي التوفيق .

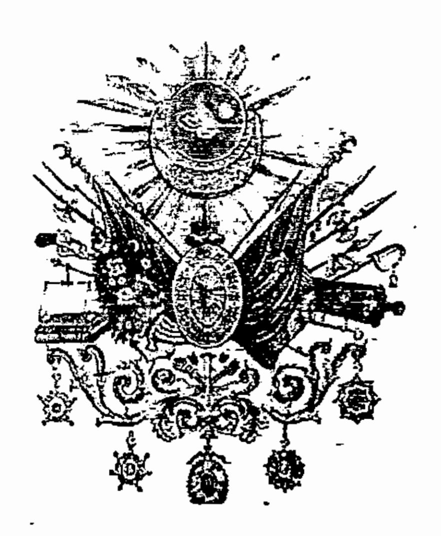
القاهرة في السابع من رجب ١٤٠٥هـ .

الموافق ٢٨ من مارس ١٩٨٥م .

أحمد حسين الطماوي .



مدخل تاريخي
للكاتب وموضوع الكتاب





الفصل الأول

إبراهيم المويلحي

وعلاقته بالسلطان عبد الحميد



الفصل الأول

إبراهيم المويلحي

وعلاقته بالسلطان عبد الحميد

ترجمته :



إبراهيم المويلحي اسم كبير في عالمي الأدب والصحافة ، مهتم بالسياسة ، ظاهر الدهاء فيها ، واسع المعرفة ، عالي الرتبة في فنون القول ، يتردد ذكره كثيرا ، وتخلع عليه النعوت والألقاب ، ومع ذلك إذا تجوّل القارئ المعاصر في دور النشر الحديثة باحثا عن أثر من آثاره لم يجد شيئا .

وكأنه أديب بلا أدب أو كاتب بلا كتب .

فهل للرجل اسم فقط ؟

جلية الأمر أن المويلحي من أكابر الكتاب في عصر النهضة وله آثار عديدة متنوعة بين كتب طوتها الأيام ، ومقالات لا تحصي في بطون الدوريات ، ولم يكلف الأدباء أنفسهم مشقة البحث عنها ، وجمعها وتنسيقها تنسيقا موضوعيا ، وتحقيقها تحقيقا علميا . ونشرها على أبناء الجيل الحاضر ليفيدوا منها ، ويتغذوا عليها ، فإنها جزء لا يتجزأ من تراثنا العربي الحديث .

ومن مآثره على سبيل المثال :



« الفرج بعد الشدة » في رياض باشا[1] . ولم نقع على هذه الرسالة ، ولكن مما جاء في كتاب المويلحي إلى السلطان عبد الحميد الذي نشره الدكتور علي شلش أنه على إثر عزل الوزارة المختلطة وتولي شريف باشا الوزارة الجديدة التي كان رياض باشا وزيرا فيها .

حث الخديو إسماعيل ، المويلحي على حض الأعيان والعلماء لرفع التماس إلى سموه بمنع رياض من السفر ومحاكمته لأخطاء بدرت منه ويقول المويلحي : « وبعد تهيئة الأمر وعلم رياض باشا بسعيي فيه عدل الخديو عن ذلك وأعطاه إذن السفر بعد أن أمرني أن أكتب للموحي إليه رسالة أقبح فيها أعماله وقد نشرت مضمونها بعض الجرائد ».

وعندما استعفى الخديو إسماعيل من أريكته وتولى ابنه توفيق أقيلت وزارة شريف باشا ، ورشح رياض باشا لتولي الوزارة الجديدة ، وهنا أدرك

(١) مصطفى رياض باشا (١٨٣٤-١٩١١) ، مصري الأصل ينحدر من أسرة إسرائيلية دخلت في الإسلام . تعلم في المدارس المصرية ، وانتظم في سلك عساكر الموسيقى ، تقلد المناصب الكبيرة المختلفة من عصر عباس الأول إلى عصر عباس الثاني ، وفي عهد إسماعيل ارتقى أعلى المناصب فصار رئيسا للوزراء (١٨٧٩) . وتولى هذه الوظيفة أكثر من مرة ، ومن مآثره أنه وضع طريقة ثابتة لتحصيل ضرائب الأطيان في أوقات معينة ، وساوى بين المصريين والأجانب ، في دفع الأموال الأميرية ، وسن قانونا يقضي بعدم تصدير الآثار والموميات القديمة ، وأنشأ خط السكة الحديدية بين أسيوط وأسوان ، واعتنى بالصحة العمومية ونظم التعليم .
انظر: مجلة الهلال عدد يوليو ١٩١١ ، وعدد فبراير ١٩١٢ .

رجال ديوان الخديو ضرورة رحيل المويلحي من مصر حتى لا ينتقم منه رياض باشا فلحق بالخديو إسماعيل بعد أن ترك مناصبه . ومن هذا العرض يمكننا القول : إن رسالة المويلحي « الفرج بعد الشدة » رسالة انتقادية غايتها التعريض بالوزير الأكبر رياض باشا تنفيذًا للأوامر الخديوية .

وكتاب « ما هنا » في المعية السنية .

و « حديث موسى بن عصام » وهو من أدب المقامات ، يتناول أوضاع المجتمع المصري على غرار « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحي ، وقد نشره منجما في جريدة « مصباح الشرق » [1] .

و « الشرق والغرب » مجموعة كبيرة من المقالات نشرها في « مصباح الشرق » بعناوين مختلفة وقد تناول فيها جملة الأوضاع الخسيسة في الغرب ، والغرض منها إبراز مساوئ الأوربيين ، على نحو ما يظهر الأوربيون أوجه الفساد في الشرق .

و « كلام في المطبوعات » سلسلة من المقالات تناول فيها الصحافة الأوربية والأمريكية ، والصحافة الشرقية في وادي النيل والشام ودولة الخلافة . وهي دراسة مقارنة يتضح فيها تقدم الصحافة الغربية وتخلف الصحافة الشرقية ، وتُعد من أقدم البحوث في تاريخ الصحافة في القرن التاسع عشر [2] .

و « كلمة في التاريخ » طائفة من المقالات نشرها في « مصباح الشرق » وتحدث فيها عن فلسفة التاريخ ، ومناهج كتابته ، وتطور تدوينه ، وله

---

(١) انظر مقالا لكاتب هذه السطور عن « حديث موسى بن عصام » مجلة الثقافة عدد سبتمبر ١٩٧٧ ..

(٢) مصباح الشرق إعداد سنة ١٩٠١ .

نظرات نقدية جديرة بالوقوف عندها ، فقد دعا إلى نقد الروايات التاريخية، وتحقيق الحوادث ، ورأى أنه من الضروري أن يقرر المؤرخ لنفسه طريقة في البحث والكشف ، وأن يتبع طريقة الاستقراء ، فيفحص الجزئيات ويؤلف بينها لتتركب له منها الكليات ، وأن يعمد إلى طريقة التحليل والتفصيل في الكليات لتحري النقل ونقد الإسناد حتى يمكن له بها أن يفصل كل حادثة عن أختها ويحدد كل واقعة في ذاتها [1] إلى آخر ما ذهب إليه في هذا العلم . وقد سبق المويلحي غيره من كتاب عصره ـ أو لعله من السباقين ـ إلى التنبيه على الدراسة المنهجية وإعمال العقل في الروايات التاريخية وتحقيقها وتوثيقها .

ومن أشهر ما دبجه إبراهيم المويلحي كتاب « ما هنالك » الذي نقدمه للقراء محققا ، وهو من أعماله التي أبقت عليها الأيام ، وكشف كثيرا من الأحداث الجسام في عصر الباديشاه عبد الحميد خان .



والمويلحي نسبة إلى « المويلح » أحد ثغور شبه الجزيرة العربية على البحر الأحمر . وقد هاجر أحد جدوده إلى مصر في عصر محمد علي وعمل بالتجارة .

ولد إبراهيم عام ١٨٤٤ أو ١٨٤٥ على بعض الأقوال ، وينتهي نسبه إلى الحسين من جهة أبيه وإلى الحسن من جهة أمه ، درس علوم الأدب والبلاغة والنحو والعروض على يد عطار كان محله مجاورا لمحل والده عبد الخالق المويلحي ويبدو أن إبراهيم قد نضج مبكرا مما ساعد على تألقه ، فقد أسس مع عارف باشا « جمعية المعارف » التي ساهمت في النهضة

(١) مصباح الشرق إعداد سنة ١٩٠٢ .

الثقافية بطبع عدد من كتب التراث العربي ، ويُعيد ذلك أصدر مع « محمد عثمان جلال » جريدة « نزهة الأفكار » التي احتجبت بعد عددين لتخوف الخديو إسماعيل منها .

وقد كان المويلحي يعمل بالتجارة إلى جانب ذلك ، وصار عضوا في مجلس التجار وعضوا في مجلس مصر الابتدائي ، وقد شغف المويلحي بالمضاربة في « البورصة » وكانت النتيجة خسارة في الأموال ، وبوارا في التجارة ، ولكنّ الخديو إسماعيل أنقذه من كبوته فأعطاه مصلحة « تمغة المشغولات والمنسوجات على سبيل الالتزام » .

ومن أعماله الوطنية والإدارية ، كتابته للائحة الوطنية لتأسيس مبادئ الحكومة الدستورية في عهد وزارة شريف باشا ، وتعيينه ناظرا للقلم العربي في نظارة المالية التي تولى أمرها راغب باشا ، وإلى جانب ذلك كان عضوا في مجلس تسديد الديون السائرة .

ومن أهم أعماله الصحفية إصدارة جريدة « مصباح الشرق » عام ١٨٩٨ والتي استمرت في الظهور حتى عام ١٩٠٣ ، ثم أنشأ جريدة « المشكاة » عام ١٩٠٥ التي احتجبت بعد قليل باسم ابنه خليل ، وفي التاسع والعشرين من يناير ١٩٠٦ فاضت روحه إلى بارئها [(١)].



(١) انظر مجلة الرسالة عدد ٢٤٩ ، ٢٥٠/ في ١١/ ٤/ ١٩٣٨ ، ١٨/ ٤/ ١٩٣٨ .

علاقته بالسلطان عبد الحميد :

عندما صدرت الأوامر الشاهانية بعزل الخديو إسماعيل عن الأريكة المصرية عام ١٨٧٩ ، وإقامته بنابولي في إيطاليا ، أرسل يستدعي إبراهيم المويلحي إليه ، فقد كان المويلحي لبقا حاضر البديهة يحسن المسامرة والمنادمة . ويبدو أنه كان ملما بآداب الملوك والأمراء ، مما يرغبهم في مجالسته والائتناس بمحاضرته ، فقد كانت الكياسة من جملة خصاله ، والفطانة بادية عليه . وقد استجاب إبراهيم لنداء الخديو المخلوع ، ويبقى معه عدة سنوات يزاول وظيفة سكرتيره العربي ، فيحرر له ما شاء من الرسائل ، ويقوم بتعليم أولاده .



الخديو إسماعيل

ويبدو من سير الأحداث أن الخديو المخلوع قد أضمر في نفسه شيئا ، فلم يكن قد نسي في غربته ومنفاه أمر السلطان عبد الحميد بعزله . فأراد أن يكيد له ، ويحرض المسلمين عليه ، فأوعز إلى كاتبه اللوذعي إبراهيم

المويلحي بإنشاء صحيفة تقض مضجع السلطان، وتشارك في الثورة عليه، وإثارة القلاقل حول عرشه، فلبى المويلحي رغبة إسماعيل وأصدر عام ١٨٧٩ صحيفة «الخلافة»[(١)] باللغتين العربية والتركية في نابولي، وقد كدر المويلحي صفو عبد الحميد، إذ عزف له على وتر لا يريحه، فقد أذاع على صفحاتها «أن مقام الخلافة عند المسلمين يتسلسل من أصل عربي وأنه انتقل بلاحق إلى آل سلاطين الأتراك».



السلطان عبد الحميد

وقد تدخل السلطان لإيقافها فاحتجبت بعد ظهور عددين. ثم أصدر المويلحي بعد ذلك صحيفة «الإتحاد»[(٢)] عام ١٨٨٠ في إيطاليا وظهر منها

(١) أنشأ د. لويس صابونجي جريدة «الخلافة» في لندن عام ١٨٨١ أي بعد إصدار المويلحي صحيفته بعامين، وقد أثار على صفحاتها مسألة الخلافة في آل عثمان والخلافة والمسلمون. وقد اقتبس صابونجي من المويلحي اسم الجريدة واتجاهها كما هو واضح.

(٢) أصدر لويس صابونجي عام ١٨٨١ – أي بعد عام من إصدار المويلحي صحيفته المذكورة – جريدة «الاتحاد العربي» وظهر منها ثلاثة أعداد أيضا، وهذا يبين لنا اقتفاء صابونجي آثار المويلحي.

ثلاثة أعداد حمل فيها المويلحي على سياسة الدولة العلية حملة عنيفة إذ ركز على أوجه الفساد فيها الأمر الذي جعل السلطان يوسط سفيره في إيطاليا لمنع صدورها ، ولم يلبث أن أصدر جريدة « الرجاء » وكانت امتدادًا لجريدة « الاتحاد » في النهج والغاية [1].

وفي عام ١٨٨٤ سافر إلى باريس حيث أصدر العدد الرابع من جريدة « الاتحاد » وأعرب المويلحي في رسالة بعث بها إلى السلطان فيما بعد [2] أن الخديو إسماعيل هو الذي حثه على إحياء الجريدة وإعادة ظهورها لإزعاج السلطان ، وقد طلب عبد الحميد كعادته من الحكومة الفرنسية بواسطة سفيره تعطيل « الاتحاد » فتعطلت ، وأرغم المويلحي على مغادرة باريس فلجأ إلى بلجيكا ، ومنها إلى لندن حيث التقى بالأفغاني الذي كان على صلة به عندما كان جمال الدين الأفغاني في مصر قبل نفيه منها ، وقبل سفره إلى لندن دارت محادثات سياسية بين الأفغاني والمويلحي من جهة وبين بلنت وسيط الساسة الإنجليز من جهة أخرى حول حصار المهديين في السودان لغردون باشا ومحاولة إنقاذه .



جمال الدين الأفغاني

(١) انظر كتاب « تاريخ الصحافة العربية » لفيليب طرازي (جـ٢) .

(٢) نشر الدكتور علي شلش هذه الرسالة بمجلة الدوحة عدد سبتمبر ١٩٨٤ .

وذكر إبراهيم المويلحي (الحفيد) أن إبراهيم أنشأ جريدة « عين زبيدة» التي غير فيها منهجه السياسي ، فامتدح السلطان ، وهاجم الإنجليز وسياسة جلادستون هجوما شديدا فأعجب به السلطان .

وتعوزنا الحجة هنا لتفسير سبب تغيير المويلحي سياسته المتشددة ولهجته القاسية تجاه الدولة العلية . وربما يكون للقائه بجمال الدين الأفغاني في لندن ، أكبر الأثر في هذا التحول ، ولا يعزب عن بالنا أنه اشترك في تحرير « العروة الوثقى » مع السيد جمال الدين ومحمد عبده في باريس - هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى حدثت خلافات بين الخديو الخليع إسماعيل وإبراهيم المويلحي مما أدى إلى قطع راتبه ، وقد يكون لتحرره من نفوذ الخديو أكبر الأثر في تحوله إلى ممالئة السلطان وإطرائه . ولعله يحقق بذلك هدفين أو يصيب عصفورين بحجر واحد على ما يقول المثل .

الأول : الكيد لإسماعيل .

والثاني : التماس العفو من السلطان والحصول على إنعاماته ، وبخاصة أنه شرح للسلطان مدى ضيق ذات اليد مما ألجأه إلى تنفيذ ما أملاه عليه الخديو الخليع من إصدار الصحف التي تناوئ السلطان وتكيد له .

وعلى أثر تعديل سياسة المويلحي تجاه السلطان ، وكتابة رسالة إليه يستعطفه فيها ، ويعتذر إليه عما بدر منه ، وشرح الظروف والملابسات التي أحاطت بإصداره للصحف بالجملة ضده ، أرسل إليه السلطان يستقدمه بواسطة سفيره في لندن إلى عاصمة الخلافة .

وفي عام ١٨٨٥ مثل إبراهيم المويلحي أمام جلالة السلطان بعد أن أعلن توبته وأبدى ندمه على معاداة دولة الخلافة ، فأمر السلطان بتعيينه عضوا في « انجمن المعارف » ، وظل هناك نحو عشر سنوات متواصلة تمكن فيها من الإطلاع على أحوال الدولة ، وسير الأحداث ، وتقلب السياسات ، وتعدد أوجه الفساد ، وانتشار المظالم .

ويبدو أن المويلحي لم يكن خالص النية في توبته ، أو أنه استهول ما رأى ، واستفظع ما جرى ، فراح يهاجم السلطان من جديد وهو بين أياديه، فسرّب مقالات إلى مصر نشرتها جريدة المقطم ، نبه فيها إلى الفساد السياسي والاجتماعي في العهد الحميدي ، ونُقل خبر هذه المقالات إلى عبد الحميد فأمر بالتحقيق معه ، ولما لم يثبت عليه شيء أنعم عليه السلطان بالرتب العالية .

المويلحي بوق السلطان في مصر والعالم الإسلامي :

وفي عام ١٨٩٥ غادر المويلحي سرًا عاصمة الخلافة إلى مصر ، وأخذ يهاجم السلطان مرة أخرى مما سنشير إليه بالتفصيل بعد قليل .

لقد كانت علاقة المويلحي بالسلطان في الفترة من ١٨٧٩ وحتى ١٨٩٦ تقوم على الخداع والمخاتلة حيث يعلن الأول ولاءه للثاني في الظاهر، ويدس له في الخفاء .

ولكن هذه العلاقة المضطربة لم تستمر على هذا النحو في الالتواء والدهاء ، فما أن استقرت أحوال المويلحي في مصر حتى أصدر جريدته الأسبوعية « مصباح الشرق » عام ١٨٩٨ . ومنذ هذا التاريخ والمويلحي على خير ما يكون ولاؤه للدولة العلية ولخليفة المسلمين في يلديز ، فقد كانت « مصباح الشرق » بوقا للسلطان ولسياسته في مصر ، وقد جعل المويلحي من جملة أغراض مجلته أو صحيفته ، وجوب التفاف المسلمين حول عرش الخلافة ، والتعلق بحبل الإمامة . ففي عدد ١٩/ ٥/ ١٨٩٨ جاء في مصباح الشرق تحت عنوان « المصريون والمحتلون » « نعم كان يجب علينا أهل مصر أن يكون هذا حالنا مع المحتلين ، نتعلق بعرش الخلافة ، ونأخذ بباب السلطنة ، وندعو جلالة مولانا الخليفة الأعظم أن يحمي مصر» .

وفي مقال آخر نشرته « مصباح الشرق » بتاريخ ٢٦/ ٥/ ١٨٩٨ نوه فيه بدور الأتراك في حماية الإسلام والذود عنه ، وفي عيد الجلوس الشاهاني امتدح الخليفة بعدة أبيات نشرتها مصباح الشرق في عدد ٣١ أغسطس ١٩٠٠ قال فيها :

خليفة الرحمن في أرضه	حامي ذمار الدين عبد الحميد
ندعو الذي أعطاك سلطانه	أن يقرن العيد بعيد جديد
وأن يمد الله في عمر من	يمد للكعبة خط الحديد

(إشارة إلى خط حديد الحجاز) وقال تحت هذه الأبيات عن عبد الحميد « ولما استوى على عرش الخلافة واستولى على سرير السلطنة ... ساس أيده الله البلاد والعباد ، بالحكمة والسداد ، وأطفأ الفتن ، وأزال المحن ، ونشر العدل والأمان ، وحفظ الرعية من بوائق الزمان ، لا زالت الدولة بحكمته في إسعاد وإقبال ، والخلافة بتقواه في إكبار وإجلال .. » .

ويستطيع القارئ أن يقارن بين هذا الكلام ، وما كتبه المويلحي في عيد الجلوس السلطاني في « ما هنالك » ليدرك مدى تحول المويلحي من الالتواء إلى الولاء !.

وفي مقال بعنوان « حجة السيف والقلم »[1] ومقال آخر بعنوان « كلمة في السياسة »[2] دافع عن السلطان وأعلى من قدره وأشاد بسياسته الحكيمة .

وأخذ يدعو على صفحات « مصباح الشرق » للجامعة الإسلامية وللخليفة فقال : « إن الخليفة أمير المؤمنين لما كان هو الإمام في الإسلام

(١) مصباح الشرق في ٢٥/ ١٠/ ١٩٠٢

(٢) مصباح الشرق في ٢١/ ٣/ ١٩٠٣

القائم بأمر الدين الحامي لحوزته المشرف على أمور المسلمين . لا جرم انحصر فيه معنى الوطن لكل مسلم وأصبح مقر الخلافة هو الوطن الذي تتوجه إليه وجوه المسلمين وتهوى إليه أفئدتهم وتتعلق به آمالهم .. وأوضحت بأجلي بيان أن الواجب على كل مسلم في جميع بقاع الأرض أن يعتبر الدين الإسلامي بمجموعه وطنه والآمه الإسلامية بأفرادها أهله وإخوته وأن يحصر ذلك في مقر الخلافة الإسلامية معقل الإسلام وحمى الدين وحصن الملة ومؤئل الأمة »[1] .

ودعا إلى عقد مؤتمر إسلامي يناصر فيه المسلمون دار الخلافة بالمال .

وليس هذا فحسب ، وإنما أخذ يهاجم كل أعداء السلطان والمعاندين له ولسياسته ، فكان يرد على الصحف الأوربية ، التي تنتقد المجتمع العثماني ، ويسرد من مخازي هذه الدول وعوراتها ما تتضاءل أمامه مثيلاتها في الدولة العلية . وهاجم الماسونية التي تربي في أحضانها أعداء السلطان من أعضاء الاتحاد والترقي مثل طلعت باشا وأنور باشا وضيا باشا وغيرهم ، وسخر بكلمات قارصة من أنصار « تركيا الفتاة » واتهمهم بالخيانة العظمى لتأييدهم لفرنسا ضد الباب العالي ، وندد بمزاعمهم ، وفضح أسرارهم ، ونقل من أقوالهم ما ينفر المسلمين منهم[2] .

أما السلطان فقد كان يشجع المويلحي على هذا الاتجاه ويحفزه إليه بالمنح والعطايا والإنعامات.

وظل المويلحي على وفائه للسلطان ولدولته حتى احتجبت مصباح الشرق عام ١٩٠٣.

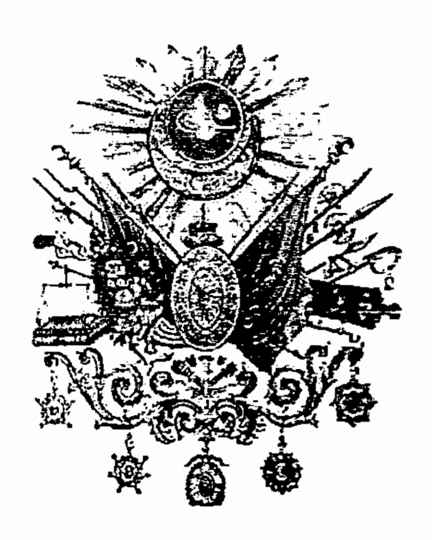
---

(١) مصباح الشرق في ١٥/ ٦/ ١٩٠٠ .

(٢) مصباح الشرق في ٢٩/ ١١/ ١٩٠١ مقال بعنوان « تركيا الفتاة » .

الفصل الثاني

ما هنالك



الفصل الثاني

ما هنالك

عندما عاد المويلحي إلى مصر سنة ١٨٩٥ لم يكن طيب الخاطر ، صافي النفس تجاه السلطان ، ويدل ما كتبه عن دولة الخلافة في ذلك الوقت أن شيئا في نفسه يؤرقه ويفرقه ، ورأى أن يطلع الناس عما جرى ويجري هنالك في دوائر قصر السلطان ، حيث ران الظلام ، واستشرى الفساد وتهتكت الدولة ، على حد ما نرى في كتاباته ، فنشر سلسلة من المقالات في صحيفة المقطم تحت عنوان « ما هنالك » بتوقيع مبهم ، ثم جمعها وصدرت في كتاب عام ١٨٩٦ – عن دار المقطم – يقع في ٢٥٥ صفحة من القطع المتوسط ، ولم يجرؤ على وضع اسمه على كتابه ، خوفا من السلطان ، فنسب الكتاب «لأديب فاضل من المصريين » .

وبالرغم من ذلك فإن السلطان عبد الحميد عرف أن إبراهيم المويلحي هو صاحب « ما هنالك » عن طريق جواسيسه المنتشرين في أماكن كثيرة ، فبعث إليه وأمره بجمع كل ما في حوزته من نسخ الكتاب وإرسالها إلى الأستانة ، فرضخ إبراهيم وامتثل لأمر الخليفة « ما عدا بضع نسخ كان قد وزعها على عائلته وأصدقائه لذلك يندر وجوده ».

ومع أن اسم المويلحي قد أغفل ، فإن كتاب « ما هنالك » ثابت النسب لإبراهيم ، فقد ذكره المؤرخون والكتاب في مؤلفاتهم ، وقرنوه باسم مؤلفه، ومن هؤلاء جرجى زيدان الذي ترجم للمويلحي في كتابه « تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر » ، ومما سطره عنه : « ... عمد أولا إلى

مراسلة الجرائد بمقالات جامعة في السياسة والأدب وقواعد العمران أشهرها ما جمع على حدة في كتاب (ما هنالك) » وأورد نموذجا منه ليدلل على ملكة المويلحي الأدبية . وجرجى زيدان حجة في ذلك لأنه من معاصري المويلحي .



جرجي زيدان

وقال عبد الرحمن الرافعي في كتابه « عصر إسماعيل » الجزء الأول عن المويلحي : « وكتب في الصحف مقالات جامعة في الأدب والسياسة والاجتماع جمع بعضها في كتابه سماه « ما هنالك » ويبدو أن الرافعي قد اقتبس هذه الكلمات من جرجى زيدان .

وذكر أحمد فؤاد كتاب « ما هنالك » في جريدته « الصاعقة » [1] حين تطرق إلى سرد مؤلفات المويلحي . ونُطق أحمد فؤاد « الصاعقة » بذلك ، وإبراهيم المويلحي على قيد الحياة له أهميته .

(١) جريدة « الصاعقة » عدد ١٤ أبريل ١٩٠٥ .

وروى إبراهيم المويلحي (الحفيد) قصة « ما هنالك » مع سيرة جده في مقالين نشرتهما مجلة الرسالة [1] .

وعرض الدكتور عبد الطيف حمزه لـ « ما هنالك » في الجزء الثالث من « أدب المقالة الصحفية في مصر » وعزاه للمويلحي ونقل صفحات كثيرة منه .

وأبنت جريدة المقطم إبراهيم المويلحي عقب وفاته وقالت :

« مات يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦ ، وهو شقيق عبد السلام المويلحي سر تجار مصر ، ووالد حضرة الكاتب اللوذعي محمد بك المويلحي وهو مؤلف كتاب « ما هنالك » ... وشيعت جنازته من منزله بشارع محمد علي في مشهد عظيم ودفن بمقابر السادات البكرية بالإمام الشافعي .. » .

وقول المقطم إنه صاحب كتاب « ما هنالك » هو القول الفصل لأنها الدار التي أصدرت الكتاب .

ومن خلال هذا العرض يتأكد لنا أن الكتاب للمويلحي وإن خلال اسمه منه ، فلم يكن الأمر خافيا على معاصريه .

وثمة دليل آخر على نسب « ما هنالك » لإبراهيم المويلحي ألا وهو وحدة العناوين عنده في بعض كتبه ، فكما تترد كلمة « العبقرية » في كثير من عناوين كتب العقاد مثل « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » ... أو تكرير كلمة « الميزان » في عناوين بعض كتب العقاد الأخرى مثل « قمبيز في الميزان » و « هتلر في الميزان » و « معاوية في الميزان » إلى آخره ، فإن ثمة وحدة بين عناوين بعض كتب إبراهيم المويلحي فله كتاب « ما هنا » وكتاب « ما هنالك » .

---

(١) مجلة الرسالة عدد ٢٤٩ الصادر في ١١/٤/١٩٣٨ ، وعدد ٢٥٠ الصادر في ١٨/٤/١٩٣٨ .

بين ابن خلدون والمويلحي :

وكتاب « ما هنالك » من نوع الكتب التاريخية التي يعتمد فيها المؤرخ على ملاحظاته ومشاهداته، لا على البحث والتنقيب في الأوراق والأضابير، فالمويلحي شاهد عيان على تلك الفترة الدقيقة في تاريخ الصراع بين الإسلام والاستعمار الأوربي، أو ما عرف « بالمسألة الشرقية » أو هو مراقب للأحداث في الأستانة ذلك المكان الذي تصدر منه التوجيهات ويشارك في صياغة القرارات التاريخية . وهذا أحد أوجه أهمية هذا الكتاب.


ابن خلدون

ويبدو أن إبراهيم المويلحي استفاد كثيرا من مقدمة ابن خلدون، فاستوحى من بعيد بعض فصولها المتعلقة بالعمران والنظم السياسية وشؤون الحكم في الدولة وغير ذلك. بل أحيانا يلتقي مع ابن خلدون في جملة من الأحكام والآراء . ومن ذلك قول ابن خلدون عن استعانة الملك أو الحاكم بمعارفه وحجابه وازدحامهم عليه فيشغلونه عن النظر في قضايا الرعية [1] فقد كرر المويلحي هذا القول بما يتلائم مع السلطان عبد الحميد الذي كثر حوله الجواسيس والأغوات والكتّاب، ورجال الدين والوصوليون، وأسرفوا في كتابة التقارير وسعوا إليه بالوشايات مما صرفه عن جليل الأعمال وأضاع وقته في قيل وقال .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٢٠٢ ط الشعب .

ومما أفاد منه المويلحي قول ابن خلدون : « إن الظلم مؤذن بخراب العمران »[1] .

فقد ضرب المويلحي أمثلة كثيرة على الظلم ، ونفى الأفراد لأتفه الأسباب ، أو خلع الولاة لمجرد الاشتباه في تصرفاتهم .. ورأى المويلحي أن مثل هذه التصرفات من أسباب ضعف الدولة ، وانصراف الحاكم عن التعمير والتجديد ، ومن جملة أسباب الفتن والثورات التي لا ينتج عنها إلا الخراب .

وإذا كان ابن خلدون يرى ضرورة التنسيق بين السلطات والربط بينها، وتحديد الاختصاصات وما للحكم من حقوق وواجبات ، فإن المويلحي تحدث عن هذا ، وعدد أوجه الفساد في ذلك المجال ، فلم يعد الصدر الأعظم يمارس اختصاصاته على الوجه المنصوص عليه في الفرمانات ، بل إنه كان يفاجأ في معظم الأحيان بتولية هذا ، وعزل ذاك ، وكان السفراء على اتصال بالخليفة وليس بناظر الخارجية أو الصدر الأعظم وهلم جرا .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فكان الصدر الأعظم غير آمن على منصبه من دس الدساسين ، أو من إيهام السلطان للوزراء بأنه سيعينهم في منصب الصدر الأعظم . ولهذا خطورته ، فإن الولاة أو الصدور أو المأمورين لا يستطيعون إتقان عملهم ، وتنفيذ خططهم وهم في حالة من القلق الدائم ، والاضطراب المستمر ، وفقدان التوازن النفسي وبخاصة عندما يرون بأنفسهم المنفيين والسجناء والخلعاء والذين يجري التحقيق معهم بسبب دسيسة أو مكيدة أو نميمة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٢٤٤ ط الشعب .

ولكن المويلحي ليس على الدوام يلتقي مع ابن خلدون في فكره ، فقد يخالفه في الرأي ، ويناقضه في المذهب ، ومن هذا قول ابن خلدون : إن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة [1] وهو قول لا يقره المويلحي ، وكان يرى أن الدولة العثمانية يمكنها أن تحكم قبضتها في البلدان المختلفة الواقعة في حدودها بتنفيذ القانون الأساسي وعقد مجلس المبعوثين رغم تعدد الأجناس والأديان والطوائف والمذاهب . وهي قضية فيها نظر ، ويبدو أن رأي ابن خلدون أعلى لأنه في حالة ضعف الدولة تنشط العصبيات ، وتجاهر بالعصيان ، وتنادي بالاستقلال ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

على هذا النحو كان إبراهيم المويلحي يقترب أو يبتعد عن ابن خلدون ولكنه في الحالتين يأتي كلامه مطبوعا بطابعه ، متسما بميسم عصره .

« ما هنالك » وثيقة سياسية ضد عصر السلطان :

والكتاب بحث سياسي تحليلي لفترة حكم عبد الحميد ، أبرز فيه مؤلفه مدى تسلط الدوائر الحاكمة ، وتبرم الناس من العسف والضيم ، وتردي الدولة في سياستها الداخلية ، وتقصيرها في الدفاع عن حدودها ، وعجزها عن مسايرة التقدم ، وخضوعها لتقارير يمليها مغرضون وصوليون .

وقد تنبأ المويلحي بسقوط الدولة قبل أن تسقط بسنين عديدة ، ولم لا يأفل نجمها !!!؟ وقد تولى أمرها نفر لا دراية لهم ، ولا حكمة عالية في رؤوسهم . وقد أسهب المويلحي في تعديد مظاهر السقوط في سياق الكلام ليدلل على ما يذهب إليه ، فمن دلك أن أحدا لا يؤدب مأدبة إلا بعد الحصول على الإذن من الضبطية بعدد المجتمعين فيها ، ويقول :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٤٣ ط الشعب .

« والحكومة إذا غلب عليها الجبن وأحاط بها الخوف ، وتولى الأدنياء أمورها وساس الأغبياء جمهورها وانتشر في جسمها ميكروب الجواسيس فبشر حكامها بالخراب القريب والدمار الوشيك » .

ومن أسباب التدهور أن النصر في ميادين القتال لا يتم بخطط مدروسة ، ولا يستند إلى علم عسكري دقيق ، وإنما كانت تتحرك القوات إلى الحرب والأمل في الفوز فيها يعتمد على التنجيم وضرب الرمل والأحلام.

ومن مظاهر التدني سقوط وزارة بعد يوم من تشكيلها بسبب وشاية كاذبة ، ودسيسة ماكرة .

وهل يصل الأمر بأحد القواد العسكريين أن يطلب من أحد الأغوات تقبيل يده تيمنا وبركة فيقول له الأغا : « متى وصل قدركم أن يتعدى رجلي إلى يدي » .

وقد وصل الأمر في دولة الخلافة أن يُقلد شخصان رتبة الفريق وهما يجهلان كل شيء عن الجندية .

وهل يصح للدولة العثمانية أن تطلب من فرنسا تسليمها مدحت باشا ، مقابل إطلاق يدها في تونس ؟

هكذا كان المويلحي يعين العلة ، ويشخص الداء ، وينبه على الدواء الناجع وهو ضرورة العمل على عدم انطواء المصلحة العامة في سبيل مصلحة خاصة حتى لا تنحل الأمة وتهوى سريعة إلى الحضيض .

إن عصر السلطان عبد الحميد حافل بالأخطاء الجسام ، والمعايب الكبار التي تجر الأخطاء ، ومن مظاهر هذه الأخطاء أن عبد الحميد كان لا يفرق بين نفسه وبين الدولة ، فهو الدولة والدولة هو يقول : « إن العمل ضدي معناه أيضا العمل ضد الوطن » [1] .

---

(١) انظر مذكرات السلطان عبد الحميد التي ترجمها وحققها محمد حرب عبد الحميد .

فإذا امتدح الخليفة شخص وذم غيره فلا غبار عليه، ولا خطر يحدق به، ومما جاء في مذكرات عبد الحميد: « بدأ مراد بك في إصدار جريدته ـ ميزان ـ كان ينشر فيها مدائح لي، لكنه كان يهاجم بعنف رجال الدولة الذين عينتهم في الوزارة. أغلقت الحكومة جريدته بعد سنوات، فحميته وعينته في إدارة الديون العمومية »[1]. فالانتقاد إذا كان في غير عبد الحميد فلا لوم على الناقد، وهو فساد ما بعده فساد.

ويعترف عبد الحميد بخطإٍ آخر في مذكراته، يقول:

« نفى في وقت من الأوقات إلى أذربيجان (ناظم باشا) ولم يكن هذا النفي بسبب سياسي وسبب هذا حب الشعب للباشا »[2]. فهل هذا سبب للعزل أو للنفي، وهل يجب على الإنسان لكي يبقى في عمله أن يفعل الأفاعيل لكي يكرهه الناس، ويتحدوا سلطاته.

هكذا يعترف عبد الحميد بظلمه وأنانيته بعد نفيه إلى قصر بلربي في سالونيك.

لقد فسدت الأمور، وضاقت الأمة بهذا الفساد حتى أدرك السلطان أنه لا مكانة له عند الناس أو على حد تعبيره في مذكراته ص ٩٧: « كنت أرى أن الأمة لم تعد تثق بي ».

❖❖❖

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٥٩ ط دار الأنصار.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٩١.

عبد الحميد والجاسوسية :

وقد أسهب المويلحي في ذكر جواسيس السلطان أو دائرة « الخفيات » وأطلعنا على غرائب وعجائب ، فالإفك والسعاية والوشاية علامات بارزة في دولة الخلافة ، وليس هناك إنسان فوق الشبهة وكأن الناس طرا أعداء لساكن قصر يلديز ، تقارير .. تقارير حتى إنه « وصل لمقامه الأسني ثلاثة تقارير في مسافة نقض الوضوء » والأغرب من ذلك أنه لا حساب ولا عقاب للجاسوس الذي يقدم فرية يثبت بالتحقيق بطلانها ، وقد تنافس الناس في عرض هذه الافتراءات ، فلا يتورع الابن في الدس على أبيه عند السلطان لينال رتبة ، أو يحقق حظوة ، وهكذا شاع جو من الريب والشكوك ، وتلاحقت الفتن القاتلة ، وهل تنهض دولة على الأباطيل ، وتشيد صروحها على الأكاذيب ؟

وقد تحدث غير المويلحي عن جواسيس القصر ، وقالوا : ما تذهل له الأذهان ، ويصعب تصوره في عالم الخيال . فقد روت « جويدان هانم » زوج الخديو عباس حلمي الثاني في مذكراتها مراقبة جواسيس يلديز لها [1] .

ومما أفصح عنه الخديو عباس الثاني في حديث له مع كونتيسة نمساوية ـ قيل إنه معجب بها ـ إن السلطان داخلته الريب في أمره وقال لها : « يظهر أن أبا الهدى أثر على أفكاره (أي على السلطان) بأني أسعى لأكون خليفة للمسلمين مع أنني لست عربي الجنس .. وأن الذين يخصون العرب بالخلافة إنما يجعلونها من حق قريش ، فضلا عن كوني لا أستطيع مناظرة ومنافسة آل عثمان في سلطنتهم .. وبلادي محتلة .. » ثم قال : « وبالرغم من

---

(١) مذكرات الأميرة جويدان هانم ص٦١ التي قدم لها وعلق عليها الأستاذ سعد رضوان ـ الهلال عدد ٣٥٦ .

كل هذا وذاك فإن هذه التهمة قد تمكنت من قلب السلطان عبد الحميد [1] فاشتد وساوسه وهواجسه من جهتي وأحاطني بكتائب من الجواسيس»[2].

هذا فضلا عما كتبه ولي الدين يكن في كتابه « المعلوم والمجهول » عن الجواسيس وهو شي كثير.

ولكن إلى أي مدى كان السلطان عبد الحميد يخشى الناس حتى يسلط عليهم الجواسيس ؟ وما هي المبررات الكافية التي جعلته يكثر من هذه الطائفة ويحتضنها وينعم على من يقدم له تقارير أكثر ؟

واقع الأمر أن السلطان عبد الحميد له أن يتخوف ويتفزع لكثرة ما جرى لآبائه وأجداده الخلفاء من جراء المؤامرات ، وكثرة المنازعات ، فقد خُلع أحد عشر خليفة من آل عثمان . وقد يكون لفسادهم وتبذيرهم دور في هذا العزل إلا أن ذلك الخلع تم على أيدي آخرين تآمروا في الخفاء ، وأضمروا الإطاحة بالسلاطين ونفذوا بالفعل ، وإن معرفة عبد الحميد بهذه الأخبار لابد وأن تفزعه وتمزقه خوفا من أن يلقى هذا المصير ، ومما جعل السلطان يهلع ، وقلبه يرجف ، أنه رأى بعينه عمه السلطان عبد العزيز وهو يخلع ثم يقتل نتيجة مؤامرة دبرها رديف باشا وحسين عوني باشا ومدحت باشا ، وممن أرّقوا عبد الحميد أعوان السلطان مراد ، فقد كان الاتحاديون يختلقون أنباء لا رصيد لها من الصحة ، فينشرون في صحفهم أنهم أعدوا السلاح وسيظهرون في الأستانة لإطلاق سراح السلطان مراد المعتقل بقصر

---

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة عدد فبراير ١٩٢٨ – مقال للأستاذ محمود زكي باشا بعنوان : صفحة من حياة الخديو السابق في الأستانة .

(٢) قال العقاد في كتابه « رجال عرفتهم » ص ١٠٨ : « كان السلطان العثماني يتهم الخديويين بالسعي إلى تحويل الخلافة من الترك إلى البلاد العربية » .

« جراغان » واقتحام مقر السلطان عبد الحميد والقبض عليه وسجنه مكان مراد [1] . وكانت هذه الأنباء تقوم لها دوائر قصر يلديز ولا تقعد ، فالرجل مهدد في كل لحظة .

ولا يغرب عنا ما كانت تقوم به طائفة الأرمن ضد الخليفة ، وقد تعرضت حياة السلطان للموت بسبب اعتداء أرمني عليه وتفجير قنبلة بالقرب منه .

وإذا عرفنا حجم وعدد الجمعيات السرية في الداخل والخارج التي أعدها أعداء السلطان من العرب والأرمن والأوربيين ، وكلها تستهدف تقويض عرش الخلافة ، والصحف الكثيرة التي تنشر الأكاذيب ، وتنتقد الأوضاع ، وتحرض الناس على التمرد والثورة . لو عرفنا كل ذلك لأدركنا إلى أي حد كان السلطان يسهر ولا ينام ، ويجد سلوته في قراءة تقارير الجواسيس . وإني لا أظهر شفقة على السلطان ، ولا ألتمس له الأعذار ، ولكني فقط أتخيل الجو الذي كان يعيش فيه والظروف التي أحاطت به ، وكدرت عليه عيشته ، وإن كان هو قد ساهم في خلق هذا الجو الخانق ، وهذه الظروف التعيسة .

هذا من ناحية الأحداث الخارجية التي سببت ذعرا للسلطان ودعته للاستعانة بالجواسيس على أعدائه .

أما الأسباب الأخرى فهي ذاتية نفسية تتعلق بولادته ونشأته وتتركب في طبعه وميوله . فقد ولد عبد الحميد سنة ١٨٤٢ من أم يقال : إنها أرمنية على نحو ما ذكر جرجي زيدان ، ويقال : إنها شركسية على نحو ما يقول آخرون ، وتقول الباحثة الألمانية « الماوتلن » [2] : إن أباه عبد المجيد لم

(١) كتاب المعلوم والمجهول لولي الدين يكن الصادر سنة ١٩٠٩ .

(٢) كتاب « عبد الحميد ظل الله على الأرض » للكاتبة الألمانية (الماوتلن) ترجمة راسم رشدي ، الصادر عام ١٩٥٠ والجزء الثالث من أدب المقالة الصحفية لعبد اللطيف حمزة

يعترف به إلا في اليوم الثامن من ولادته بعد تذكر الأمر التي حملت به من جملة جواريه ، وتذكر الباحثة الألمانية : أن الشائعات في القصر كانت تردد أن أمه حملت به من رجل أرمني . وقد صبرت الأم على ما لحقها من أذى الحريم حتى نما طفلها وأودعته سرها وجعلته يحقد على الجميع حتى والده الذي تلكأ في نسبه إليه ، ثم تقول الباحثة : « بينما كان الأطفال الآخرون في القصر يتعلمون حرف الهجاء كان عبد الحميد الطفل يتعلم حبك الدسائس والرياء والمداهنة »[1].

وبعد وفاة أمه قربته منها بور توالي قادين والدة السلطان عبد العزيز وكانت هذه السيدة تعتقد في الخرافة وتميل إلى الدسيسة ، فوجد فيها عبد الحميد ضالته ، فأحبها وأحبته ، وكانت هذه السلطانة توحي إلى ابنها السلطان عبد العزيز أن عبد الحميد أفضل من أخيه مراد في سياسة الملك ، فترسخ هذا الاعتقاد لديه وخاصة أن عرافين ومشعوذين آخرين قالوا له : إنه سيصير ملكا ، ومن ثم فإنه كان يعادي كل من يقول بغير ذلك ، وراح يراقب حركات الكارهين له بالتجسس[2].

وكان ميل عبد الحميد في صباه إلى الانطواء والدسيسة والتجسس من الخصال الظاهرة فيه حتى لمسها من عرفه . وقال عنه المستشرق فاميري : وقد عرف عبد الحميد في صباه « إنه ممتقع اللون ، سكوت ، سوداوي المزاج كثير الشكوك ، ميال إلى الحيلة والدهاء ، وقلما كان يشترك في الأحاديث التي كانت تدور بين إخوته ، بل ربما نظر إليهم وهم يتمازحون ويتضاحكون فلا يزيده ذلك إلا انقباضا » وقيل : إن أباه كان يسوؤه منه ميله إلى أهل الدسائس[3].

(١) المصدر السابق .
(٢) انظر ما كتبه جرجي زيدان في مجلة الهلال عدد يونيه ١٩٠٩ ، ويوليه ١٩٠٩ .
(٣) المصدر السابق . وذكر المويلحي في « ما هنالك » أنه كان يضيق بالفكاهة في مجلسه .

هكذا نشأ عبد الحميد في مدرسة أمه التي علمته الكراهية والصبر الطويل على الأذى ، وفي مدرسة القصر حيث تكثر الشائعات وحملات التشكيك ، ومدرسة بورتوالي قادين التي تعلم فيها الدسائس واستطلاع خفايا الغيب بالتنجيم . فتولد من كل هذا ما تولد في نفسه من خوف ، وعدم ثقة في الآخرين ، وسعة حيلة ممزوجة بذكاء خبيث لا يكشف عن طوية سليمة صافية .

ويبرر عبد الحميد دوافعه ، ويعلن عن البواعث التي حثته على تكوين جهاز كبير نشيط من الجواسيس ونراه يقول في المذكرات التي تحمل اسمه :

« علمت ذات يوم من موسوروسي باشا سفيرنا في لندن أن الصدر الأعظم السابق ، السر عسكر عوني باشا ، تسلم نقودًا من الإنجليز ، إذا كان الصدر الأعظم وهو يحكم البلاد باسم السلطان يخون دولته فإن مخابراته لابد أن تبلغ القصر على أنه يؤدي عمله على الوجه الأكمل لذلك تكدرت وتأثرت » .

ويقول : « لا يمكن للدولة أن تكون آمنة إذا مكنت الدولة الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصا في درجة وزير أعظم . بناء على هذا قررت إنشاء مخابرات ترتبط بشخصي مباشرة . وهذا هو الجهاز الذي يسميه أعدائي « جورنالجية » (الشرطة السرية) » .

« وكان ضروريا أن أعرف أن بجوار هؤلاء » (الجورنالجية) الحقيقيين لابد أن يوجد أشخاص مفترون ، لكني لم أصدق ولم آخذ أي شيء يأتي من هذا الجهاز إطلاقا دون تحقيق دقيق» .

وإذا كان السلطان قد ذكر خيانة بعض الكبراء والوزراء للدولة ، وهو سبب وجيه يدفعه لرصد حركاتهم وسكناتهم ، إلا أن هذا ليس المبرر الوحيد لتجنيد جيش كبير من الجواسيس ينتشر في كل أرجاء المملكة ، وإنما

المبرر الحقيقي هو خوف السلطان على حياته من أعدائه . ومن أجل الحفاظ على عرشه وقعت مظالم عديدة على الكبار والصغار جميعا فنفى من نفي وقتل من قتل ، حتى قال حافظ إبراهيم فيه بعد خلعه :

مُشبعَ الحُوتِ من لحوم البرايا   ومُجيعَ الجنودِ تحتَ البُنودِ

❖❖❖

الإصلاحات في عهد السلطان عبد الحميد :

وقارئ « ما هنالك » لا يقف فيه على أثر حميد أو فعل رشيد للسلطان عبد الحميد . وقد ذهب هذا المذهب غير المويلحي من المترجمين للسلطان ، أو من المؤرخين لتلك الحقبة ، بيد أن الكاتب الفاحص ، والمؤرخ الممحص الذي يزن الأمور بموازينها ، ويعرض للأشخاص بمعيار يبرز المحاسن ولا يغفل عن المساوئ لابد وأن يعثر على إصلاحات غير منكورة للسلطان رغم التسليم بكثير من أوجه الفساد في عديد من الميادين .

ولن نسرد هنا رذائل السلطان أو نشير إلى الفساد الناجم عن سياسته ، لأن هذا مسطور في ذلك الكتاب الذي نقدمه للقراء ، وفي غير هذا الكتاب من كتب المعاصرين لتلك الفترة ، ولكننا سنعرج على ذكر بعض الإصلاحات التي ذكرها المحايدون أو المعتدلون ، ولا يغيب عنا ـ ونحن ندرس تلك الحقبة ـ أن هناك فئة من الناس في العصر الحميدي كانت تنادي بالإصلاح لا بقصد تحقيقه ولكن بغرض التعريض بالسلطان وانتقاد حكومته ، وتحريض الأمة على الثورة ، بدليل أن (الحكومة) إذا أتت إصلاحا مفيدا ازدادت تلك الفئة صياحًا ، وصغرت ذلك الإصلاح إن لم تعتبره إفسادًا »[1] .

---

(١) مجلة الجامعة : عدد أغسطس ١٩٠٠ .

لقد تحدث السلطان عبد الحميد عن نفسه في مذكرات نشرت أخيرا ، ومن حقه أن يتكلم ، ومن واجبنا أن نسمع ، إن للمتهم حق الدفاع ، وليس بالضرورة أن يسلم القضاة بصحة كل قول ــ إذا جاز أن ننصب أنفسنا قضاة ـ فإذا جاءت شهادات من أناس معتدلين تؤيد هذه الأقوال فنعم بها .

يقول السلطان في ص٢٢ من مذكراته :

« عندما توليت الحكم كانت ديوننا العمومية تقرب من ثلاثمائة مليون ليره ، وفقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة ، أي إلى العشر وذلك بعد دفع ما تطلبته حربان كبيران وعدة تمردات داخلية ، أما ناظم بك ورفاقه فقد رفعوا هذا الرقم من ثلاثين مليون ليرة حيث تركته إلى أربعمائة مليون ليرة » .

ويقول : في ص ٧٦ وما بعدها :

« لو كنت عدوا للعقل والعلم فهل كنت أفتح الجامعة ؟ وهل كنت أنشئ المدارس التي تعد للدولة الإنسان المثقف ؟ (ملكية شاهانة) .. لو كنت هكذا عدوا للعقل والعلم فهل كنت لأنشئ لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال دار المعلمات ؟ لو كنت عدوا للعقل والعلم حقيقة أفكنت أجعل من (غلطة سراي سلطانيس)[1] في مستوى الجامعات الأوربية وأفرض على الطلاب فيها دروس الحقوق ؟ » هل يمكن أن يكون عدوا للعلم والعقل سلطان بذل كل ما في وسعه قرابة الثلاثين عاما لكي يرى في كل قرية مسجداً وبجانب المسجد مدرسة ؟ » .

(١) غلطة : مدينة تركية في منطقة الروملّي (الجانب التركي في أوربا) تقع بالقرب من القرن الذهبي وهو خليج يتصل بخليج البسفور مركز تجارة الأستانة .

« بمجرد ارتقائي العرش أدخلت التلغراف في كل أرجاء الدولة ، وكان في ذلك الوقت لم يدخل حتى بعض الدول الأوروبية ... أقيم خط تلغرافي بلغ ٣٠.٠٠٠ ثلاثين ألف كيلو متر امتد حتى القرى » .

« وقامت تجارب الغواصة في استانبول من مالي الخاص ، وفي تلك الأيام لم تكن حتى انجلترا تملك سفينة تسير تحت البحر ... » .

هذا بعض ما قاله السلطان عن إصلاحاته ، وهو صحيح ، فقد أيدته مصادر معتدلة أخرى ، لا ترجو من السلطان نفعا ولا تخشى منه بأسا ، بل زادت هذه المصادر على ما قاله عبد الحميد أشياء كثيرة فقد ذكر فرح أنطون في مجلته « الجامعة » [1] جملة من هذه الإصلاحات جاء بعضها على النحو التالي:

« إن الثقة المالية بالدولة اليوم حسنة ، وجميع الدول راغبات في مصافاتها والتودد إليها ، والمشروعات الإصلاحية تتوالى فقد نظم الجيش سياج الدولة وأقيمت معامل تصنع السلاح في الأستانة واعتنى بإصلاح الأسطول اعتناء يذكر فيشكر ، وانصرفت العناية إلى التعليم وإنشاء المدارس بعض الإنصراف ، وأخذ في تنشيط الزراعة وإحياء الصناعة ، وشرع في مد السكك الحديدية في وادي الفرات والحجاز .. » .

ولا يجد القارئ فارقا كبيرا بين ما قاله السلطان وما ذكره رجل مسيحي مثل فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) مع أنه انتقد عبد الحميد في نفس المقال ، وأشار إلى ما يلاقيه أبناء الأمة على أيدي الحكام من عسف ، وما يتعرضون له في المحاكم من ظلم .

(١) مجلة الجامعة عدد أغسطس ١٩٠٠ .

وإذا كانت الأحوال المالية حسنة في عهد السلطان فإن الدولة قد ارتبكت أوضاعها الاقتصادية في عهد الاتحاديين مما حدا بهم إلى إبعاد آلاف العمال عن وظائفهم .

على أن هناك مسيحيا آخر هو قسطاكي الحمصي ، رسم صورة إصلاحية ثانية لعصر عبد الحميد نشرها في مجلة الضياء [1] ، وقد نوه بالحرية المطلقة للناس على اختلاف الأجناس . وقال : « وفي القسطنطينية صحف أخبار تنشر يوميا بالتركية والفرنسية والعربية واليونانية والأرمنية والانكليزية والعبرانية وفيها وكالات لنشر الأخبار البرقية » ثم قال : « أما المدارس هنا فكثيرة وأعظمها وأرفعها شأنا المكتب السلطاني وفيه من الطلاب نحو الخمس مائة من جميع الملل وأكثرهم على نفقة جلالة السلطان» ، « ومن مدارسها الشهيرة أيضا المكتب الملكي ومكتب الحقوق وفيها المدارس العسكرية والطبية وكلها تضارع أحسن المدارس العالية في أوربا وأكثرها قد تأسس وتحسن في زمن خلافة أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان الثاني .. وفيها مدارس كثيرة للبنات ومدارس للأخوة الملقبين بالفرير ولأكثر الطوائف والأمم كتاتيب ومدارس تُعلم فيها اللغات والعلوم وفيها مرصد فلكي خاص بالدولة » .

وقد هول بعض الكتّاب وطولوا في مدى اضطهاد الأقليات الدينية في دولة السلطان ، ولعل في قول سليم حموي (وهو مسيحي) ما ينفي ذلك ، فقد جاء في جريدة « الفلاح » [التي كان يصدرها] عدد ٣١ يناير ١٨٩٦ تحت عنوان « التسامح الديني في الدولة العلية » :

(١) مجلة الضياء لليازجي عدد ١٥ مايو ١٨٩٩ .

« امتازت الدولة العلية بأجل المزايا والمفاخر التي تطمئن إليها الشعوب وتغبط الأمم عليها رعاياها في سائر ممالكها المحروسة وهي حرية الأديان والمذاهب لكل الطوائف المستظلة بلواء عدلها ومساعدتها لكل فريق بما تستلزمه محافظته على شعائره مساعدة لا تنالها الطوائف الأخرى من أي دولة مسيحية وهذه الحقيقة الباهرة لا يحجب نورها جحود المكابر».

ومن حسنات السلطان المعروفة رفضه لمشروع هرتزل بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين رغم ما عرضه الصهيوني الماكر من ملايين الليرات الذهبية على جلالة السلطان ، وعندما أزيح السلطان عن سريره ، سمح الاتحاديون لليهود بإقامة مستوطنات لهم في فلسطين .

ومن مآثر عبد الحميد أنه جنب تركيا الحرب وويلاتها بالرغم من دخوله في حربين يقول بعض المؤرخين : إنه غير مسئول عن واحدة منهما ، وقد اعتمد في سياسته الخارجية على الإيقاع بين الدول الأوربية لإذكاء الصراع بينها حتى إذا وقعت الواقعة رأى ماذا يفعل ، وفي نفس الوقت أخذ يجمع المسلمين حوله بقصد توحيدهم أمام القوى الصليبية المناوئة ، وهناك ن يشكك في نوايا السلطان الحقيقية من دعوته « للجامعة الإسلامية» أما في عهد الاتحاديين فإنهم لم يتورعوا في إدخال تركيا الحرب العالمية الأولى التي أسفرت عن فصل الشام والعراق والحجاز وبعض أجزاء من أملاك الدولة في أوربا حتى تركيا نفسها كانت مهددة بالسقوط والاحتلال، فضلا عن ليبيا التي سلخت من الدولة قبيل الحرب الأولى .

ولم تكن الأمة العثمانية بأسرها تتآزر ضد السلطان وتتناصر عليه ، فما إن أعلن عن عزله حتى ثارت جماعات كثيرة مستنكرة الانقلاب العثماني

مما حدا بالحكومة الجديدة الاتحادية أن توجه قواتها العسكرية للقضاء على المؤيدين لعبد الحميد وبخاصة في مناطق أطنة .

هذه بعض مظاهر الإصلاح في عهد عبد الحميد خان ، وإثباتها هنا واجب حتى تكتمل الصورة بأنوارها وظلالها ، وهذه الإصلاحات في عمومها لا تكفي لنهوض دولة كبيرة مثل الدولة العثمانية .

ما هنالك أيضا صورة وصفية :

قدم المويلحي في « ما هنالك » صورة سياسية واضحة الخطوط ، بارزة المعالم للسراي السلطانية في يلديز ، وعرض للاحتفالات والمواكب وأفاض فيها لدرجة الإشباع ، وكان يستهدف إظهار مدى التردي السياسي والاجتماعي نتيجة سوء الحكم ، وإيضاح ما وصل إليه السلطان من مظاهر الجلال والأبهة .

ولكنه لم يقدم لنا صورة وصفية تبين أحوال العمران في الأستانة ، أو صورة جمالية لقصر يلدز على نحو ما فعل الأب بولس جوون في مقالته « المشاهد الفتانة في رحلة الأستانة » المنشورة في مجلة المشرق السنة الثانية ، أو على طريقة الأب لويس رونزفال في مقالته « ما هنالك » أيضا ، وثمة سلسلة من المقالات دبجها الكاتب قسطاكي الحمصي تحت عنوان « أريج الخليج أو تذكار القسطنطينية » بمجلة الضياء . فإن هؤلاء قدموا لنا صورا وصفية لعاصمة الخلافة وقصر يلديز غلب الكلام فيها على العمران وأحوال الاجتماع ، ودرجات الحضارة ، وأطوار الثقافة ، مع قليل من السياسة .

ففي مقال « ما هنالك »[1] لرنزفال نجد وصفا رائعا لقصر يلديز

(١) مجلة المشرق عدد ديسمبر ١٩٠٩ .

ومغانيه الفيحاء ، وروابيه الخضراء ، وحظائر الظباء والغزلان ، وبرك الأسماك ، والجداول الرقراقة ، والطرق المفروشة بالرمال والحصباء . وأصناف الخمائل والأدغال والنباتات الفواحة ، والأندية المختلفة ، والتحف العجيبة ، والبحيرات المحاطة بالرخام يعوم فيها البجع ، ومتحف الحمام والطيور الصداحة الغريبة الأشكال والألوان ، ووصف جوسق المراسيم الذي كان السلطان يستقبل فيه السفراء والكبراء إلى آخر ما وصف من محاسن هذا القصر ومحتوياته . وهذه الصورة لقصر يلديز تبين للقراء كيف كان يعيش هؤلاء الملوك ، وماذا أباحوا لأنفسهم من الترف والبذخ .

وجاء في مقال آخر نشرته مجلة « المحيط » [عدد مايو ١٩٠٩ والتي كان يصدرها عوض واصف] ونقلته عن الإيجبشين غازت :

(يحيط بيلديز حائط كبير جدده السلطان الحالي ويلغ ارتفاعه ١١ قدما حتى لا يتيسر لأحد خارج السراي معرفة شيء فيها ، يقيم وراء هذا الحائط قشلاقات الحرس السلطاني وقد جعل كل جزء من الأبنية داخل هذا الحائط الخارجي حائطًا آخر) .

(أفرغ السلطان جهده في تهيئة كل ما يحتاج إليه داخل السراى حتى لا يفتقر إلى الخارج فشيد داخل السراى المعامل وأنشأ لكل من أولاده منزلا وخصص عدة قصور للحريم وأقام بالسراى دار تمثيل ودور آثار واصطبلات ومستشفيات للحيوانات ومحلات لإقامة الكلاب وأخرى لصيانة المأكولات وبالاختصار كل شيء يراه الإنسان في بلدة كبيرة) .

(ولما زلزلت الأرض زلزالها عام ١٨٩٧ فكر السلطان في إنشاء محل يكون بمأمن من الزلازل فأنشأ كشكا فيه ١١ غرفة جدرانه من السمنت وقد أقامه على جبل صناعي وهذا الكشك لا يهتز بهزات الأرض ولا تعلق به النار) .

(أما الأبسطة في يلديز وأغطية المفروشات فمن الجرير الخالص وهي مصنوعة في معمله الخاص بهركة وأما الأبواب فمنقوشة باللؤلؤ والعاج ولها مفاتيح مخصوصة لا نظير لها ويقال إن لهذا الكشك محلا سريا ...) .

(أما عدد الناس الذين في السراى عدا الخمسة آلاف جندي المؤلف منهم الحرس فسبعة آلاف من سيدات وخادمات وخدم وحشم وأغوات وضباط وطهاة وجنائنية وسياس وعربجية وممثلين ومماليك وعبيد وجوار ونجارين ومهندسين وبنائين إلى غير ذلك . وهناك عدد كبير يشتغلون في السراى ولكنهم يغادرونها ليلا لم يحسب هم في هؤلاء) .



أما قسطاكي الحمصي (١٨٥٨-١٩٤١) فقد قدم صورة وافية عن الأستانة من مختلف النواحي فتحدث عن اقتصاد المدينة وحالتها العمرانية وقد تأخذنا الدهشة لما قاله عنها وذكره لأشياء غير مألوفة لنا ، ومن هذا أن بيوت الأستانة كلها إلا القليل من الخشب لذلك تكثر الحرائق ، وأن عربات النقل في شوارعها تجرها الجواميس الطويلة القرون ، ودور التمثيل بها قليلة رغم ما بلغته هذه العاصمة من الحضارة ، أما ما يحتاج إليه الإنسان من طعام وشراب فميسور سهل الحصول عليه ، ومن العجائب أن الباعة ينادون على أبضعتهم بأصوات منكرة يتغنون فيها ، فبعضهم يحاكي الكلاب ، وبعضهم الآخر يقلد صهيل الخيل أو مواء السنانير ، وأشار إلى كثرة الكلاب في أسواق وأزقة الأستانة التي لا تكف عن النباح والعراك ، وهذه

ظاهرة معيبة إذ إنها ليست من لوازم الحضارة [1] ، ثم انتقل إلى الحديث عن السكان وأجناسهم وعاداتهم ، وكشف عن تقاليد الفرنجة المستهجنة إذ لا يستحون من التهتك والخلاعة والمجون ، واستصحاب أزواجهم وبناتهم إلى محلات المسكرات أما أخلاق الأهلين من المسلمين فهي الاستقامة والقناعة وحب الأبهة ، وأشار إلى اهتمام الدولة في عصر عبد الحميد بدور العاديات التي ضمت آثارا نادرة من سائر الجهات ، ولم يفته الحديث عن أنفاق الأستانة ، ومنازهها ، ودور الاستشفاء ، ودار العجزه التي بناها عبد الحميد ، ونوه بالقصور والحصون والمساجد والكنائس التي تمثل مختلف الطوائف المسيحية ، وتناول بالتفصيل أقسام المدينة ووقف على علائم كل قسم منها وهي في الجملة صورة وصفية دقيقة لعاصمة الخلافة الإسلامية ولم يهتم الحمصي كثيرا بالحديث عن السياسة .

هذه صور أخرى للآستانة في العصر الحميدي وقد أوردنا موجزا محدودا جدا لها لاستيفاء الصورة التي نقلها المويلحي ليكون لدى القارئ تصور عام عن تلك الفترة وذلك المكان الذي جرت فيه أهم الأحداث في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين.

---

(١) من العجيب أن العثمانيين عندما فتحوا مصر أمر الوالي بقتل الكلاب (سنة ٩٣٤هـ) فوقعت فيها مقتلة عظيمة حتى كادت تفنى) وفي ذلك قال ابن إياس :

تأملوا ما جرى بمصر	من حادث عم بالعذاب
فما رعى الترك في دماء	فكيف يرعون دم الكلاب

وقد توسط الزيني بركات بن موسى المحتسب عند الوالي ليصدر أمره بعدم التعرض للكلاب التي تقوم بحراسة البيوت من اللصوص ، فقبل الوالي ، وسكن اضطراب المصريين الذي حدث بسبب هذا الموضوع ، انظر كتاب « الأدب المصري في ظل الحكم العثماني » لمحمد سيد كيلاني ص١٦ .

أهمية ما هنالك في التاريخ والأدب :

من بين أوجه أهمية الكتاب أن إبراهيم المويلحي كشف عن أسرار كثيرة ، وفسر وقوع حوادث عديدة نعرف ظاهرها ونجهل خوافيها ، ذلك أن المداولات والمحاورات التي تسبق القرارات ، والبواعث المحركة لها ، والأشخاص الحقيقيين وراءها ، وهو التاريخ الصحيح ، وكلما غاص المؤرخ في أعماق المواقف والوقائع ، وتتبع الأحاديث السرية التي تجرى وراء « الكواليس » كما يقولون كان قريبا من الحقيقة التاريخية التي هي غاية البحث ومنتهاه .

وعيب هذه الطريقة في التأريخ أننا لا نستطيع أن نطالب المؤرخ بوثيقة ممهورة تثبت صحة كلامه ، إذ إنه يقول : لك سمعت ورأيت ولا زيادة ، وعليه فإن ثقة المتلقي قد تهتز في كاتب التاريخ ، ولكن مما يخفف من عيوب هذه الطريقة أن للوقائع شواهد ، وللحوادث منطقا يربط بينها ، وللقارئ ذهنا يقدر به مجريات الأمور ، وفوق كل ذلك مدى أمانة الكاتب وثقة الناس فيه.

وعلى أية حال فقد أماط المويلحي عن أحداث سياسية بارزة منها أنه عندما تولى خير الدين باشا – الذي عزله الصادق باي تونس – الصدارة العظمى في دولة الخلافة أراد أن يهدد الباي فساعد على خلع الخديو إسماعيل ليبين للباي مدى نفوذه ، ويفهمه أنه سوف يعمل على عزله مثلما فعل مع خديو مصر .

ومما أخبرنا به أنه عندما عقد مؤتمر برلين لتعديل نصوص معاهدة سان ستفانو اشترطت فرنسا ألا يتحدث المؤتمرون على مصر وسوريا وبيت المقدس ، فتنبه الإنجليز إلى ذلك وسبقوا إلى احتلال مصر .

ولا يعزب عنا أن الإنجليز كانوا يرغبون في احتلال مصر حتى من قبل معاهدة سان ستفانو وقد حاولوا ذلك عام ١٨٠٧ وفشلوا ، إلا أنهم أخذوا يرقبون تطور الأحداث للانقضاض على وادي النيل في الوقت الملائم . ولا نشك في أن فرنسا هي التي نبهت إنجلترا لاحتلال مصر ، ولكن كان ذلك عام ١٧٩٨ عندما جاءت الحملة الفرنسية وليس عام ١٨٧٨ عندما عقد مؤتمر برلين .

ويبين لنا المويلحي ما كان من أمر صدور فرمان عصيان عرابي ، فيذكر أن السيد أسعد [١] عندما التقى بعرابي ولم يسترح له ، لقلة كرم عرابي ، أرسل السيد أسعد إلى السلطان أن عرابي يحقر آل البيت ولا يهتم بهم فأصدر السلطان فرمانه الشهير بعصيان عرابي .

ورغم ندرة كتاب « ما هنالك » فإنه صار مرجعا تاريخيا تُستقى منه الأخبار أو تُنقل عنه المعلومات ، فقد اعتمد عليه جرجي زيدان أكثر من أي مصدر آخر فيما سطره عن السلطان عبد الحميد وعصره وذكر المويلحي بالاسم وأورد من كتابه صفحات كثيرة جدا .

وفي مقال « ما هنالك » للأب رنزفال كلمات سياسية قليلة مأخوذة من كتاب « ما هنالك » للمويلحي ، غير ما يلاحظ في تطابق العنوانين مع أن رنزفال لم يشر إلى المؤلف الذي نقل عنه ولا إلى كتابه الشهير .

أما الدكتور عبد اللطيف حمزة فقد عقد لكتاب « ما هنالك » فصلا في الجزء الثالث من « أدب المقالة الصحفية في مصر » استغرق ثلاثين صفحة عرض فيها الكتاب ونبه على أهميته .

---

(١) انظر ما هنالك .

ومهما يكن من أمر فإن « ما هنالك » وثيقة سياسية شاهدة على عصر عبد الحميد ، وسيظل رافدا هاما يمد الكتابة التاريخية بمادة كبيرة عن تلك الفترة وذلك السلطان .



أما في الأدب ، فثمة صفحة في « ما هنالك » سخر فيها المويلحي من ضياع معظم ممتلكات الدولة العثمانية على أيدي الأوربيين ، فأخرج راشد باشا وصاحبيه عالي باشا وفؤاد باشا [1] من قبورهم وأجرى على ألسنتهم حوارا دار بينهم وبين رجل في طريقهم عما جرى في الدولة بعدهم . وأخبرهم هذا الرجل بما فقد من أصقاع مملكة آل عثمان . فعادوا مهرولين إلى قبورهم ...

فقد تكون هذه الخاطرة هي التي أوحت إلى محمد المويلحي (الابن) بفكرة كتابه « حديث عيسى بن هشام » .

فأصل « حديث عيسى بن هشام » هو خروج رجل من القبور هو « أحمد باشا المنيكلي » ناظر الجهادية المصرية أيام محمد علي ، وتجوله مع عيسى بن هشام ، وإبداء العجب والإعجاب بما جد على الحياة الاجتماعية في مصر . إننا لا نقطع في الأمر ، ولكن التشابه بين الفكرتين هو الذي جعلنا نطرح هذه الخاطرة . ولم يغب عن البال الفارق الكبير بين مضمون كتاب « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحي (الابن) وموضوع سطور « ما هنالك » لإبراهيم المويلحي (الأب) .

أما عن الأسلوب الأدبي لكتاب « ما هنالك » فسوف نعرض له في هذه السطور .

---

(١) جميعهم من الصدور الأعاظم .

أسلوب المويلحي في ما هنالك :

احتفظ المويلحي في هذا الكتاب بالأسلوب الأدبي والتعبير الفني الجمالي ، إلى جانب المعنى التاريخي ، والمغزى الاجتماعي ، وتراه في كل موقف راويا ومنشئا في آن واحد ، دون جفاف ظاهر عند ذكر الحقائق ، أو استعراض أسلوبي حالم يستهدف إبراز التفوق في التعبير ، أو استدعاء الصياغة البليغة التي يبدو فيها التمهر والتدبير بغير خدمة لمعنى يراد إيضاحه ، أو لموقف يرجى جلاؤه .

وقد كان يرى أن من واجبات المؤرخ أن يسلك في التحرير والتعبير ما شاء من مسالك البلاغة والفصاحة التي يراها موافقة لقرائه في اجتذاب ألبابهم واختلاب عقولهم لقبول ما يقرره من أفكاره وآرائه التي يريد أن يأخذهم بها ويرسخها في اعتقادهم على مثل ما رسخت في اعتقاده.

ولا شك أن المويلحي قد التزم بهذا الخط في ما هنالك ، لذلك فهو قطعة من الأدب التاريخي ، تقرؤه على أنه عمل أدبي استوفى فيه مؤلفه شرائط الأدب ، وتطالعه على أنه تاريخ تجلت فيه خصائص هذا العلم .

وقد يهوّل المويلحي ويطوّل في توصيف مشهد ، أو تصوير موقف ، إلا أن التطويل والتهويل ليسا المقصود منهما إثبات براعته في الكتابة ، وتأكيد ألمعيته في التعبير ، ولكن بغرض تنبيه القارئ وتنشيط حواسه ليرقب حدثا جليلا ، أو أمرًا خطيرا .

ومن بين ما تميزت به عبارة المويلحي الحدة حينا ، والحماسة العاطفية حينا آخر ، وكيف لا تتميز بذلك وهو يعرض لمواقف متصارعة ، وأحداث عاصفة ، وأخلاق بائرة ، وتدهور سريع لأمة عظيمة تحدت أوربا ستة قرون متواصلة .

وقد يبطن المويلحي كتاباته بالسخرية الذكية، التي تخدمها الملاحظة الدقيقة، والنظرة الشاملة، وقدرته على تطويع اللغة طبقا لما يرغب في تصويره.

وفي نثر المويلحي تتداخل الآيات، وتتسرب الأشعار، لأنه يفسح لها مطرحًا حتى تخالها جزءا من حديثه، فنراه يمهد للآية، ويوطئ للبيت حتى لا تشعر به وهو يركب كلامه، ويلتصق به، ومن هذا قوله:

(ماذا أقول ويقول القائلون ...... في قوم عزّل من كلّ مقاومة ومنازلة ومكافحة ومساجلة إلا من سلاح الأيمان بالله تارة وبالطلاق أخرى.

وأكذب ما يكون أبو المثنى إذا آلى يمينا بالطلاق).

فانظر إلى توطئته بذكر اليمين الكاذب، والطلاق الباطل، للبيت المتضمن نفس المعنى، إنه يبرر وجود البيت بهذه التوطئة دون إحساس بالنشوز أو الحشو.

ومما لا شك فيه أن المويلحي طور المقالة الأدبية رغم أنه ينشرها في صحيفة عامة، ولا أقول إنه خلص الأسلوب من الأسجاع والازدواج والجناس والمقابلة، ولكني أذهب إلى أنه برهن على أن البديع من محسنات الكتابة إذا كان الأديب أصيلا، قادرًا على الصياغة الجميلة دون أن تطوح به المحسنات بعيدا عن معنى يقصده أو فكرة يطلبها.

ولا يبعد عنا أن السجعة الرصينة، أو الجمل المقفاة، أشد تأثيرا على النفوس من العبارات المرسلة في بعض المواقف، وهذه هي الطريقة التي ارتضاها المويلحي، فلم يكن ساجعا في كل المواضع، وإنما حين يدرك أن التأثير هنا لازم لجلال الموقف الذي يعرضه.

فهو يسجع إذا رام التأثير ، ويرسل إذا طلب التأمل . وفي كل الأحوال فإن مشاعرنا لن تخذلنا في إدراك أننا أمام أسلوب بلغ حد البلاغة وتمثلت فيه عناصرها .

ولنطالع هذه القطعة الأدبية في وصف أخلاق الجواسيس ، وقد أجاد فيها ، يقول :

(كيف النجاة بما بقي للدولة والخلاص به من جواسيس هريته الأشداق لالتهام الرشا ، جهنمية البطون لهضم السحت ، مبسوطة الأيدي لحصاد الإثم ، باسمة الثغور لفوادح الظلم . مقبوضة النفوس عن فعل الخير . كمه العيون عن رؤية الحق ، مزورة الجوانب عن قول الصدق ، محصورة المساعي في أفانين الشر . مشرئبة الأعناق لهتك العرض ، سابقة الأقدام لمورد الإفك ، طائرة الصيت في عداوة العدل ، مطوية الجوانح على مخزيات الغش) .

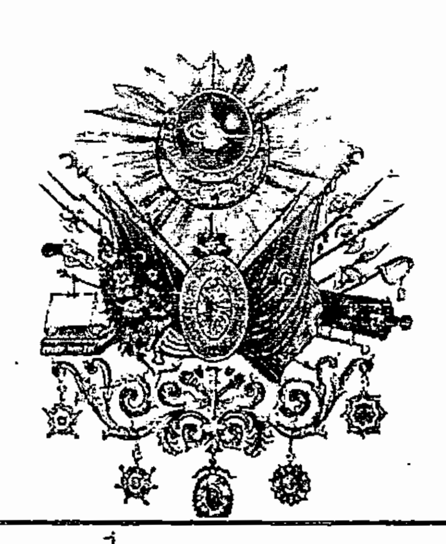
فهذه الفقرة تتصف بجزالة الصياغة ، وكفاية في التعبير ، مع حسن تقسيم ، وربط للكلام دون استخدام أدوات الربط .

وذلك هو أسلوب المويلحي الذي عرض من خلاله معارفه ، وبسط في ثناياه تجاربه ، وجلى به فترة من الزمن ، وأودع بين أيدينا ذخيرة أدبية ، وديوانا في التاريخ .



الفصل الثالث

آراء المويلحي في السياسة وشؤون الحكم





الإمبراطورية العثمانية في أوج اتساعها

الفصل الثالث

آراء المويلحي في السياسة وشؤون الحكم

للمويلحي آراء في السياسة وشؤون الحكم وتنظيم أمور الدولة ، ولكنه لم يضعها في قالب نظري تنتظم فيه الأجزاء ، أو إطار مذهبي تتجانس فيه المبادئ والآراء .

وهذه النظرات أو الخطرات قد تكون رد فعل لقراءات في النظريات السياسية ونظم الحكم ، ولكن الغالب عليها أنها انعكاس للمشاهدات والملاحظات على الممارسات والتطبيق زمن الخلافة الإسلامية العثمانية .

وقد عالج إبراهيم المويلحي العديد من القضايا السياسية ، والنظم الداخلية للدولة في ثنايا التوجيهات والانتقادات الكثيرة التي خصّ بها نظام الحكم الشاهاني .

فقد صور المويلحي لنا دولة السلطان وقد تفسخت ، وسادها الاضطراب ، وتخللها الفساد ، وأوقع في نفوسنا أن الكوارث ستلحق بها ، وأن الخراب واقع لا محالة فيها ، وقد وقع بالفعل .

واجتهاد المويلحي واضح في كل فصول هذا الكتاب لتبيين أسباب ذلك ، مع ربط المقدمات بالنتائج في حوار يحكمه المنطق ، ويتخذ مادته من الأحداث الجارية .

انتقاد السلطة المطلقة :

لقد كان المويلحي يرى أن سلطة الحاكم يجب ألا تكون مطلقة بغير حدود ، وذهب إلى أن خلاص الأمة العثمانية من المحن الغارقة فيها والكوارث المحدقة بها ، إنما يكون عن طريق الحكم النيابي ووضع القانون الأساسي موضع التنفيذ وهو الدستور الذي يفصل بين حقوق الحاكم وحقوق السلطة التشريعية .

وهو بهذا ينادي مع المنادين بأحقية الأمة في اختيار حكومتها التي تقرر مصيرها ، فإذا أخطأ الشعب فعليه العبء .

وكان يستكثر على دولة دينية تحكم شعوبا عديدة – معظمها من العرب والمسلمين – باسم الإسلام أن يكون هذا تصرف حاكم لا يخضع لمبدأ الشورى أو يمثل لرأي الدين ، أو يستجيب لممثلي الأمة في مجلس المبعوثان.

ولكن المويلحي لم يفسر لنا بصورة واضحة لماذا لم يخضع السلطان العثماني لمبدأ الشورى كما أقره الشرع الشريف ، ولماذا لم يعمل الدساتير الوضعية ، والقوانين المدنية ، وفصل السلطات وتحديدها بما يخدم مصالح الأمة ؟ .

ونعجب للسياسي الإيطالي الشهير نيقولو ميكيافللي الذي بين بوضوح سافر لماذا استهان السلطان العثماني بالشعب ، يقول في كتابه الأمير [1] :

(إن إرضاء الشعب ، بالنسبة إلى جميع الأمراء باستثناء خاقان الترك والسلطان ، أمر أكثر ضرورة من إرضاء الجنود ، إذ إن في وسع الشعب أن

(١) كتاب الأمير لميكافللي تعريب خيري حماد ص١٦٤ – ط دار الآفاق الجديدة ببيروت .

يعمل أكثر من الجنود ، وقد استثنيت سلطان الترك ، لأنه يحيط نفسه دائما بما يربو على الاثنى عشر ألف جندي من المشاة ، وخمسة عشر ألفا من الفرسان ، وعليهم ترتكز دعائم دولته وأمنها وقوتها ، ومن واجبه أن يرجح أي اعتبار آخر ، في سبيل إرضائهم ، وتنطبق هذه الحالة تماما على مملكة السلطان ، إذ إن وجودها كلية في أيدي الجنود ، يحتم عليه الاحتفاظ بصداقتهم دون الاكتراث بالشعب) .

ومع أن ميكيافللي يخص - بكلامه هذا - فترة زمنية سابقة على السلطان عبد الحميد فإن الأمر لم يتبدل كثيرا في عصر الخلافة العثمانية ، بل إن البادشاه [(١)] عبد الحميد زاد الطين بلة عندما أنشأ جهاز الجواسيس أو الخفيات وتوسع فيه لدرجة أقلقت الرعية .

وبالرغم من انتقادات المويلحي الكثيرة للسلطان ، وحديثه المستفيض عن الأخطاء التي ارتكبها أو ارتكبت في عهده ، وبالرغم من كلامه المسهب عن حقوق المواطنين في الأمن والتطلع للعدل فإنه لم يناد بنظام حكم بديل يكفل الحرية للشعب ويقلل من سلطات الحاكم ، كالنظام الجمهوري مثلاً ، وإن أشار من بعيد إلى نظم الحكم في أوربا ، وظل على اعتقاده بحق السلاطين في وراثة العروش وكل ما انتقد به السلطان عبد الحميد في هذا المجال هو حمله للقب « الخليفة » حيث كان يرى أن الخليفة يجب أن يكون من قريش طبقا لما هو معروف في الإسلام .

---

(١) البادشاه : لقب سلاطين آل عثمان وأصل الكلمة « باد » و « شاه » أي ليكن السلطان ، أو « بادر » و « شاه » أي أب السلطان وقال غيرهم أنها مركبة من « با » و « شاه » أي قدم السلطان إشارة إلى الاستعانة به . الهلال عدد يناير ١٩٠٣ .

فهو يؤيد السلطنة واستمرارها بشرط أن تنهض على مبادئ صحيحة فلا تجور . وموجز ما كان يرمى إليه ويستهدفه هو استنهاض الحاكم للعمل على الإصلاح الاجتماعي والنهوض القومي والحكم الدستوري النيابي . وهو في هذا لا يخرج كثيرا عما نادى به زعماء الإصلاح في تلك الفترة من أمثال مدحت باشا وخير الدين باشا التونسي .

وفي مجال علاقة المواطن بالدولة أسهب المويلحي في تبيين مدى الظلم الواقع على الرعية من قبل الحاكمين والمأمورين ، وقصر إلى حد كبير في توضيح ما على الفرد تجاه حكومته . ولكن يبدو أن العاطفة الإنسانية التي تتحرك في نفوس الأدباء حانية على المواطن ، تجعلهم يصرفون نظرهم إلى علاقة الحاكم بالمحكوم أكثر من نظرهم إلى علاقة المحكوم بالحاكم .

وربما تكون نظرات الكتّاب الحادة تجاه الحاكم مردها إلى أن الدولة هي مسئولية الحاكم أكثر من كونها مسئولية المحكوم باعتباره القادر الآمر المتصرف في الأمور وفي توجيه مسارها طبقا لما يريد .

وكما أدان السلطان فإنه أدان الرعية ، وجعلها مسئولة عن تصرفات الحاكم وبخاصة عندما يجور ويقيد الحريات فقد جاء في المقال الثاني [١] الذي صدر به « ما هنالك » :

(فما الذي يمنع الحكومة العثمانية من مباشرة هذا النظام الشورى الذي يأمر به الشرع الشريف من طريق الخلافة ويدعو إليه الحزم من طريق السلطنة ، يمنعها عنه أن الأمة لا تهب للمطالبة بهذا الحق فتجبرها على

(١) زعم المويلحي أن مقال « الأمة العثمانية » لفاضل كان يمضي مقالاته بحرف الياء في المقطم وأغلب الظن أن هذا المقال من إنشائه هو وهذا يتبدى من وحدة الأسلوب في سائر الكتاب من الغلاف إلى الغلاف واتجاه التفكير في سائر فصوله .

التسليم به ، وأهل الحكومة يصبون البلايا على رؤوس الأمة ليباعدوا بينها وبين هذا الطلب لأن فيه سدًّا لمطامعهم) .

فهو يدين الرعية لعدم يقظتها ، والتسليم للظلم الواقع عليها . وعدم انتزاعها حقها بالقوة والشدة .

ثم يقول المويلحي أو يقول هذا « الفاضل » الذي كان يمضي مقالاته في المقطم بحرف الياء : إن الحكام يتخذون الأحكام (واسطة في إحراز ، الأموال فالسابقون السابقون هم المقربون والفائز ، من أخذ نصيبه وبادر إلى سهمه) .

وهذا يعني أن فئة تتميز على فئة بالباطل ، وقلة تستحوذ على مقدرات الأمة وتركل الأغلبية ، وهذا ما يولد السخط ، ويدعو الناس للثورة ، ولعل هذا يذكرنا بما قاله أرسطو في كتابه « السياسة »[1] : (أكرر أن اللامساواة هي دائما علة الثورات حينما لا يعوض عنها أولئك الذين لا تصيبهم) و (أن الناس يثورون للحصول على المساواة) .

بلاط السلطان :

وقد أفاض المويلحي في الحديث عن بلاط السلطان وحاشيته ورأى أنهم قوم خبثاء لئام لا تعنيهم مصلحة الأمة بقدر ما تعنيهم المصالح الذاتية وما تعلق منها بالمادة والجاه . وقد حدث للدولة من جراء هؤلاء الأفاقين ما حدث ، والعيب في هذا لا يقع على الماكرين المخادعين وحدهم وإنما على السلطان أو على الحاكم الذي يتيح لهم فرصة الوقيعة والدس ، ونفث السم.

(١) السياسة لأرسطو ترجمة أحمد لطفي السيد ص٣٨٨ .

ولعل المويلحي يلتقى في هذه النظرة مع ميكيافللي الذي ذهب في كتابه « الأمير » إلى أن الأمير الذي (يتهور متأثرا بآراء المداهنين والمنافقين أو يبدل قراراته وفقا للآراء المتعددة التي تطرح عليه فإنه يفقد الاحترام والتقدير)[1] .

وقد بين المويلحي إلى أي مدى كان السلطان ينصت إلى هؤلاء المداهنين ويغير من مواقفه ، ويبدل قراراته ، وتحل الكارثة نتيجة ذلك .

ولكن لا يفوتنا في هذا المجال أن نستمع إلى رأي رجل آخر خبر الدنيا وخالط الناس وعرف الولاة ، ونظر إلى الأمور بمنظار واقعي دقيق ، ذلك هو ابن المقفع الذي أفرد بابا في كتابه « الأدب الكبير » للحديث عن السلاطين والولاة ، وكيفية التعامل معهم ، وأبرز ما يريحهم وما يقلقهم ، وبين موقفهم من هؤلاء الأنذال المتصنعين يقول :

(فلا يمتنع الوالي – وإن كان بليغ الرأي والنظر – من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار ، وكثير من الخانة (أي الخونة) بمنزلة الأمناء ، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء ، ويُغطَّي عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التمحل والتصنع) .

وهذا الرأي قاله المويلحي على طريقته من خلال الأحداث التي عرض لها ، فكان كلامه بيانًا ساطعًا في هذا الأمر ، وذلك عندما بين كيف كان السلطان عبد الحميد يركن لهؤلاء ، ويستطيب مجالسهم ، ويستمع إلى أقوالهم ، ويعمل بآراء الواحد منهم ثم سرعان ما يرتد ويعمل النقيض بعد وشاية أو سعاية من آخر . في حين أن الأبرار الأحرار كان مصيرهم النفي أو القتل أو السجن .

(١) كتاب « الأمير » ص ١٨٤ .

والحاكم المنفرد بالسلطة لا يخشى في دولته إلا أرباب الفكر ، ودهاة السياسة ، والقواد الأفذاذ لأنه يشعر بخطورتهم على أفئدة الناس ، ويدرك قدرتهم على تغيير مسار الأحداث . لذلك يستند إلى أهل الثقة أكثر ما يعتمد على أهل الكفاية .

وقد صور المويلحي مدى قدرة هؤلاء الأرذال على خداع السلطان والميل به إلى الناحية التي يريدونه فيها ، ومع أن المؤرخين شهدوا لعبد الحميد بالذكاء والمراوغة إلا أننا نعجب من قدرة تأثير حاشيته عليه بالرغم من قلة خبرتهم في عالم السياسة أو في الأمور الداخلية ، ولقد كان الإنجليز على وشك الرحيل من مصر بناء على اتفاق بين بريطانيا والدولة العلية ، وقعته ملكة الإنجليز ، ورفض السلطان التوقيع عليه لتدخل هذه البطانة وإقناعها لجلالته بضرر بنود الاتفاقية . وهكذا ضاعت جهود رجل حكيم مثل كامل باشا الذي أعد الاتفاق ونسق نصوصه مع السر در مندولف على جلاء الإنجليز عن مصر . إلى هذه الدرجة بلغ تأثير رجال السلطان عليه ، وإلى هذا الحد يعد المويلحي ناقدا سياسيا ومراقبا يقظا لمجريات الأحداث وما يدور في أروقة الحاكم من كلام تشقي به أمم ليسعد منه أفراد قلائل من باشاوات وأغاوات دوائر قصر المابين[1] .

فما أضعف الحاكم المطلق على شدته ، وما أحمقه رغم معارفه عن شئون دولته .

(١) آغا أو آقا : كلمة فارسية معناها الرئيس أو السيد وتقال للتفخيم والتعظيم .
والمابين : يقول جرجي زيدان عنه : « لفظ عربي أصله «ما» و « بين » وأطلق عند المسلمين على باب فاصل بين مجلس الرجال ومجلس النساء ويدل في التركية على حجرة لها بابان أحدهما إلى جهة الحرم والآخر لجهة الخدم . وكان الناس إذا أرادوا عرض أمر لجلالة السلطان في قصره وقفوا عند تلك الحجرة ، وبتوالي الأزمان صارت تدل على قصر السلطان حاشيته » الهلال أكتوبر ١٩٠١ .

السياسة الخارجية :

وللمويلحي في مسائل السياسة الدولية نظرات ونقدات جديرة بالاعتبار والتقدير ، فعين على الأمور الداخلية ، وعين على القضايا السياسية الخارجية .

والظاهر أن المويلحي كان يربط بين الأخلاق والسياسة ، على غير ما هو معروف من تلون السياسي حسب ما يجري من أحداث وتطورات ، وكان يرى أنه لا بد للدولة من تنفيذ البنود التي وقعت عليها في معاهدة وتفي بالعهود التي قطعتها على نفسها حتى لا تضطرها الدول الأخرى التي شاركت في صياغة نصوص المعاهدات على تنفيذ ما ورد فيها .

وهذا المبدأ الذي يظهر من كلام المويلحي يتعلق بأخلاق الدولة ، فالدولة لها خلق تظهر به في المجتمعات الدولية ، يشبه خلق الفرد الذي يسمو به أو يسفل في الهيئة الاجتماعية .

ويبدو أن المويلحي – في هذا الأمر – أنكر من آراء ميكيافللي ذلك الرأي القائل :

(وعلى الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعوده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الإضرار بمصالحه ، وأن الأسباب التي حملته على إعطاء هذا الوعد لم تعد قائمة)[1] .

إننا أمام رأيين متناقضين ، ومن الصعب الحكم لأحدهما ، والقدح في الآخر ، ذلك أن الأمر هنا يتعلق بمصالح الأمة ، وأغلب ظني أن السياسة لا تستند إلى مبادئ راسخة تعتنقها الدولة ، أو أخلاق طيبة لا تحيد عنها ،

(١) كتاب الأمير لمكيافللي ص١٤٨ .

وإنما تنقلب السياسة وتتبدل طبقا لمعطيات الأحداث، وأحوال الدول المجاورة، والأطوار التي تمر بها الدولة.

والواقع يقول: إن الدولة لا يمكن أن تكون راضية عن إعطاء دولة أخرى قطعة من أرضها، أو التنازل لها عن شيء من حقوقها، إلا تحت ضغوط ضعفها وقوة غيرها، فالدولة توقع على التنازل، وتقبل الضيم وفي ضميرها أن تنقض ما تعهدت به عندما تتبدل الأحوال، وتدرك أنه في إمكانها أن تستعيد ما تنازلت عنه برضاها، ومن ثم فالسلام بين الدول لا يدوم بالمبادئ الخلقية، وإنما يستقر ويتهدد نتيجة للظروف القائمة، والأحوال المتقلبة، ومن ثم فإن ميكيافللي قال ما هو واقعي. أما المويلحي فقد قال بهذا الرأي لأن الدولة العثمانية كانت في حالة خور وانهيار، وليس في مقدورها مواجهة الدول عندما تعرض عن تنفيذ ما تعهدت به وهي نظرة واقعية صحيحة كذلك.

ويرى المويلحي أنه يجب أن تتوافر عدة صفات في الرجل السياسي أهمها الدهاء والحنكة والتقلب في فنون السياسة. وأن يكون من أهل الهمة والعزم. ومن ثم كان لومه الشديد لسفير الدولة في باريس أسعد باشا لتمكن اليأس من نفسه، و « اجتهاده في إدخال غيره في يأسه ».

وفي مسألة تمثيل الدولة في المؤتمرات الدولية لتقرير مصاير الأمور وعقد الاتفاقات الهامة يري أنه يجب أن يحضرها رجال كبار لهم صوت مسموع، ونظر ثاقب في القضايا المطروحة للبحث، مع مراعاة مستوى التمثيل الدبلوماسي مع الدول الأخرى. ومن ثم انتقد السياسة العثمانية انتقادات مُرّة لأنها أرسلت إلى مؤتمر برلين لتسوية النزاع مع روسيا وإلى كريت وقائد عسكري، في حين بعثت الدول الأخرى التي حضرت المؤتمر

برؤساء الوزارات ووزراء الخارجية . وللقارئ أن يتصور مدى ضعف الوفد العثماني وخفوت صوته في المناقشة والمناورة ، وقد نجم عن ذلك ما نجم من شروط مجحفة أضرت بالدولة العلية .

ومن انتقاداته السياسية لحكومة للدولة العلية عندما أعلنت الحرب على دولة روسيا المعادية وجيوشها غير مهيأة لذلك . وينتقد الرجال الذين اختارتهم الدولة لقيادة الجيوش من أمثال محمود باشا الداماد [1] . وينتقص مسلك السلطان ورجال حكومته عندما كانوا يديرون الحرب من قصر يلديز ولا يعطى للقواد حرية التصرف في ميادين القتال واتخاذ القرارات المناسبة في التقهقر والتقدم كيفما يكون الموقف .

ويلجأ المويلحي إلى الموازنة والمقارنة بين سياسة الدولة العثمانية وسياسة الأوربيين ليبين الفارق الهائل بين الفريقين ، فإذا كان ولي عهد السلطنة العثمانية تحت المراقبة الدائمة ، يضيق عليه بكل الوسائل ، فإن ولاة العهود في أوربا يمارسون الأمور في حرية ، ويخالطون الناس في طلاقة ، ويحاورون أرباب السياسة ، ويتنقلون في أرجاء مملكتهم دون حرج .

وهكذا كان المويلحي ناقدا سياسيا ، بصيرا بما ينتقد ، شارحا لنقاط كثيرة ، وهذه الملاحظات ليست مفيدة فقط في دراسة الدولة العثمانية والتأريخ لها وإنما تنسحب على كل دولة تسلك هذا المسلك في أمورها الداخلية أو سياستها الخارجية .

أحمد حسين الطماوي



(١) محمود الداماد : من أصهار السلطان ، وقد نفى إلى بلاد العرب ، وحكم عليه بالإعدام.

ما هنالك
(نص الكتاب)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

هذا ما رأيناهُ واجبًا علينا من ذكر المضار لتجتنَب والمنافع لتجتلب ولسنا نجد مقدمة تليق بهذا الكتاب في بيان غرضنا الذي نقصدهُ منهُ ونحاولهُ فيهِ ، ونكشف للناس الأسباب الشريفة الَّتي دعتنا إلى وضعهِ ونشرهِ سوى مقالتين إحداهما لأحد أئمة الإسلام العظام ، وثانيتهما لفاضل كان يمضي مقالاتهُ بحرف الياء في جريدة المُقطَّم .

قال الإمام المُعَظَّم في مقالتهِ :

الدين النصيحة

إن منا من يتظاهر بأن تنبيه الدولة إلَى ما هي عليهِ من سوء الحال مروق وضلال ، وليتهُ مع ذلك يكتفي من هداهُ بالإمساك عن التنبيه ، بل يتطرف إلَى تحسين القبيح ، وتزيين السوء ، وإطراءِ الذميم إلَى مثل ذلك ممَّا يزيد الدولة تورطًا في المزالق ، وتوغلًا في الخلل ، وتخبطًا في الفساد ، وشططًا عن السداد ، ويتبجح بأن هذَا هو الحب والإخلاص والولاءُ . فياليت شعري ما عسى أن يكون البغض والغش والتلبيس لديهِ بعد هذَا . وقد لا يبلغ العدو من عدوهِ بالحرب والقتال ما يبلغ منهُ بهذا التوريط والتضليل .

ولا أقبل أن إنسانًا يعمل عَلَى توريط دولتهِ إلَى هذَا الحد وهو صحيح

المزاج ، فإن النفس لا ترضى من عز الملك بديلًا ، فهي بطبيعة الوجدان لا تنبعث إِلَى ما فيهِ وبال ملكها . وتدمير سلطانها ، بل هي متجهة بفطرتها إِلَى تأييد دولتها ، وسلامة عرشها ، وإنما ما ذكرناهُ هو مذهب قوم استؤْجروا عليهِ لسقوط مروءَاتهم وفساد مزاجهم .

وقد يحتج لنفسهِ صاحب هذَا المذهب لدفع الخجل ، أو تلطيفهِ بأن في تنبيه الدولة دلالة لعدوها عَلَى مغامزها وهو مستوفز يترقب فرصة للوثوب عليها ، فليس المنبهُ إِلَّا كرائد العدو ، فهو يجلب عليه الضرر من حيث يقصد النفع وذلك فعل الصديق الجاهل ، فمن الحزم تعظيمها في عين عدوها حتى يقع في روعهِ أنها قويَّة عزيزة منيعة الجانب فييأَس منها وينقطع طمعهُ فيها ، ولعل الله بعد ذلك يبعث فيها منبهًا فتنبعث إِلَى لمّ شعثها وتقويم أَودها ، واستعادة مجدها الأول ، وسؤْددها التالد .

وهذَا الاحتجاج غش وتدليس أيضًا . أما أولًا فلأَن عدوها متنبه يقظ متأَمل فهو أبصر بمغامزها ، وأخبر بدخائلها بل مطلع منها عَلَى ما لم نحط بهِ خبرًا ، وإنما تصادم المطامع فيها أوقف كل عدو يترقب غفلة الآخر ، أو اشتغالهُ بسواها ، أو يحاول التمالؤَ مع ثانٍ ليتناصرا عَلَى قطع الطريق إليها ويتساهماها . فليس في تنبيهها ما يكشف للأعداءِ شيئًا فيها قد كان عنهم مستورًا ، بل لو تنبهت لوجدت من تصادم المطامع فرصة تمكنها من الاستدراك . وأما ثانيًا فلأنهُ إذا كان عدوها بحيث يجهل دخائلها وهي بادية للعيان فأَهونْ بهِ عدوًّا إذ لا يبلغ الجهل من دولة هذَا المبلغ وهي في عالم الأحياءِ . وأما ثالثًا فلأَنهُ إذا خيف عَلَى الدولة عاقبة التنبيه ، كان الخوف عليها من التمادي على الخلل أشد ، فإنهُ أعجل من العدو سيرًا، وأسرع بطشًا ، وأسوأُ تأثيرًا . على أن قارعة العدو قد تدفع ، أو يحتال لها

ولا دافع ولا حيلة لقارعة الغفلة وسوءِ التدبير . وكذلك منا من يحسب أن تنبيه الدولة ضرب من العبث ، وإنما هو فضيحة من غير جدوى ، فقد أصبحت بحيث لا ينفع القول فيها على أنها قد سدت سبيل النصح عَلَى نفسها لشدة حظرها على جرائدها ولمنعها الجرائد الأجنبيَّة من طروق ديارها ما دامت تحمل النصح إليها ولئن طرقتها من سبيل خفي فإنها لا تخترق حجاب أمير المؤمنين ولئن اخترقتهُ بحيلة من الحيل فإنها تصادفْ حول عرشِهِ ملأً من الغاشين المحتالين الذين عدلوا بهِ عن تدبير الملك، وعرفوا كيف يقلبون النصح في عينهِ غشًّا يعود عليهِ في ذات نفسهِ.

وهذَا رأْي من لا خبرة لهُ بالشرع ، ولا دراية عندهُ بتأْثير القول ، فأما الفضيحة فلو كان في اتقائها خير بإطلاق لتعطل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولما كان الدين النصيحة لله ولرسولهِ والأئمة المسلمين كما قال صلوات الله عليهِ وكررها ثلاثًا ، ولما قال الفاروق ﷺ من رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقوّمهُ ، وأي شرع أم أي عقل يأْمر باتقاءِ الفضيحة في درءِ المفاسد ، ومع كل ذلك فأي عورة مستورة منا حتَّى نتقي الفضيحة من كشفها ، وأما عدم نفع القول فمن المكابرة في الواقع ، وهل كان كون أو فساد في بداوة أو حضارة إلَّا بفعل القول من تأْليف وتنفير وتحذير وتطمين ووعد ووعيد وتثبيط وتهييج وتكسين وتحريك إلَى غير ذلك من أفانين اللسان وضروب البيان وهل الأنبياءُ صلوات الله عليهم دعوا الخلق إلَى الأديان بأكثر من قوة اللسان ، وهل الكتب السماويَّة تنزلت إلَّا بالبيان ، وهل ثارت أحقاد أو سكنت والتحمت ملاحم وانفصلت وأُرقت دماءُ أو حقنت بمثل القول وشبه اللفظ ، ولمَ أُقيمت المنابر وخطب الخطباءُ ، ووعظ الوعاظ ، وسعى المبشرون والدعاة ، وشرع الأمر بالمعروف ،

والنهي عن المنكر . أليس إلَّا لسر اللسان وحكمة البيان وفضل الكلام ، وبالجملة فهل في الدنيا شيءٌ من عظائم الأمور إلَّا وهو غرس اللفظ وحصيد النطق . وعَلَى كل حال فالأمر في ذلك أوضح من أن يحتاج إِلَى اطناب ، وإنما ليس لثمرة القول إبان محدود ، فقد تسرع ، وقد تبطئ ، وربَّ رجل يتكلم كلمة لا يؤْبهُ لها في جيلهِ فتثمر في جيل آخر ثمرة يتمتع بها أهل الأرض جميعًا ، فادعاءُ أن الدولة لا ينفع فيها الكلام حماقة وجهالة .

- وأما الحظر عَلَى الصحف الداخليَّة ، ومنع الخارجيَّة من طروق الديار، فهو قول ضعيف الحيلة . أما ترى من هو من أعظم الملوك لا تكاد تقع يدهُ أينما وضعها إلَّا على كتابات الطوائف تارة تحت وسادة منامهِ وأُخرى في صحفة طعامهِ ومرة عَلَى مكتبهِ وحينًا بين دفتي كتبهِ . فلو صحت منا النيّة، وصدقت العزيمة ما أعوزتنا حيلة ، ولا بقى في نفسنا نصح مستور عَلَى أمير المؤمنين .

وأما الملأُ الذي دار بعرش الخلافة فأهون من الهوان ، وليس اعتقادنا فيهِ القدرة عَلَى قلب النصح غشًّا إلَّا وهما ، منشأُهُ دوام قربهِ من عظمة أمير المؤمنين مع ما هو عليهِ ممَّا يوجب ، إبانتهُ وإقصاءَهُ ، ومهما يكن من قدرتهم عَلَى مقاومة الحقائق بالشعوذة فإن من أساليب الكلام ما لا تنفع معهُ شعوذة ولا يأْتي عليهِ سحر ، ولا تدفعهُ حيلة ، وبالجملة فالحق أكبر من أن يكافح ، ولئن ثبت الباطل أمامهُ مرةً فقلما يثبت أخرى ومآلهُ إِلَى الفرار عَلَى كل حال ، وحينئذٍ فترك النصح تعللًا بذكر الملإِ هو من قصور الرأْي أو فتور العزيمة .

وإن منا أيضًا من يزعم أن داءَ الدولة قد أزمن ، وتأَصل بعد أن استفحل ، وفشا في عروقها ، وانبسط وسرى في دمها ، وامتد وتشعب في

أعصابها ، وصار لا يرجى برؤُهُ حتى يعالج ، بل لا يؤمل تلطيفهُ حتى يداوي ، كما قطع بذلك حذَّاق أطباءَ السياسة ، عَلَى أن داءَها يستوي في معرفتِهِ الطبيب وغيرهُ كما يستويان في معرفة الأكمهِ والأعرج والمجدوع، وأمثالهم من ذوي العاهات المفضوحة . وإذًا فالنصح لا يورثها إلَّا التنغيص ومن الرحمة ترك تنغيص من لا يستطيع التدارك .

وهذًا ما عليهِ كثير من كبار الدولة ،وهو يأْس استحلوا بِهِ تناهب أموال الدولة والمسلمين ليدخروها وقايةً لهم وأهليهم من الفاقة بعد انحلال الدولة خاب ظنهم وكذب حدسهم . وما الداعي حاسبهم الله لهذا اليأْس والدولة بحمد الله لا تحتاج في استرجاع عظمتها إِلَى غير لفتة واحدة من أمير المؤمنين فما عليهم لو بذلوا جهدهم بل ما لهم لا يبذلون نفوسهم في تلك اللفتة عوض إفراغ وسعهم في اغتيال أموال المسلمين فإن نجحوا كانوا مشكورين ، وإن لم ينجحوا كانوا مشكورين معذورين . وما يدريهم لعل الله عند العزم ، وحسن القصد يخلق من الضعف قوة فكثيرًا ما كان ذلك ، وليس بعزيز أن يكون أصلح الله شأْنهم ، أو عوَّضنا خيرًا منهم رجال من أُولي العزم ، تهون عليهم نفوسهم في مصلحة الدولة وعامة الأمة.

ويعكس هؤُلاء فئة ترى أن الدولة بريئة مَن العيوب قويَّة ، لا ضعف بها ،وإنما تحارب الأعداءِ عليها ، وتمالؤُهم على اضطهادها ، وتقوّمها من عناصر متخالفة لا تنفك تتنافر ميلًا إِلَى الانفكاك ، ومساعدة الأعداء لتلك العناصر كلما شغبت ـ كل ذلك خيل لنا أن الدولة هرمت ، وخارت قواها وانحلت عزائمها وليس الأمر كذلك في الواقع ، ولو كان مكانها أعظم دولة من دول أوربا ما جلدت على احتمال ما هي تحتملهُ ، ولا صبرت

لمعاناة ما تعانيهِ ، وإذًا فلا يرميها بالضعف ولا يتهمها بالخلل إلَّا عدو يريد بث الفساد بينها ، وبين تبعتها ، أو تقوية جأْش أعدائها عليها ،وإن ظهر بمظهر الناصح الأمين .

وما أعظم هذَا الرأي وقعًا في ذوق السذج الذين لا إشراف لهم على الحقائق حيث يقوم بِهِ لديهم عذر الدولة عند طاطأَة رأْسها لكل نازلة تضع من قدرنا ، وتدرك طود شرفنا ، وهي قد تكون أقل ممَّا يسعنا دفعهُ ، ولكن ما أبعدهُ من الحقيقة ، وما أقصاهُ عن الصَّواب ،كما لا يخفى على مَنْ لهُ إلمام بنسَب الدول وموازنة قواها . فإن دولتنا في ميزان الدول العظام أَخفهنَّ على الإطلاق كفةً ، وأقلهنَّ رجحانًا ، ولا يناقش في ذلك إلَّا من هو بمعزل عن العالم . أما الاعتذار عنها بتحازب الأعداء ، وتخالفُ العناصر ، فهو الحجة عليها ، ولولاهُ ما رُميت بالتقصير ، ولا احتاجت إلَى النصح والتنبيه، كما أنهُ لولا مثلهُ في جميع الدول ما اضطررن إلَى تجنيد الجنود وإقامة المعاقل والحصون ، وبذل الأموال الطائلة في الآلات والاستعدادات . وهل الدنيا من أول نشأتها الأَعلى هذَا الحال؟ وهل كانت فنون الحرب واختراع آلات القتال إلَّا لهذا السبب؟ وحينئذٍ فليس بغاشّ من يستلفت الدولة إلَى ضعفها ويستنهضها إلى تدارك شأنها بل هو الناصح الأمين فليضع نفسهُ كل رجل من رعيتها حيث يريد.

هذا وحيث أن لكل معلول علة ولا يمكن استئصال المعاولات إلَّا باستئصال عللها فعلى من يريد أن يضع نفسهُ من الدولة موضع الناصح الصادق أن يبحث عن علة ضعفها وأصل خللها ثم يحاول استئصال الأصل بما يراهُ ناجحًا عن عقاقير النصح ترياقًا كان أو سمومًا فإنهُ إن فعل يوشك أن ينجح إن شاء الله .

الأمة العثمانيّة

يُقضى على الأمة في أيام محنتها بالذهول ويعتريها الخمود وهي تُصلى بنار المظالم فيحسبها الجاهل الذي لا يأخذ بغير الظواهر أنها في خير حالاتها راضية مطمئنة غير باكية ولا شاكية . ويصور لهُ جهلهُ أن تنبيهها واستفزازها إِلَى تبديل ما هي فيهِ عدوان عليها وإيقاع بها وضرب في مفاصلها لتثور فتتمزق . وإن ما بها من السُّبات خير لها من اليقظة ، وأن البقاء عَلَى الموجود أولى من التطلع إِلَى المفقود . والشر كل الشر في ما يفيق وينبهُ ويدعو إلى الحراك وأن الداعي إلى ذلك شاق لعصا الألفة خارق لحرمة الإجماع مبتغٍ للفتنة والشرور ساعٍ في هتك قناع الأمة وتمزيق أثوابها يتربص بها ريب المنون . فمثلهُ كالذي يمرُّ بالمغشيّ عليهِ فيظنهُ متنعمًا بلذة الراحة البدنيَّة إذا أنت نبهتهُ آلمتهُ . وإنما هو ميت إن لم تنبههُ . ومن كان جاهلًا بالطب تساوت لديهِ السنة عن مرض والنوم عن صحة .

ولكن العلم بأخلاق الأمم إذا رأى أمة عَلَى تلك الصفة نبذ الظواهر وعمد إلى كشف البواطن فيتضح له أن ذلك السكون والذهول إنما هو داءُ خدرٍ في الأفكار أن دام بها قضى عليها ويعوزها للشفاءِ منهُ إلَّا تنبيهها إليهِ . وأصل هذَا الخدر هو الحذر والتخوف من سلطة قادرة قاهرة ربما تلاشت مع ذلك ولكن يبقى أثرها في الأوهام ثم تعمل العادة عملها فتلهي الأمة عن البحث عن أسباب هذه القوة القاهرة الَّتِي استكانت لها النفوس وعن كونها هي مصدرها . وكم نحتَ الإنسان الحجر بيدهِ ثم يعتقدهُ إلهًا فيعبدهُ وتستمر بِهِ العادة فيخافهُ ويرهبهُ موقنًا أنهُ القادر القهار فوقهُ لا يزال هكذا ذاهلًا حتى يأتيهُ من يخبرهُ أنهُ يعبد من دون الله ما لا ينفعهُ ولا يضرهُ فيستيقظ من غفلتهِ حينئذٍ ويتذكر أنهُ يعبد حجرًا من صنع يدهِ فينثني عن عبادتهِ ويتبين لهُ وهمهُ فيترك الضلال إلى الرشاد .

وكذلك كان الحال في الأمم منذ الأزمان الخالية يسود الرجل الفرد الضعيف عَلَى الملايين من النفوس فيظلم ويجور ويسلب ويهتك وهم ذاهلون لا يقدرون عَلَى الأنين فإذا جاءَهم من يوقظهم من رقدتهم نفضوا غبار الأوهام عن أثوابهم وقاموا يطلبون حقوقهم المفروضة الَّتِي لا عيش بدونها . ويجوز لفرد واحد أن يوقظ أمة كما جاز لفرد واحد أن يرقدها .

وحالنا فيما نكتبهُ عن البلاد العثمانيَّة هو أننا نريد تنبيه الأمة إلى دائها لتنقذ نفسها من سوءِ المظالم، ومن التمزق والتشتت الذي لا بد أن يلحقها إن هي بقيت عَلَى حالتها الحاضرة الموجبة لتداخل الأجانب في أملاكها تداخلًا يفضي بها إِلَى الانحلال والانفصام كما نشاهدهُ في المسألة الأرمنيَّة، وما قبلها من المسائل ، وما سيكون بعدها ، ولأجل أن تصير لها حكومة صالحة الإدارة منظمة الأحوال كبقيَّة الأمم المجاورة لها حتى يطيب لها عيش في هذه الحياة . وينحصر غرضنا في ذلك وراءَ غايتين إعلان ما يخفيهِ عنها الظلمة من سوءِ أحوالها وإرشادها إِلَى المطالبة بحقوقها كما يكون الدواءُ بجانب الداءِ . ومن حقوقها أنها تطالب الحكومة بالإصلاح وتنفيذ القانون الأساسي وإعادة مجلس المبعوثان ، وتشكيل وزارة متصرفة مسؤولة أمام الأمة والتفسيح لحريَّة الأفكار كما هو موجود في أدنى دولة من دول أوربا . وهذَا النظام وحدهُ هو الكافل لتحسين حال الأمة العثمانيَّة ، وحفظها من التفريق والتمزيق وببركتهِ تصير قادرةً عَلَى صد كل طامع فيها . وأمامنا اليوم شاهد عدل من الحرب بين الصين واليابان كيف أن أمة صغيرة تغلب أمة عظيمة هي عشرة أمثالها بفضل هذَا النظام .

فإن رمانا الجهل بمن يقول أن الأمة العثمانيَّة لا ينفعها هذَا النظام ولا يصلح لها ، ولا تقاس بسواها من الأمم لاختلاف الأجناس والأديان

والمذاهب فيها أحلناهُ عَلَى التلامذة في المدارس ليعلمهُ أن ذلك ما لا تكاد تخلو منهُ دولة من دول أوربا . وهذه دولة النمسا أقرب الدول جوارًا للدولة العليَّة تتألف من جهة الأديان من كاثوليك ومسلمين وأرثوذكس وبروتستانت ويهود وتتشكل من جهة الأجناس من بولونيين وبوهيميين وألمانيين وطليانيين ومجريين وصقالبة وما منعها ذلك من حسن النظام الذي هي عليهِ .

فما الذي يمنع الحكومة العثمانيّة من مباشرة هذَا النظام الشوري الذي يأمر بهِ الشرع الشريف من طريق الخلافة ويدعو إليهِ الحزم من طريق السلطنة . يمنعها عنهُ أن الأمة لم تهب للمطالبة بهذا الحق فتجبرها عَلَى التسليم بهِ . وأهل الحكومة يصبون البلايا عَلَى رؤُوس الأمة ليباعدوا بينها وبين هذَا الطلب لأن فيهِ سدًّا لمطامعهم . وفائدتهم من الحال الحاضر جزيلة فهم يعتقدون أن أمر دولتهم آخذ في التلاشي والانحلال وليس لديها ما تدفع بهِ إطماع الدول ولئن نجت منها اليوم فلا تنجو في الغد وما هي إلَّا مدة ثم تنقضي فينتهزون هذه الفرصة لاتخاذ الأحكام واسطة في إحراز الأموال فالسابقون السابقون أولئك هم المقربون والفائز من أخذ نصيبهُ وبادر إلى سهمهِ . وصارت الأمة في أعينهم بمثابة بيت أصابهُ الحريق فينثال حوله الشطار من كل حدب لنهب ما احتواهُ من أثاث ومتاع والسعيد من اختطف شيئًا قبل أن تلتهمهُ النيران وعَلَى ذلك فلا مناص للأحرار من كشف الستار عن هؤُلاءِ الحكام والتشنيع عليهم وتشهيرهم في أنحاءِ العالم حتى يعدلوا عن ذلك الرأي الذي ملأَ رؤُوسهم يأسًا واستبدلوا ذلك الاعتقاد بأن الأمة العثمانيَّة دواؤُها في يدهم وهي أبعد الأمم عن التلاشي والانحلال إذا هم ساروا بها في طريق الإصلاح وأن

المجد في إحياءِ أمة خير من المال في موتها . فإن لم يرغبوا في هذَا الخير ولم يعدلوا عن طريقهم كان الواجب على الأحرار تنبيه الأمة لتطالب هي بحقوقها .



هذَا غرضنا الذي نرمي إليهِ ونسعى لهُ ، إما أن يأمر الحكام بالعدل، وإما أن يمتثلوا أمر الأمة في إجرائهِ . ولا نبغي بالأمة العثمانيَّة إلَّا إحدى الحسنيين . ولسنا نبالي بقول من يقول من أرباب الإفك والبهتان أن ما نكتبهُ عن الدولة العليَّة ناشيءٌ عن عداوة لها ومحبة في الانتقام والتشفي وتفريق الجامعة العثمانيَّة الَّتِي لا يدركون لها معنى . ولو كان ذلك كذلك لكنا اليوم في صف أولئك المنافقين نرمي دلونا بين دلائهم نحسن القبيح ونطري الظالم ، ونخفي عَلَى الأمة سوءَ أحوالها ونلبس الأمور عليها غشًّا وإيهامًا ونجتهد في ما يزيد في غفلتها حتى تسقط في وهدة الخراب والدمار، أولئك هم الأعداءُ حقًّا ومن يلتفت إِلَى أقوالهم ويركن إِلَى ترهاتهم فهو جاهل مغرور لا يفرق بين الضار والنافع . وليس ينكب بنا عن ردع الظالمين عن ظلمهم وتنبيه الغافلين إِلَى حقوقهم افتراءُ مفترٍ ولا قول كاذبٍ وليعمل كلٌّ عَلَى شاكلتهِ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ .



ما هنالك

المقالة الأولى في أحوال السلطنة العثمانيَّة

كان السلاطين من آل عثمان غير الفاتحين منهم وغير ذوي الأعمال العظيمة الَّتي زيَّنت تاريخهم بالفخار والمجد يقضون أوقاتهم بالملاهي واللذات في قصورهم ولا يشتغلون بأمور الدولة إلَّا إذا تكلفوا التصديق على الأوامر المرفوعة لهم من صدور العظام [1] . وكانت السلطنة العثمانيَّة مع ما كان يلحقها في أزمان حكمهم من شؤْم الحروب بسلخ البلاد عنها رابضة ربوض الليث على آجام البسفور يخافها من يغلبها لما رسخ في النفوس من شجاعة الأتراك وبسالتهم وكانت أعلامها المحاذية للهلال والنجم رفعةً وجلالًا تخفق في الشرق فتخفق منها القلوب في الغرب .

وكان السبب الوحيد في بقاء السطوة والجلال لها مع تلاهي أولئك السلاطين هو أن أُمور السلطنة كانت موكولة إلى صدور ووزراءَ من أَشهر الرجال في أَعصارهم حزمًا وعزمًا فكانوا يخافون من يسأَلهم من فوقهم فإن أخطأُوا مرة أَصابوا مرارًا . وما زالت الدولة تقوم وتقعد في هذه التقلبات يأْتي سلطان عظيم النفس كبير الهمة فيرفع شأْن السلطنة ببذل نفسه الشريفة في سبيل المجد لتشييد أركان الدولة بما يعانيهِ ويقاسيهِ من الحروب والفتوح مع فحول قوادهِ المجربين ويأتي سلطان يركن إلى الدعة واللهو

(١) الصدر الأعظم : هو الوكيل المطلق للسلطان بنص فرمان الصدارة ، ويشبه رئيس الوزراء في أيامنا هذه ، وهو المتصرف في شئون الدولة ، ومن أشهر الصدور العظام : عالي باشا وفؤاد باشا ، ومدحت باشا ، وأدهم باشا وطلعت باشا وغيرهم . (ط)

فيحفظ شأن الدولة ، نظامها بمن ينتخبهم من ذوي الكفاءة من الصدور والوزراءِ حَتَّى حصل ما حصل من خلع المرحوم السلطان عبد العزيز [1] والسلطان مراد [2].

ولما استولى على عرش آل عثمان جلالة السلطان عبد الحميد [3] الثاني في غمرة تلك الاضطرابات والارتباكات رأى جلالتهُ أن السكون لا يستتب

---

(١) السلطان عبد العزيز : هو عم السلطان عبد الحميد ، ولد عام ١٨٣٠ وتولى الخلافة عام ١٨٦١ بعد خلع أخيه السلطان عبد المجيد ، وعزل عام ١٨٧٦ . وقد أنشأ القصور الجديدة ، والمدارس الكثيرة ، وقوى سلاح البحرية ، وسلح الجيش بالأسلحة الحديثة . تزوج السلطان عبد العزيز من « مهري هانم » وهي جارية شركسية جميلة المنظر ، عذبة الصوت ، ويقال : إنه أنفق عليها مالا كثيرا حتى أثقل كاهل الدولة ، وزار عدة أقطار في اوربا من بينها إنجلترا وفرنسا والنمسا ، كما زار مصر في عصر إسماعيل وأطلق اسمه على شارع في القاهرة . وفي أواخر أيامه دبرت مؤامرة لخلعه فخلع في ٢٩ مايو ١٨٧٦ ، وبعد عدة أيام قتل ، وقد جرت محاكمة القتله من أمثال فخري بك ومصطفى البهلوان ، أما الذين حرضوا على القتل فهم محمد رشدي باشا ، ونورى باشا ومدحت باشا ، انظر كتاب « سر مملكة » جـ١ لسليم سركيس صادر عام ١٨٩٥ . (ط)

(٢) السلطان مراد : تولى الحكم بعد خلع السلطان عبد العزيز في ٣٠ مايو ١٨٧٦ ، وهو ابن السلطان عبد المجيد وشقيق السلطان عبد الحميد ، وقد أتى به العثمانيون الجدد أو الاتحاديون وعلى رأسهم مدحت باشا إلى الحكم ، وكان ماسونيا ، ويقال : إنه أتقن التركية والعربية والفرنسية ، وأولع بفتاة بلجيكية ومنع من القران بها ، وكان محبا للموسيقى وذهب قوم إلى أنه ابتكر فيها ألحانا . ولد السلطان مراد عام ١٨٤٠ من أم شركسية ، وفي فترة توليه الحكم ظهرت عليه علامات الجنون فعزل بعد ثلاثة شهور من تنصيبه ، وظل سجين قصره ، ويقال إنه شفي من مرضه في أواخر حياته ، إلا أنه لم يزاول أية سلطة إلى أن توفي عام ١٩٠٦ . (ط)

(٣) السلطان عبد الحميد : ولد في سبتمبر ١٨٤٢ ، وتولى سدة الحكم بعد عزل السلطان مراد عام ١٨٧٦ وقد خلعه الاتحاديون عام ١٩٠٩ ، ونفي إلى قصر بلربي ، وتوفي في فبراير ١٩١٨ ، وله مذكرات نشرها محمد حرب عبد الحميد دافع فيها عن الاتهامات التي وجهت إليه . (ط)

وأن النظام لا يحفظ وأنهُ لا يأمن على ملكهِ ونفسهِ إلَّا إذا قبض بيدهِ القويّة على زمام كل الأمور كبيرها وصغيرها وكان من سوءِ حظ العثمانيين أن طاف حول العرش الحميدي زمرة مختلفة الأجناس والأنواع من نُزَّاع الآفاق . ولما تمكنوا بحيلتهم ودهائهم من الثقة بهم والركون إليهم رأَوا أن أغراضهم لا تنال ومراكزهم لا تحفظ وراحتهم لا تدوم إلَّا بإِشغال جلالتهِ بمضاعفة إيجاس الخيفة من كل شيءٍ واختلاس أوقاتهِ الَّتي تحتاج إليها مصالح الدولة فتدرَّجوا إلى ما ابتغوا ــ والتدريج قائد الإفراط ــ حتى وصلوا إلى ما لا تصدق ناقله إلَّا إذا قاسمك الإيمان المغلظة عليهِ . وأبعدوا عن سدَّتهِ كل صادق أمين قادر بكفاءَتهِ على خدمة الدولة بوصفهِ بسرعة الحركة في الفكر وبسرعة الإقدام في العمل فتشتت أهل الفضائل الذين كانت الدولة تنتفع بهم في حل مشاكلها ولم يبقَ منهم إلَّا من تغابى أو تجاهل أو أفرط في إظهار الجبن حفظًا لوظيفتهِ أو طمعًا في وظيفة يريد الحصول عليها أو إبقاءً على وجودهِ في الأستانة .

وحكاية واحدة في هذا الموضوع تدل على الكثير منهُ . كان أحد وكلاءِ الدولة مع صديق لهُ فخضر ابن صغير للوزير في السادسة من عمرهِ فوقف في حضرة والدهِ يسأَلهُ الأسئلة المخصوصة بهذا السن فضحك والدهُ قال لصديقهِ أن كامل باشا ذلك الداهية الدهياءُ يسأَل السلطان أحيانًا أسئلة هذا الطفل .

هذا حال الكفاة من رجال الحل والعقد في الدولة قد ذهب الموت والنفي والخوف بهم فلم يبقَ منهم أحد يشار إليهِ . ثم نشأَ الناشئون في عشرين سنة على الجبن والخوف من التظاهر بحب الوطن حَتَّى رفعوا من كتابتهم في معروضاتهم وجرائدهم لفظ (الملة) فلا يقولون « لخدمة الدولة

والملة » بل يقولون « لخدمة الذات الشاهانيَّة » وأُشربوا في قلوبهم التجسس فصار الابن يتجسس على أبيهِ والأخ على أخيهِ والزوجة على زوجها بما لم يسمع بتفاصيلهِ في تاريخ .

وفي هذا الباب حكايات كثيرة مشهورة نذكر واحدة منها ونترك الباقي لمواضعهِ . ضاقت يومًا من الأيام ذات يد جميل باشا من الأخبار الَّتي يعرضها على جلالة السلطان فجاءَ إلى أبيهِ نامق باشا وهو شيخ الوزراء قدرًا وسنًّا وقال يا أبتِ إن أخي قد طال عليهِ النفي وأولادهُ يبكون كل ليلة وأنت المقرب الملحوظ بعين العناية السلطانيَّة وأن الناس بين متَّهم لك بالعجز وهذا ما لا نرضاهُ لقدرك ومتَّهم لك بالقسوة وهذا ما لا ترضاهُ لنفسك في طول سكوتك على تخليص ابنك فاطلب بعريضة تعرضها على أعتاب مولانا السلطان خلاص أخي . فاعتذر الرجل بأن الحال لا يقضي بالعرض خوف القيل والقال . فما زال بهِ حَتَّى أخذ الرجل يكتب عريضة في هذا الأمر . ولما تمت حيلتهُ على أبيهِ تركهُ وذهب فكتب إلى جلالة السلطان عريضة يقول فيها أن أبي أصابهُ الهتر والخرف وأنا براءٌ ممَّا يريد عرضهُ من التماس الرضا عن ابنهِ المنفيّ .

هل بعد هذا فساد في الأخلاق وهل يرجى مع جماعة هذا حالهم صلاح أو نجاح للدولة الَّتي سقطت من بين أيديهم .

ولما رأى الناشئون أن الرتب والوظائف لا تنال إلَّا بالتجسس وإظهار الجبن أخذوا يتسابقون حَتَّى وصلوا إلى غايات يمجها السمع وينفر منها الطبع ويبكي لها العثماني الحر بل ربما انتقل من البكاءِ إلى الضحك طفرة . يقرأُ القارئُ منهم الكتاب المطبوع في ذات الأستانة بإذن الحكومة مرارًا فيجد فيهِ جملة فيكتب تلك الجملة ويبني عليها خراب الدولة فتصدر

الأوامر بجمع الكتاب من الأقطار وإحراقه كما فعلوا في « الطريقة المحمديَّة » لسيدي عبد الغني النابلسي وفي ألف كتاب مثلهِ وذلك أن القارئَ وجد فيهِ قولهُ ﷺ « الأئمة من قريش » فطار البرق ليلًا إلى جميع الولاة بجميع الكتاب من كل زاوية وركن وإحراقهِ بالنار ومحو أثرهِ . ولم يقف بهم الجبن إلى هذا الحد بل نقلهم إلى الخوف من كتاب الله فلا يأذنون لكتاب فيهِ آية من آيات الجهاد أو آية فيها « الذين كفروا » أو ما أشبه ذلك خوفًا أن تحاربهم أوربا على هذا . وقد بقيت « العقائد النسفيَّة » أعوامًا تتردد بين المعارف والمشيخة الإسلاميَّة بالكتابة الرسميَّة وكل جهة من هاتين الجهتين تريد أن تتخلى من مسئوليَّة إعطاءِ الإذن بطبعها وتلقي على كاهل الأخرى عبءَ تلك المسؤوليَّة وما أمكن لإحداهما أن تخدع الأخرى في هذا فاتفقنا على حفظ الأوراق والسكون عن إعطاءِ الإذن . كل هذا لأن تلك العقائد فيها ذكر الإمامة وشروط الخلافة ومنعوا الكتاب المسمى بالأحكام السلطانيَّة في الفقه الحنفي من الدخول إلى الممالك العثمانيَّة لأن فيهِ تلك الشروط أيضًا .

وما تحرَّك الأرمن حركاتهم تلك إلَّا من جبن هؤُلاء من جهة ومن ضغطهم عليهم من جهة أُخرى بسبب هذا التخوف . والأرمن ليسوا كما كانوا قديمًا في الجهل بل أخذوا يتعلمون في المدارس الَّتي أنشأها لهم المرسلون الأميركيون في الأستانة وغيرها من البلاد العثمانيَّة حتى فاقوا مواطنيهم في العلم والمعارف لما قعد بهؤُلاءِ ما هم فيهِ من موت الأفكار والهمم . فمن المضحكات أن عالمًا أرمينيًا ألَّف قاموسًا بالتركيَّة والأرمنيَّة وعرض الكتاب على الحكومة ابتغاءَ الإذن بطبعهِ فلما وجد رجال الحكومة في القاموس كما يوجد في غيرهِ لفظة « السيف » مترجمًا بالتركيَّة والأرمنيَّة

أمروا بمحو هذه اللفظة وقالوا لا يجوز أن يكون في قاموس أرمني لفظة « السيف » . فكيف يكون تأثير هذا التحكم البارد على قوم عرفوا الدنيا ودرسوا أحوال العالم ونبغوا في المدار الأميركيَّة . فإن شك قارئٌ في صدق هذا ـ ولهُ الحق أن يشك ـ فليسأل عن ذلك في دار الخلافة والسلطنة يجدهُ حقًّا صدقًا وما نقلناهُ إلَّا ونحن واثقون بإثباتهِ .

هذا حال الناشئين في السلطنة الذين أصبحوا الواسطة بين الرعيَّة وراعيها فإن شذَّ بينهم ذو فضيلة اضطرتهُ المخاوف أن يتراءى برذيلة تقابل تلك الفضيلة ليأمن على نفسهِ من شرورهم . وقد بلغ بهم الجبن أنهم حظروا على الجرائد فوق الحظر على الأفكار جملًا وألفاظًا فلا تستطيع جريدة تذكر « جمهوريَّة أمريكا »[1] ، مثلًا فإن اقتضى لها ذكرها قالت: « مجتمعة أمريكا » خشية أن لفظ الجمهوريَّة يقلب الحكومة في حال النطق بها . ولا تستطيع جريدة أن تكتب « ولي عهد روسيا » مثلًا خشية أن لفظ ولي العهد يحدث انقلابًا في السلطنة . وسنأتي على كثير من مثل هذه النوادر عند الكلام على الجرائد ومديريَّة المطبوعات .

ولقد بالغوا في إشغال جلالة السلطان وقلب الحقائق لهُ حتَّى صاروا يقدمون لجلالتهِ في اليوم ما ينيف على مائة وخمسين تقريرًا كلها كذب وإفك. ومن العجيب أن الكاذب من هؤلاء الجواسيس إذا ثبت كذبهُ لا

(١) كانت كلمتا جمهورية أو جمهور محظورتين على الصحفيين حتى لا ينتبه الناس إلى الحكم الجمهوري . وقد جاء في كتاب « غرائب المكتوبجي » لسليم سركيس الصادر سنة ١٨٩٦ ص ٣٥ : (أن محرر الجريدة في بيروت لا يجوز له أن يذكر كلمة « جمهور » بل يجب أن يقول « الشعب » أو « القوم » وفي الإعلانات يقال عادة (نعلن لحضرة الجمهور) فيحذفها المكتوبجي ويضع محلها « القوم » وذلك خوفا من اشتغال أفكار القراء بالجمهورية والميل إليها) . (ط)

يعاقب رجاءَ أن يأْتي مرة بصدق . ومن الحكايات العجيبة أن رجلًا من أهل المابين طلب في إحدى الليالي أن يقابل جلالة السلطان لأَمر مهم يعرضهُ شفاهًا على سدَّتهِ فأُذن للرجل المعروف فقال لجلالة السلطان أني رأَيت اليوم في بك أوغلي محمود باشا الداماد (وهو الذي نفي مع مَنْ نفي إلى الطائف وكان قد مات) في صورة عبد أسود وهو يتكلم مع رجل أجنبي باللغة الانكليزيَّة . فاستيقظ لهذا الخبر جميع مَنْ بالمابين وصار الليل نهارًا وبُعث بالبوليس والجواسيس إلى أنحاء الأستانة ليبحث عن الباشا المصبوغ بصبغة العبد وأُرسل بالتلغرافات إلى والي الحجاز وشريف مكة ليلًا للسؤال والبحث عن هذا الأمر العظيم وجاءَت التلغرافات بأن الرجل مات ودُفن . وحضر البوليس والجواسيس بعد أن أقاموا القيامة في البحث والتنقيب يحقّقون أنهُ ليس في الأستانة خيال لهذا الباشا المصبوغ وحقَّقوا أنهُ ما كان يعرف اللغة الانكليزيّة . فلم يقع على الكاذب الذي أقلق المابين والأستانة والحجاز ليلة ويومًا أدنى عتاب ولا لوم . ولم يذهب الشك عن السلطان إلَّا بحضور رأْس محمود باشا الداماد من الطائف .

وسنذكر أحوال السلطنة بالتفصيل ليعذر الناس الحال الَّتي عليها الأمة العثمانيَّة والسلطنة السنيَّة في الوقت المشحون بالمشاكل والمعضلات وليطلبوا من الله أن يلهم جلالة السلطان أن يبعد عنهُ من أشغلوا أوقاتهُ وقلبوا الحقائق لهُ وأن ينقذ الدولة سبحانهُ ممَّا أصابها كما أنقذوها من قبل . وإنا لذاكرون المابين برجالهِ وأحوالهم وأطوارهم وعلاقاتهم ثم الباب العالي بصدرهِ ووزرائهِ وهلَّم جرًّا إلى آخر المأْمورين بالحقائق الَّتي لا يجرأُ أحد على تكذيبها ليعلم الناس أن ما نكتبهُ عن الدولة صادر عن نفس حرَّة تريد بيان الفساد ليستبدل بالصلاح ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ .

المقالة الثانية

المابين

هذه الكلمة تُطلَق في اللغة التركية على الحجرة الَّتي لها بابان باب إلى جهة الحرم وباب إلى جهة الخدم ثم اختصت بالسراي السلطانيَّة . ولفظ السراي لا يطلق في الأستانة إلَّا على بيت السلطنة بخلاف ما نراهُ في مصر فإن في العزب والكفور سرايات لعامة الناس . ولو اعتبرنا الاصطلاح الرسمي الجاري في الأستانة لم نطلق لفظ السراي إلَّا على عابدين أو رأس التين بلا إضافة . وهذه السراي السلطانية لها بابان كما في عابدين وفي رأس التين باب خاص بجلالة السلطان وبالملوك وسفراء الدول عند مجيئهم رسميًّا وبالعائلة السلطانيَّة وباب عام للخاصة والعامة من الصدر الأعظم إلى الحمَّال وعلى هذا الباب نفران من العساكر ببنادقهما للسلام . وقبل الدخول نذكر حكاية ليعلم القارئُ أن الشيءَ إذا بلغ الغاية في عظم القدر قلَّ الاعتناءُ بهِ . خرج رجل في شهر رمضان ليلًا من السراي ومعهُ أحد كتبة المابين وشيخ من أكبر المشايخ فحانت من الرجل التفاتة عند خروجهِ فوجد أحد مصراعي الباب مغلقًا ورآهُ مرقعًا بالخشب الأبيض الجديد في وسط الخشب الأسود القديم فطرف هذا المنظر عينهُ فقال همسًا للشيخ . انظر يا مولاي إلى الباب . فاختلس الشيخ نظرة إلى الباب ثم التفت إلى صاحبهِ باسمًا وقال إن كل شيءٍ في هذه السراي مرقع حاشا جلالة مولانا السلطان ثم ما زال ينشد بيت أبي الطيب :

ولم أرَ في عيوب الناس شيئًا كنقص القادرين على التمام

حَتَّى وصل إلى بيتِهِ . وقد نقل الناقل أن ذلك الشيخ كان ينشد بيت المتنبي بأصوات مختلفة فمرةً كان ينشدهُ بصوت منخفض لا يكاد يسمع وتارة كان يرفع بهِ عقيرتهُ ومرةً كان يصحبهُ بزفرات حَتَّى يتخيل السامع أن الرجل كان يعرض على فكرهِ جميع المناظر الَّتي في حافظتهِ الواسعة فيعطي بلا إحساس كل منظر ما يستحقهُ من النغمات الوجدانيَّة .

ويعد العتبة الَّتي يعبرون عنها بأنها في مرتبة الفلك (عتبة فلك مرتبة) يجد الداخل عليها خمسة عشر من البوابين وعليهم ثياب لا تروق الناظرين. وبعد الباب حجرة لها أربع نوافذ وفيها كاتب منهم ومعهُ دفتر يكتب فيهِ اسم الداخل والخارج بإملائهم لهُ من تلك النوافذ فإذا جاءَ عليهم مجهول سألوهُ عن اسمهِ وعمن يريد مقابلتهُ ثم يوقفونهُ ريثما يذهب أحدهم فيسأل من يريد الرجل مقابلتهُ فإن رضي بدخولهِ ادخلوهُ بعد أن يأخذوا ما معهُ من عصا أو مظلة ويكتبوا اسمهُ واسم من دخل عندهُ ثم يقابلون في آخر اليوم أسماءَ الخارجين بالداخلين وبعدها يقدمون الدفتر إلى مكلف غير دائم بقراءَتهِ فإن رأى فيهِ غريبًا عرض اسمهُ واسم من دخل عندهُ إلى جلالة السلطان وجلالتهُ ينظر في الطريقة الَّتي يختارها من طرقه المختلفة لاكتشاف حال الداخل والعلاقة مع مدخلهِ .

وفي أيام القلاقل والاضطرابات الَّتي لا تخلو السراي منها كثيرًا يقرأ جلالة السلطان بنفسهِ ذلك الدفتر .

وفي السراي دوائر منها دائر الجيب الهمايوني . ودائرة الباشكاتب . ودائرة المابينجيَّة . ودائرة الباش أغا . وكان بها دائرة مخصوصة لرئيس الخفيات (أي الجواسيس) ولكن لما عمَّ التجسس بطل ذلك الاختصاص .

وقبل الكلام عن أهل السراي نورد كلام بعض علماءِ الأخلاق من الافرنج . قال : ليس في جميع اللغات كلمة تجمع بمفردها من الرذائل ما

تجمعهُ كلمة كروتيزان (Courtisan) أي أهل البلاط والبطانة والحاشية . وقال في موضع آخر أن للكورتيزان أن ثلاث خواص من خواص المرمر فهو ثقيل بارد أملس كغطاءِ القبر فلا يعدمهُ الملوك في الحياة ولا في المات . وقال آخر منهم أن الكورتيزان كالنيران اللولبيَّة لا تقارب عند التهابها ولا ينتفع به عند انطفائها .

أما دائرة الجيب الهمايوني وهي على باب السراي فتحتوي على رئيس وجملة من المترجمين وظيفتهم الأولى وظيفة غيرهم (من التجسس) ووظيفتهم الثانية أن يترجموا ما يأْمر جلالة السلطان بترجمتهِ من الجرائد الأوربيَّة على اختلاف لغاتها وما يأْمر خليفة النبي أن يترجموهُ لجلالتهِ من اللغة العربيَّة من الجرائد وغيرها . وهؤلاء المترجمون لا يذهبون إلى مركز وظيفتهم لاعتماد بعضهم على بعض ولاعتمادهم في حفظ حالهم على ما ترجموهُ من كلام الجرائد وغيرها مما يوجب الدلائل أو لاعتمادهم على أن لهم شغلًا شاغلًا من التجسس . وفي قدرتهم كافأَهم الله بما يستحقون أن يخترعوا على عباد الله ما يجعل إهمالهم أعمالًا مفيدة تقترن بالشكر والإحسان. عند السلطان فلو دخل محلهم الواسع داخل وقد تفرق أكثرهم منهُ لوجدهُ بما بقى فيه من الأشخاص كرقعة الشطرنج في آخر اللعب . وكثيرا ما يطلب جلالة السلطان واحدًا منهم لترجمة ضرورية فلا يجدهُ فيبحث الباحثون في السراي عن مترجم يقضي الحاجة فلا يجدون . وقد أعوزهم البحث ليلة فلم يجدوا إلَّا كاتبًا صغيرًا في زاوية من زوايا السراي فقدموهُ للحضرة الشاهانيَّة فأعجب جلالة السلطان فجعلهُ مابينجي وهو عارف بك المنتفخ الآن الذي يتملق له سعيد باشا وكامل باشا وشيخ الإسلام وهو من عوامل السيد أبي الهدى . ولم ينل المكلفين بهذه الوظيفة المهمة على كثرتهم لوم أو عتاب على إهمالهم . والحقيقة في هذا التسامح هي بعض الاجتماع ولو كان في المصالح الضروريَّة .

وفي الجيب الهمايوني قاعة الضيافة للأجانب الذين يحضرون للتشرف برؤية الموكب السلطاني في صلاة الجمعة فيجتمع فيه أحيانًا ما ينيف على خمسين شخًا من السفراءِ والأمراءِ الأجنبيين بنسائهم وأولادهم فينظرون ما لم ترَ عين ولم تسمع إذن ولم يخطر على قلب بشر من الزينة والجمال. لكنهم يأسفون ويحق لهم الأسف فإن مدة الموكب قصيرة لأن المسافة بين باب السراي وباب المسجد الحميدي لا تزيد عن خمسين مترًا وفي هذه المسافة يرون الخيول العربيَّة بعساكرها الشاهانيَّة صفوفًا كالعرائس والرعيَّة على اختلافها وقوفًا والقواد والضباط بملابسهم الذهبيَّة ونياشينهم المجوهرة حافّتين حول المركبة المذهبة الَّتي تحمل السكينة والوقار والمجد والفخار حتى يتخيل للرائي منهم أنهُ يرى المركبة ومن أحاط بها من هالة الضباط والقواد قبة من الذهب مرصعة بالجوهر فيرجع الأجانب وهم يحلفون أنهم لم يروا ولم يسمعوا بأن الله أعطى لأحد من ملوك الأرض ولا لملك الصين من الزينة ما أعطاهُ لخليفة النبي الذي كان يخصف[1] نعلهُ والذي كان يقول في دعائهِ عليهِ الصلاة والسلام: « **اللهمَّ أَحيني مسكيناً وأَمتني مسكينًا واحشرني مع المساكين** ».

وقد سأَل بعض الإنكليز أمين بك المابينجي الذي يرسلهُ السلطان لتبليغ سلامهُ لهؤُلاءِ الضيوف عن هذا الجيش الجرار وعن هؤُلاءِ الأهالي الواقفين من غير صلاة في الوقت الذي وجبت عليهم فيهِ الصلاة « هل صلاة السلطان تكفي عن صلواتهم » . فانفلت أمين بك منهُ بلطافة من غير أن يجاوبهُ . فترقى يومها إلى رتبة البالا مكافأَة على حسن تخلصهِ . وسنأْتي على الكلام في هذه المسأَلة المهمة في موضع آخر من رسائلنا .

(١) خصف النعل أي أطبق عليها مثلها وخرزها بالمخصف مادة خصف « أساس البلاغة » للزمخشري . (ط)

المقالة الثالثة

دائرة الباشكاتب في المابين

هذه الدّائرة من أجل دوائر المابين قدرًا وأهمها عملًا وهي تحتوي على الباشكاتب وعلى عشرين كاتبًا معهُ من ذوي الرتب من الرتبة الثانية بالا ومعناها (الرتبة العليا) وعلى ذكر رتبة بألا نذكر ما تغلط فيهِ الجرائد المصريَّة كل يوم فإنها تقول لصاحب رتبة روم إيلي بكلربكي أو رتبة ميرميران عطو فتلو فلان باشا . ولفظ باشا لا يرد أبدًا مع عطو فتلو إلَّا في عنوانين مخصوصين السر عسكر وداماد جلالة السلطان (صهرهُ) فيقال دولتلو عطوفتلو فلان باشا .

أما صاحب تلك الرتبة فيقال لهُ عطوفتلو أفندي أو بك على حسب ما كان يطلق عليهِ قبلها وهي آخر الرتب القلميَّة وبعدها رتبة الوزارة فإذا ترقى صاحب رتبة روم إيلي بكلربكي إليها حذف رسميًا في الحال من اسمهِ لفظة باشا ووضع مكانها أفندي أو بك . وكان يجب على الجرائد هنا أن تتبع قانون التشريفات في الدولة ما دامت هذه الرتبة منها ولاتغلط غلطتين في كلمة واحدة بالجمع بين لفظة الباشا والعطوفة . وأهل الأستانة يضحكون إذا رأوا في جرائد مصر هذا الغلط لأن جرائدهم لا تزيد حرفًا ولا تنقص حرفًا في أمور رسميَّة تحت قانون مخصوص يجازي مخالفهُ .

والكتبة المذكورون آنفًا هم من الشبَّان الناشئين على الأخلاق الجديدة وكلهم عيون على الباشكاتب حتَّى كأَن عليهِ من حدقٍ نطاقا.

وهو عين عليهم وقد باعد بينهم الشقاق فتراهم جميعًا وقلوبهم شتى . ومن عوائد السراي أن يكون الباشكاتب ذا لحية لوقار منصبهِ وجلال وظيفتهِ ولأنهُ الواسطة العظمى بين جلالة السلطان والحكومة بصدرها وشيخ إسلامها كما أن من تلك العوائد أن يكون المابينجي بغير لحية . ولم تنقضِ هذه العادة في الباشكاتب إلى اليوم وإن كان انتقض فيهِ غيرها وانتقضت في المابينجي . وقد تحوَّل في السابق من وظيفة الباشكتابة رجل إلى وظيفة المابينجيَّة فحلق لحيته بحكم العادة . ومن العوائد أيضًا أن يكون الباشكاتب خارجًا من الباب العالي متقلبًا في فنون الكتابة التركيَّة والفارسيَّة (دون العربيَّة) مشهورًا بالبلاغة فيهما للزوم ذلك لوظيفةٍ هي اللسان الناطق عن السلطنة واليد الكاتبة عن الخلافة وقد بقيت هذه العادة جارية إلى الباشكاتب الماضي الذي مات فجأة ، أما تحسين بك الباشكاتب الحالي فلم يكن من كتبة الباب العالي ولا من المشهورين في فن من فنون الكتابة بل ينزلهُ من معهُ من الكتاب إلى درجة من يغلط في رسم الحروف وهو في الثلاثين من العمر وكان مكتوبجي في نظارة البحريَّة مع حسن باشا ناظرها الذي حفظت لهُ أمانتهُ كرسيهُ في كل وزارة تألفت مدة اثنتي عشرة سنة . أما ما خالف بالباشكاتب في تلك العوائد الَّتي تقتضيها وظيفتهُ ورقَّاهُ إلى هذا المنصب الجليل على مشهد من المترشحين لهُ فهو اعتماد ناظر البحريَّة عليهِ في حفظ الأسرار العميقة وكونهُ صهرًا لمحمود نديم باشا سيد لطفي أغا (هرقل المابين) فرفعتهُ الثقة بشهادة لطفي أغا فيهِ إلى هذا المنصب العالي الذي تفانت قروم[1] الرجال عليه وتقلدهُ سعيد باشا الصدر الأعظم ببلاغتهِ وسعة علمهِ وهو أول منْ نال رتبة الوزارة في تلك الوظيفة الَّتي كانت قاصرة مِنْ قبلهِ على رتبة بإلا .

(١) قروم الرجال : الأشداء أو السادة . (ط)

وعلى الباشكاتب ترد جميع الأوراق الرسميَّة من الباب العالي ومِن المشيخة الإسلاميَّة ومِنْ سائر النظارات وسائر الولايات وتصدر عنهُ إلى الباب العالي وجميع الجهات وهو يبعث بملخصاتها لتوضع على المكتبة السلطانيَّة فيتلقى عنهما الإرادات بتبليغ المابينجيّة أو منْ يأمرهُ جلالة السلطان بالتبليغ من الذين في الحضرة الشاهانيَّة . والباشكاتب يبعث بالإرادات السنيَّة بإمضائِه في أوراق صغيرة إلى الصدر الأعظم أو إلى من تخصهم من الوكلاء والوزراءِ .

واغوثاهُ لقد كانت ورقة من هذه الأوراق تنشر القانون الأساسي وتجمع مجلس المبعوثان وتدفع عن الدولة غوائل التداخل الأجنبي وترفع شأن العثمانيين . ولكن واحسرتاهُ يصدر اليوم عشرات منها في النهار لتفتيش بيت زيد أو استنطاق عمرو أو إبعاد خالد أو سجن بكر .

وحين يستلم الصدر الأعظم أو غيرهُ تلك الإرادات يَكتب على ورقة مع المرسل بها ساعة الاستلام والدقيقة . ولدى الباشكاتب دفتر يكتب فيهِ المبلغ للارادة صورتها ودقيقة صدورها ويمضي ما يَكتبهُ بامضائهِ .

وهذه عادة جديدة لم تكن مِنْ قبل أحدثها ارتكاب بعض المبلغين تبليغ إرادات لا أصل لها .

ومِنْ كثرة ما يعتري الإرادات السنيَّة من التغيير والتبديل اضطرَّ الباشكاتب أن يرجئها ريثما ينقطع شكهُ في النقض والإبرام . وهذا ناشيءٌ مِنْ تحاسد الحاشية ومواراة بعضهم لبعض فما أبرمهُ منهم زيد ينقضهُ عمرو. وربما زال الخطأُ وثبت الصواب عفوًا من تخالفهم ونقضهم مساعي بعضهم لبعض . فإذا التمس أحدهم مثلًا نشانًا أو رتبة لمن لا يستحق وصدرت الإرادة مِنْ خاتم النياشين والرتب جاءَ الآخر فبين لجلالة

السلطان غش صاحبهِ فتصدر الإرادة بإلغاء الإرادة الأولى . وإذا صدرت لمستحق جاءَ ذو الغرض فروَّج بفتنة يخترعها ما لا يريد حصولهُ فتقف إرادة السلطان على ما يريد وفي بعض الأحيان تخفي الإرادة بالكليَّة . وقد تمادى بعضهم في الغش ورمى بشرف الدولة مبعدًا إذ ستحصل مِنْ جلالة السلطان على إرادات بياشين الشفقة[1] لنساءٍ لا تسمح الآداب أن يمسسنها . ولما تبين الأمر اقتضت الأحوال استرداد تلك النياشين فردت إلى الدولة بعد ما دفعت خمسين جنيهًا إلى كلٍّ منهنَّ استرضاءً لهنَّ .

وهنا نذكر حكاية وقعت قريبًا . أمر جلالة السلطان بالإحسان على حسن بك صيادي ابن الشيخ أبى الهدى (أحد الشيوخ المقربين) بالنشان الثالث المجيدي ثم تلا إرادة الإحسان إرادة الأرجاءِ فذهب الشاب إلى الباشكاتب وقال لهُ لست ممن تردُّ إرادة نشانهِ وإنما تردُّ إرادة فلانة وفلانة يعني النساءَ المذكورات . فلم يخرج من السراي إلَّا والنشان في جيبهِ .

والباشكاتب ركن عظيم مِنْ أركان الجواسيس في السراي وهو يعرض فوق وظيفتهِ الرسميَّة العليا أوراق الخفيات الَّتي ترد عليهِ منهم . ولها النصيب الأوفر مِنْ عنايتهِ واهتمامهِ فلا تلبث في يدهِ إلَّا ريثما يتناولها فيبعث بها إلى الحضرة الشاهانيَّة فتذهب أسرع من منحدر سائل فيتلقى عنها الإرادة في الحال سواءٌ كانت إرادة استنطاق أو استيضاح أو التفات أو إحسان على من قدمها بخلاف الأوراق الرسميَّة أو أوراق ذوي الحاجات

---

(١) من النساء اللائي منحن نيشان الشفقة الثاني السيدة « السكندره أفرينوه » التي أصدرت مجلة « أنيس الجليس » بالإسكندرية وحصلت أيضًا على نيشان الشفقة من الطبقة الأولى (غران كردون) « وهو وسام لا تناله إلا نساء الملوك والوزراء بسبب خدمة أزواجهن » انظر مجلة « فتاة الشرق » للسيدة لبيبة هاشم عدد ١٥ أكتوبر ١٩١٥ . (ط)

فإن لها طريقًا في العرض لا يتغير وربما تأخرت شهورًا أو جاءَ عليها تيَّار الأوراق الأخرى فلا ينفع البحث عنها ولا يجدي لو كان إليهِ سبيل .

والباشكاتب يبقى في شغلهِ إلى الليل في السراي ويترك من يقوم عنهُ لقيد الإرادات الصادرة ليلًا . ويستأذن عليهِ ذوو الحاجات فيأْذن لهم ويلاقيهم بالبشر ويردهم باللطف بخلاف ما نراهُ في مصر وفي الولايات العثمانيَّة من أَصغر المأمورين من العبوس في المقابلة والعنف في الرد ، أما كبار الموظفين منا ومن حكام الولايات فأولئك جذيمة الأبرش من حجابهم وإذا سلم عليك أحدهم فكأنما وهبك الحياة أو أحسن عليك بالأقاليم .

ويلبس الباشكاتب مع بعض الكتَّاب الملابس الرسميَّة لحضور صلاة الجمعة المسماة (بالسلاملك) فيقف مع الواقفين حَتَّى يشرف جلالة السلطان بموكبهِ الحافل .



المقالة الرابعة

دائرة المابينجيَّة في المابين

يحار الكاتب إذا همَّ بوصف هؤُلاء النفر وكان في عزمهِ أن يصف حضرات المشايخ أساطين القصر السلطاني بعدهم فإنهُ لا يجد لهم في الوصف إلَّا ألفاظًا مكرَّرة تضطرّهُ أن يقول أن الشيخ هو المابينجي وإن المابينجي هو الشيخ إلَّا أن الشيخ في بعض الأمور يزيد .

ما سار رمى بهِ الليل وحيدًا في غابة التفت أشجارها وتكاتفت ظلماؤُها وتجاوبت رياحها وعزفت جنَّانها وزأرت أسودها وترامت على أقدامهِ أفاعيها وأسودها لا يهتدي لطريق يسلكهُ ولا يجد موتًا وحيًّا يهلكهُ بأخوف ممن يطأُ هذه الدائرة لشرّهم المطلق في الناس وخيرهم المقيد لأنفسهم بوقوفهم على باب فيهِ النعم والنقم والعز والذل والحريَّة والاستعباد والشورى والاستبداد والسعادة والشقاءُ والحياة والفناءُ لدى خليفةٍ عظيم وسلطان كبير .

لهُ لحظات في حفافي سريرهِ إذا كرَّها فيها عقاب ونائلُ

ولانتظارهم حيث يضعون كلمة السوءِ موضعها لمكانهم مِنْ وجه جلالة السلطان في إصابة الغرض لوقتهِ بخلاف من يروم قضاءَ حاجته بالكتابة والعرض ولو كان الصدر الأعظم أو شيخ الإسلام فإنهُ لا يعلم في أي شأن يكون جلالة السلطان حين يقرأُ معروضهُ . وهذا هو السبب لقوي في إخفاق الناس في حاجاتهم ونجاح هؤُلاءِ في أغراضهم . وهم القابضون

على الأرواح والأموال والأعراض ني ما بقى للدولة في الآفاق مِنْ يلدز إلى العراق المتصرفون فيها بما أرادوا فلا يسكن لصدر خفقان إلَّا إذا اتصل بسبب مِنْ خدمة لهم يخدمها وطاعة لأوامرهم يظهرها ومظلمة لأجلهم يحتملها وخيانة لمولاهُ في هواهم يرتكبها لا يفوتهم علم بشيءٍ ممَّا يجنهُ الضمير الأعلى لذكائهم المفرط ولطول ممارستهم لخدمة الحضرة السنيَّة فكل شيءٍ مكشوف لهم . وهم ستة وسابعهم رئيسهم الحاج علي بك وهم من ذوي الرتب العالية ويقدّر العارفون ثروة أحدهم راغب بك بثمانمائة ألف جنيه وكان فقيرًا لا يملك نقيرًا أيام كان يؤْويهِ بيت منيف باشا قبل أن يوصلهُ إلى الخدمة السلطانيَّة . وهو يوناني الأصل ولهُ وظيفة أخرى غير المابينجيَّة وهي استنطاق المأْمورين كما أن مِنْ وظائف الشيخ أبي الهدى استنطاق العلماءِ وهما يتعاوران ملاءَة الفخر في الوقوف على الأسرار السلطانيَّة إلَّا أن الشيخ أبا الهدى ترفع عن كسب المال لطلب المجد المؤَثل كما قاله رصيفهُ امرءُ القيس :

ولو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلب قليلٌ من المالِ
ولكنما أسعى لمجدٍ مؤَثلٍ وقد يدرك المجد المؤَثل أمثالي

وراغب بك قد سبق الجميع في شهرة الاستنطاق على ثور « فالاريس»[1] .

---

(١) فالأريس طاغية حكم في صقلية قبل الميلاد بنحو ستمائة سنة ويضرب بهِ المثل في الظلم والقسوة حتى لقبهُ شيشرون بطاغية الطغاة ورجمتهُ رعيتهُ بالأحجار فقتلتهُ كفًا لشره وتخلصًا من قسوتهِ . ويروي أن صانعًا ماهرًا اسمهُ بارلس صنع ثورًا لهُ من نحاس يحمي بالنار ويعذب الناس في جوفهِ حتى يموتوا وهو يطرب بسماع أنينهم فكان أول من جرب الثور فيهِ بارلس صانعهُ . (المويلحي)

كما أن الشيخ أبا الهدى وضع الجميع في تنور ابن الزيَّات [1] بمهارتهِ وتدقيقه [2].

---

(١) ابن الزيات وزير المعتصم روي أنهُ اتخذ في أيام وزارتهِ تنورًا من حديد وأطراف مساميرهِ محدودة إلى داخل وهي قائمة مثل رؤوس المسال . وكان يعذب فيهِ المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال . فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمهِ فيجدون لذلك أشد الألم ولم يسبقهُ أحد إلى هذه المعاقبة وكان إذا قال لهُ أحد منهم أيها الوزير ارحمني فيقول لهُ الرحمة خورٌ في لطبيعة فلما اعتقلهُ المتوكل أمر بإدخالهِ في التنور وقيدهُ بخمسة وسبعين رطلًا (مصريًّا) من الحديد . فقال يا أمير المؤمنين ارحمني فقال لهُ الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس فطلب دواة وبطاقة فاحضرتا إليهِ فكتب :

هي السبيلُ فمن يوم إلى يومِ كأنهُ ما تريكَ العينُ في النومِ
لا تجزعنَّ رويدًا إنهـا دولٌ دنيا تنقلُ من قوم إلى قـومِ

وسيرها إلى المتوكل فاشتغل عنها ولم يقف عليها إلّا في الغد . فلما قرأها أمر بإخراجهِ فجاءُوا إليهِ فوجدوهُ ميتًا وذلك في سنة ٢٣٣ هجرية . وكانت مدة إقامتهِ في التنور أربعين يومًا . (المويلحي)

(٢) أبو الهدى الصيادي : ولد في خان شيخون بالقرب من حلب الشهباء عام ١٨٤٩ ، وكان أحد الشيوخ الذي يثق فيهم السلطان عبد الحميد أو يتظاهر له بذلك ، وقد تناقض فيه القول ، فأنصاره يرفعونه ، وأعداؤه يخفضون من شأنه ، ولكن أكثر الأصوات ضده ، وقد أطلق عليه عبد الله النديم اسم « أبو الضلال » وألف عنه كتاب « المسامير » أوسعه فيه ذما وقدحا ، ووضع عنه ولي الدين يكن مؤلفا هو « الخافي والبادي من فضائح الصيادي » قال فيه عن أبي الهدى ما قال مالك في الخمر ، ولقدري الحلبي ـ وهو من أنصاره ـ كتاب « الكوكب المنير في ترجمة الأستاذ السيد محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي الشهير » . وقد ترجمت له كتب كثيرة مثل « تنوير الأبصار » « وتاريخ العالم النحرير » و « العقود الجوهرية » ... إلى آخره . وقد كان الصيادي من المتصوفة الرفاعية ، وكان يتفنن في إرضاء السلطان « فآونة يبلغه سلام النبي ، وحينا يقص عليه رؤيا يزعم أنه رآها ويفسرها له على ما يلائم هواه ويرضيه ... وكان عبد الحميد محبا لهذه الأشياء ويظن أنها من أقرب الوسائل إلى =

وكانت العادة القديمة أن المابينجيَّة لا يذهبون إلى بيوتهم إلَّا نادرًا أما لآن فهم يتناوبون في الخدمة فيجلس من عليهِ النوبة على باب الحجرة المشرفة بالجلوس السلطاني للطلب فيبلغ الإرادات السنيَّة كما ذكرنا آنفًا. وللحاج علي بك الباشمابينجي حجرة واسعة يجلس فيها وحدهُ فيرد عليهِ الوافدون إلى السراي من جميع الأجناس فيصرفهم على ما تقتضيهِ مقاماتهم ومنازلهم بعد ما يبلغ عنهم الحضرة السنيَّة ويبلغهم عنها ما يقتضي تبليغهُ. ولهُ أطوار متعددة ومظاهر متغيرة متجددة بين جاسوس متقنع وناسك متصنع وطامع ممتنع وإذا خاطبتهُ في ما خرج عن أشغال السراي وجدتهُ عاميًّا عريقًا في العاميَّة أميًّا وإن كان يخط بعض الحروف فهي لا تؤَدي معنى وربما اجتمع على سطر يكتبه ثلاثة أو أربعة من الكتابّ فلا يكشفون قصدهُ

=استدامة حكمه » وكان يتغلب على أعدائه بالوشايات والدسائس، ويقال: إن من مآربه أن يكون « شيخ الإسلام » لما لصاحب هذا المقام من النفوذ الكبير في دوائر القضاء، وعلى قدر ما كان أبو الهدى مشايعا للسلطان، كان يحذره ويهدده، فيتحدث في مجالسه عن الخلافة ووجوب أن تكون في العرب، وهو يعلم أن هذا الكلام سينقل إلى السلطان، ويقال: إنه كان يشيع بين القوم أن لديه فتوى بخلع عبد الحميد مختومة بخاتم شيخ الإسلام عرياني زاده، وقد رتب البعض على هذه المقولة أن السلطان كان يخشاه، وقيل أن السلطان واجهه ذات يوم في هذا الأمر وعنفه وطرده من مجلسه، وفي مذكرات السلطان عبد الحميد أن الإنجليز دبروا محادثات سرية عن طريق الصيادي. وقد طوّل الكتّاب في الحديث عن مؤامرات الصيادي وقوة نفوذه وأفاضوا في مكره وتنكيله بأعدائه، وتنسب إليه كتب عديدة ألفها. مثل « ضوء الشمس في قوله ﷺ بني الإسلام على خمس » « سياحة القلم في الحكم » « الصراط المستقيم في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم » وغير ذلك كثير جدا. وقد صرع الصيادي بعد الانقلاب العثماني.

انظر كتاب « المعلوم والمجهول » لولي الدين يكن الصادر سنة ١٩٠٩ ومجلة « الهلال » عدد يونيه ١٨٩٣. (ط)

إلَّا بالحدس والتخمين لكنهُ في أشغال السراي ابن بجدتها وسادن سدتها . ولهُ معمل صناعة كما كان لسلفهِ مطبعة عثمانيَّة وطريقتهُ كيلانيَّة ولا ينفك يتكلم عن الطرق وتفضيل بعضها على بعض حَتَّى أضاع على جلالة السلطان أوقاتًا غالية القيمة في التنازع والتشاجر مع الشيخ أبي الهدى في الطريقة الرفاعيَّة والطريقة الكيلانيَّة حَتَّى أصبح بيت السلطنة ومرجع السياسة الأوربيَّة كإحدى ٱلتكايا المنشقة بالخلاف بين الفقراء .

وهو غرس يمين السيد أسعد وكيل الفراشة النبوية أوصلهُ إلى جلالة السلطان بالمدح فيهِ والثناءِ عليهِ حَتَّى صار ثاني مابينجي في باشمابينجيَّة عثمان بك . وقد اتفق ذات يوم مع السيد أسعد على إسقاط عثمان بك فدخل السيد على جلالة السلطان في اليوم الثاني من صدارة أحمد وفيق باشا مضطربًا يقول : يا أفندينا أن عثمان بك مع الصدر وبعض الوكلاءِ يَكتبون ورقة في السر في حجرة عثمان بك بخلع جلالتك بناءً على فتوى من عرياني زاده شيخ الإسلام . فأمر جلالة السلطان في الحال بإحضار عثمان بك تحت حراب البنادق ولما حضر على هذه الصورة أمام جلالتهِ أمر بتفتيشهِ لإخراج الورقة ففتشوهُ فلم يجدوا معهُ شيئًا والسيد أسعد يقول لهُ (جيقار) أي (أخرجْ) ـ كبخيل موليير الذي اتهم خادمهُ باخفاءِ شيءٍ سرقهُ وبعد أن أمعن في تفتيشهِ ولم يجد معهُ شيئًا قال لهُ اخرج ما معك ـ وقد ارتاب جلالة السلطان في عثمان بك وإن لم يظهر عليهِ شيءٌ وعزلت الوزارة بعد يوم وليلة من تأليفها . وسنأتي على ذكر هذه الفتوى وعلى تلفيقها في موضعهِ .



المقالة الخامسة

دائرة الباش اغا أو قزلر اغاسي في المابين

يجب على كل مصريّ ذي مروءة يتنعم على فراش الحريَّة الوثير أن يتوجع وهو في سعة غنائهِ ودعة هنائهِ ومجتمع أمنهِ وأمانهِ ومبتسم دهرهِ وزمانهِ على أخيهِ العثماني المتململ على سيال البلوى وقتاد الضراءِ بين ظفر الظلم ونابهِ فيطلب من الله أن يخلص أخاهُ ممَّا هو فيهِ وأن يخفف عنهُ ما أطال يومهُ وأطار نومهُ وأن يعيد على دولة آل عثمان رونقها الأسنى ويقيم لها منارها الأعلى ويبعد عنها قومًا يظهرون لحكامها ما لا يضمرون ويمدحونهم في الملاءِ وفي نجواهم يقدحون . قد والله فدح الخطب واشتدَّت الأزمة وضاق الخناق وتقابلت حلقات الوثاق وتعدى على عرين الدولة ضباع من جيرانها وتحكم عليها قومٌ كانوا من عبْدانها فهي تعاملهم لطفًا ويعاملوتها عنفًا . يا حسرتاهُ على قوم وضعتهم بسالتهم وسيوفهم في حدقة أوربا فأَصبحوا اليوم :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً	ومن أساءَة أهل السوءِ إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيتهِ	سواهمُ من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا	شنوا الإغارة فرسانًا وركبانا

أين القادة الذين فتحوا الممالك بمفاتيح السيوف ووضعوا على أعدائهم أقفال الصغار والهوان . وأين الساسة الذين ضبطوا تلك الممالك بحكمتهم ودهائهم . تقاسمهم الموت والنفي وخلف من بعدهم خلف أضاعوا ما أورثهم آباؤُهم من الشهامة والبسالة فأَصبح العسكري الذي سلم روحهُ للدولة لتحفظها عندها لوقت الحاجة إليها فتصرفها في غير ما يعلم سببهُ

وموجبهُ يرى أن الموت الأحمر الذي ينتظرهُ في خدمتها والشظف الذي يقاسيهِ في حبها والأخطار الَّتي يعانيها في ولائها لا تبلغ بهِ في نيل ما يسليهِ عن روحهِ المودوعة عند الدولة ما تبلغهُ قُبلة في رجل خصيّ من أنواع الترقي والشرف والسعادة والترف .

دخل زكي باشا الذي تقول الجرائد الأوربيَّة اليوم عنهُ أن المسألة الأرمنيَّة من صنع يدهِ على المرحوم بهرام آغا في مجلس حافل بالوزراءِ والكبراءِ حين أرادت الدولة أن تبعثهُ قائدًا على عساكرها في طرابلس الغرب فوقف بين يدي الأغا وقال : يا مولاي إن الدولة عينت عبدكم قائدًا على عساكرها في طرابلس الغرب ولي أُمنيَّة أَلتمس من عنايتكم تحقيقها لتكون لي حرزًا من ريب الدهر وهي تقبيل يدكم الشريفة . فقهقه الأغا وقال لهُ : متى وصل قدركم أن يتعدى رجلي إلى يدي .

لا يظن عاقل أن هذه الكلمة في هذا المحفل لهذا المشير من هذا الخصيّ يندمل جرحها فإنهُ يبعد على مثلهِ من أصحاب السيف أن لا يحس بوخزها كلما رأى شيئًا أسود .

لو قام من القبر راشد باشا الصدر الأعظم وصاحباهُ عالي باشا وفؤَاد باشا وسألوا رجلًا في طريقهم عما جرى على الدولة بعدهم وقال لهم : قد انفصلت رومانيا واستقلَّ الصرب وزال الجبل الأسود وذهب الروم أيلي الشرقي وانفصمت البلغار وضاعت قبرص ويانت تونس وانسلخت بوسنه وهرسك وانقطعت باطوم وخرجت قارص واردهان وانحلت تساليا ووقعت زيلع وطاحت مصوع وتُرك السودان وهذه مصر في أيدي الانكليز - هذا قسم ضاع وانتهى فيه النزاع - وسوريَّة ترصدها فرنسا وطرابلس الغرب ترمقها إيطاليا ومقدونية تشير إليها البلغار وقوصوه

ترقبها السرب وبانيا وكريد ومنستر وساموس تكاد تخطفها اليونان وولايات أرمينية تطلب الاستقلال أو الإصلاح ـ وهذا القسم في النزع ـ والبصرة وبغداد تشيع أهلها بسعي حكومة إيران واليمن في العصيان والمسلمون في خوف على الحجاز ولم يبقَ إلَّا حلب وادرنه وازمير وبورسه خالصة لجلالة السلطان . وسفن الدولة قد أكلها الصدأُ في قرن الذهب بعناية حسن باشا وأسرارهُ العميقة وسفن الانكليز على شواطئِ البلاد العثمانيَّة والناس يشتكون من اغتصاب المأْمورين لأراضيهم وإدخالها في الأراضي السنيَّة والجفالك السلطانيَّة ولا ميزانيَّة للماليَّة ولا نظام في العدلية ولا شغل في الباب العالي يحسن السكون عليهِ وصار مجلس الوكلاء بعدكم تتلاكم فيه الوزراءُ والعساكر في الولايات قد عجز القلم عن وصفهم ووصف أسمالهم وأطمارهم البالية وسلَّم القلم الأمر في وصفهم إلى الفوتوغرافيا :

وأصبح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهَّالهم سادوا

وقالوا لهُ بعد أن اغرورقت عيونهم بالدمع هذه كفة الخسران فهل في كفة الربح شيءٌ يذكر . فإذا قال لهم بناءُ سبعين تكيَّة وتصليح عشرين مسجدًا وزيارة إمبراطور ألمانيا للأستانة وإحياءُ اسم الخلافة بعد أن كانت مهملة لا يتلقب بها سلاطين آل عثمان وزيادة الألقاب المقدسة ومضاعفة عدد النياشين لقالوا سلمنا بأن هذه محسنات لا تنكر ولكن لا يوزن الجندل بالخردل ولعادوا مهرولين إلى قبورهم ينشدون :

يا ويلنا أفما لنا من صارخٍ إلّا بثغرٍ ضاع أو دين عفا
فمدينة من بعدى أخرى تُستبى وطريقة في إِثر أخرى تعتفي
ها مصر قد أودت ووادي أهلها إلّا قليلًا والحجاز على شفا

كيف يسمع هذه الحقائق مسلم ويبيت طاوي الكشح على سترها وسترها هو الذي جرَّ إلى هذا الدمار . ولو كان مأمور والدولة تركوا كاشفيها ومنتقديها على حالهم ما وصل الأمر إلى هذا ولكنهم وضعوا العيون والإرصاد على كل ذي لسان وقلم فجذبوه إليهم واحتالوا على إسكاتهِ بالطرق الظاهرة والباطنة لكيلا تصل مساوئهم إلى الخليفة الذي يسألهُ الله والقرآن ومحمد وأمتهُ عن حفظ بيضة الإسلام الذي يطلب من الخليفة أن يحفظها بنفسهِ لا أن يجعل الإسلام والمسلمين وقايةً لهُ كما يبغيهِ الخائنون بأعمالهم وأقوالهم .

إن الإنسان يساعد بنفسهِ المتملق على غشهِ . وأعجب العجب أن لمتقد يساعد على غش نفسهِ بنفسهِ لو وجد لهُ مادحًا ومقرظًا على كلامهِ وينسيهِ حب ذاتهِ أنهُ يثبت ما وقع فيهِ فيتبشر على ديباجة وجههِ طبقة من البشر . فما قولك في جاهل لا يسمع قائمًا أو قاعدًا أو راقدًا إلَّا الثناءَ عليهِ وعلى أعمالهِ والتبجيل لهُ ولجميع ما يصدر عنهُ فتنتفخ أوداجهُ كبرًا وجبروتًا ويرى غيرهُ منهُ ما لا يرى . فمن ذلك إن إمبراطور ألمانيا أرسل لجلالة السلطان نشان النسر الأسود مع برنس ألماني فأنزلهُ جلالتهُ ضيفًا في السراي وقيل لبهرام آغا أن اللائق أن تذهب لزيارتهِ فقال كيف أزورهُ وأنا ألتس وهو ألتس (Altesse) فليضحك الضاحكون على صاحب المتنبي الذي قال فيهِ :

ويذكرني تخييط كعبك شقهُ ومشيك في ثوبٍ من الزيت عاريا

إنما وصلنا إلى تهديد اليونان ودلال البلغار بهذا وأمثالهِ .

وممَّا يذكر مِنْ نوادر الأغا أنهُ خرج إلى ظاهر السراي في الوقت الذي وصل الروس فيهِ إلى سان استفانوس [1] وهو الوقت الذي كان فيهِ الفزع

(١) سان استفانوس : في هذه المدينة عقدت معاهدة « سان استفانوس » الشهيرة سنة ١٨٧٨ على إثر هزيمة الدولة العلية أمام روسيا القيصرية وقد تضمنت شروطا مجحفة تلحق الضرر الكبير بالدولة العثمانية فبموجبها تستقل بلغاريا والصرب والجبل الأسود ورومانيا ، وتتعهد تركيا بدفع تعويضات مالية عالية لروسيا وقد رفضها السلطان وعدلت بمعاهدة برلين سنة ١٨٧٨ . (ط)

الأكبر وجلالة السلطان مهتم لما يؤُول إليهِ التخت العثماني الذي أودعهُ إياهُ أجدادهُ وآباؤُهُ العظام فدخل الاغا على جلالتهِ وقال لهُ لا يهتم مولانا الأعظم فقد خرجت إلى ظاهر السراي ونظرت يمينًا وشمالًا فوجدت جميع ما انتهى إليهِ بصري هو ملك جلالتك فلا تزعل فإنه يكفينا . تَعس العبد كأنهُ يظن أن المقصود من الخلافة والسلطنة هو ما يقوم بمعيشة جلالة السلطان ومعيشتهِ .

أتريد أيها القارئُ أن تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة . أرادت الدولة أن تقبض على مدحت باشا [1] وهو والٍ على ازمير فهرب إلى قنصل

---

(١) مدحت باشا : هو أحمد شفيق الشهير بمدحت باشا ولد سنة ١٨٢٢ بالأستانة ، ويقرن اسمه بالقانون الأساسي أو الدستور ، وقد اشتهر بكفايته القيادية والإدارية ، ومن المناصب التي تقلدها ، وزارة العدلية ، ورئاسة مجلس الشورى ، وكان واليًا على العراق وسوريا والطونة (بلغاريا) وأدرنة وأزمير ، ونظم أعمال البلقان وقال عنه السلطان عبد الحميد إنه « يبض وجه الدولة في الأماكن التي عين فيها » وتولى الصدارة العظمى أكثر من مرة ، وكان من أبرز قيادات الأحرار ، ويقول عنه عارفوه : إنه كان مثقفا يجيد العربية والفارسية والفرنسية ، وقد عرف بولائه للإنجليز ، وكانت نقطة الخلاف بينه وبين عبد الحميد أن مدحت يريد إقامة حياة نيابية كاملة ، والحد من السلطات واختصاصات الخليفة ، وتخفيض مصروفاته ، ومخصصاته ، أما السلطان فقد عارض معظم هذه البنود .

أما محاكمة مدحت باشا التي يشير إليها المويلحي ، فقد ثبت أن له يدا في خلع السلطان عبد العزيز وقتله ، فاستدعى للمثول أمام المحكمة وحاول الهرب فاحتمى بالقنصلية الفرنسية التي سلمته إلى السلطات التركية بعد مداولات سياسية ، وفي منتصف عام ١٨٨١ حوكم مع بقية المتهمين ، وصدر عليه الحكم بالإعدام الذي خففه السلطان إلى النفي إلى الطائف مع آخرين ، وهناك قتل ، وانطوت صفحته ولكن التاريخ ما زال يردد اسمه . وقد اتهم السلطان بقتله إلا أن عبد الحميد نفى هذه التهمة عنه ، ويختلف الرواة في سنة قتله ، فبينما يذكر أنور الجندي ومحمد حرب عبد الحميد أنه قتل عام ١٨٨٥ ، يسجل جرجى زيدان أنه مات خنقا في ٢٦ أبريل ١٨٨٣ في الطائف . أما قول المويلحي بتسليم فرنسا مدحت باشا للسلطان مقابل تونس ، فهناك قول آخر لـ«أورخان محمد علي» مفاده أن مدحت باشا عندما علم بوشك محاصرة جند السلطان لبيته في إزمير ، وإلقاء القبض عليه، هرب إلى القنصلية الفرنسية لقربها ، فاستدعى السلطان السفير الفرنسي، وطلب منه تسليم مدحت باشا إلى الحكومة ، فأمر السفير قنصل فرنسا بتسليمه فورًا ، ويعلل أورخان ذلك بأن فرنسا «كانت=

فرنسا فطلبتهُ الدولة فتوقفت فرنسا في تسليمهِ .

وانتهت المسألة بين الدولتين بعد المخابرات أن فرنسا تسلمهُ بالشمال وتستلم تونس باليمين وتم الأمر واشترت الدولة رجلًا واحدًا بمملكة . فما أغلى قيمة الرجال عندها . ولما قرب الفرنسويون من تونس صاح الباي وبعث بالرسائل والرسل يستنجد الدولة فما أصغى إليهِ مصغٍ . وبعث مصطفى ابن إسماعيل وزير تونس وهو الآن في الأستانة إلى المرحوم بهرام أغا عن لسان الصدق بأي والي تونس بالاستنجاد والاستغاثة وبعث الهدايا فقبل الاغا الهدايا ولم يجب بكلمة نافعة في المقصود .

فسد الأمر كلهُ فاتركوا الأعراب أن الفصاحة اليوم لحنُ

بئست الأمّ أُمنا هذه الدنيا وبئس البنون للأُمّ نحنُ

وما زال بهرام لهُ النظر الأعلى في طوالع النفوس والحكم المبرم عليها بالسعود والنحوس يحكم ولا معقب لحكمهِ ويأمر ولا رادَّ لأمرهِ ويشمخ بأنفهِ على الفحول أصحاب السيف والعلَم والكتاب والقلم ويكبر على عترة الرسول وأولاد البتول فيمد رجلهُ في وجوهٍ كرَّمها الله لتقبيلها ولا يردعهُ رادع الإيمان ولا يزعهُ وازع القرآن أن يقف عند حدهِ مع أهل بيت نزل الكتاب عليهم وفيهم . قال الله تعالى: قل : ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا

=قد احتلت تونس قبل أيام قليلة ، وكانت تخشى تدخل الدولة العثمانية ، لذا لم تكن ترغب في إثارة آية مشكلة إضافية معها، وهذا القول قريب من قول المويلحي.

انظر كتاب « سر مملكة » جـ ١ لسليم سركيس وفيه تسجيل وتصوير لمحاكمة مدحت باشا .

وكتاب « تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي » لأنور الجندي .

وكتاب « تراجم مشاهير الشرق » لجرجي زيدان ومذكرات السلطان عبد الحميد .

وكتاب «السلطان عبد الحميد الثاني — حياته وأحداث عهده» لـ «أورخان محمد علي» (ط)

ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (الشورى : ٢٣) ، وقال سبحانهُ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٣٣) ، ولا يخجل أن يفعل هذا المنكر في بيت الخليفة على مرأى من الأدنى والأعلىٰ ومسمع من قوم يشك في صدقهم المسلم إذا ادعوا بعدها حب المصطفى ﷺ واحترام آل بيتهِ . وما زال يلعب لعب الوليد في عظائم الأمور ويعبث عبث الجاهل في شؤُون الجمهور ومصر من بينها في فصوص لعبهِ وكعوب ددهِ[1] مع الشيوخ يأْخذها مرة ويرميها أخرى فتكون لهُ طورًا وطورًا تكون من نصيبه ملاعبهِ بها حَتَّى سقطت منَ بين أيديهم ومضى الآغا لسبيلهِ وتركهم يفتشون عليها من بعدهِ . وهو المشير بأن لا ترسل الدولة إلى مصر الجنود الشاهانيَّة حين طلب الإنكليز من الدولة إرسالها إليها بدعوى أن ذلك ربما استدعى تقليل العساكر الذين يحافظون على سراي يلدز ولم يعلم الآغا أن الدولة العثمانيَّة لا ينقصها عسكر وجنود والذي حملهُ على هذا القول الذي لا يصدر عن طفل هو إظهار التفاني في المحافظة على جلالة السلطان ليزيد بهِ نفوذًا .

ولما مات تولى وظيفتهُ شرف الدين آغا فأَراد أن يقف في موقفهِ ويمد يدهُ في الأمور إلى حيث مدها سلفهُ فزلت بهِ قدمهُ بما حصل في السراي من بعض الاضطرابات الداخليَّة الَّتي انكشفت غياهبها عن عزلهِ ونفيهِ إلى الحرم الشريف .

يستغيث القلم أن يكتب هذا الفصل وهو أن العادة جرت من زمن قريب أن المجرمين والقاتلين والمتهمين ينفون إلى الحرمين الشريفين فيبعث بهم ثبًا ثبًا[2] وفرادى مغضوبًا عليهم من بيت السلطان إلى

---

(١) الدد والددن هو اللعب والضرب بالأصابع . (ط)

(٢) ثباثبا جاء في لسان العرب مادة « ثب » أن الثباب هو الجلوس . وثبب إذا جلس جلوسا متمكنا . وفي القاموس المحيط ثب الأمر : تم . وحسب النص هنا: جماعة جماعة (ط)

بيت الرحمن .

ولم يبال المشيرون على جلالة السلطان بهذا أنهم يأتون أمرًا يكرههُ الله والنبي والمسلمون وأنهم يعثون بقوم لا يخلو الحال أن يكون فيهم مظلوم إلى بقعة هي أقرب البقاع إلى إجابة الدعاء . قال الله تعالى : ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أيعطف المنفيون على هؤلاء رحماك اللهمَّ أن جعل هذه البقاع المباركة مكانًا للنفي على المغضوب عليهم مما لا يطاق حملهُ .

ثم تولى هذه الوظيفة بعد شرف الدين أغا ياور أغا الموجود الآن وهو يجاوز التسعين من العمر وليس لهُ تداخل في الأمور السياسيّة وإنما يميل بطبعهِ إلى الطرب والمضحكات فيأتي إلى حجرتهِ من يتقرب إليهِ بإضحاكهِ من موظفي المابين وخدمهِ فيرى فيهم أحيانًا راغب بك المشهور بالثروة والغنى يتزلف إليهِ بالسخريَّة ولم يبقَ لهُ من الإدراك ما يطمع بهِ أن يتداخل في تدبير الشؤون وهو يتخوف على نفسهِ من الدسائس أن تلحقهُ بالحرم النبوي فهو يستغيث لكل من دخل عندهُ وأراد توسطهُ في شيءٍ بأنهُ على أهبة السفر إذا وشي واش بهِ ولا يطمع في شيءٍ من مال الدولة عند الرحيل خلاف ما على جسدهِ من اللباس وما في إصبعه من الخواتيم وما في يدهِ من السُّبح الَّتي يقدّرها المقدّرون بثلاثين ألف ليرة .

ومن جماعة الخصيان طائفة المصاحبين وهم كالمابينجيَّة يبلغون الإرادات السنيَّة ولفظة مصاحب تماثل لفظة قرناءَ الَّتي يطلقونها على المابينجي وفي اللغة التركيَّة يستعملون أحيانًا الجمع العربي للمفرد فإذا أرادوا جمعهُ أضافوا عليهِ علامة الجمع التركيَّة وفي المابين السلطاني يعادل المابينجي المصاحب في جنس الخدمة ويختلفان في بابها وقد يعطى لقب مصاحب لغير الخصيان كما أُعطي إلى لطفي أغا التتنجي الثاني للحضرة

السلطانيَّة . وكان خادمًا لمحمود نديم باشا تربى في حجرهِ وشرب من شرعة خبثهِ ومكره وللمصاحبين رئيس هو باش مصاحب واسمهُ جوهر أغا والمصاحب الثاني هو مظفر أغا والثالث عبد الغني أغا وهلمَّ جرًّا ولكل خصي من هؤُلاء الخصيان طريقة من الطرق كالشاذلية والرفاعيَّة والقادريَّة وينقادون لمشايخها أكثر من انقيادهم لأئمة المذاهب .

أما جوهر أغا باش مصاحب فوظيفتهُ أهم وظيفة في السراي وهي مراقبة سراي جراغان .

هنا يقف القلم برهةً ليجد منفذًا يدخل منهُ هذه السراي الَّتي هي إحدى المعميات الَّتي لا يكشف معماها حدسٌ ولا تخمين ولا يبلغ مكنونها فكر وليس في وسعنا إلَّا أن نذكر اختلاف أقوال الناس من العثمانيين والأجانب فيها . فطائفة من الأوربيين ينكرون وجود السلطان مراد فيها ويقولون أنهُ قد قضى نحبهُ بعد خلعهِ بزمن قليل ويعتبرون ما يجرى من شديد المراقبة وإمعان التحرز والمحافظة على السراي إيهامًا بوجودهِ . وطائفة من العثمانيين يعتقدون وجودهُ فيها وربما نقل صديقٌ منهم لصديقهِ بعض الأشياء عنهُ كقولهم أن السلطان المخلوع كثير الإطراق من الفكر على حال السلطنة دائم القبض على لحيتهِ حَتَّى خف شعرها . وطائفة من العثمانيين والأجانب واقفون موقف الشك والحيرة يترددون في الأمر فيستبعدون تارةً أن يعيش مريض بالجنون عشرين سنة فيميلون بعض الميل إلى التصديق بوفاتهِ وينسبون كتمانها إلى التفادي من اشتغال الناس بأعضاء الإرث العثماني ويجنحون تارةً إلى القول بوجودهِ في صحة تامة . وقصارى الأمر أن الحقيقة مجهولة للناس ووظيفة الباش مصاحب المشهورة هي المراقبة الدقيقة على جميع ما يصدر عن السلطان مراد من الأقوال والأفعال

والحركات فلا يغادر ألاغا كبيرة ولا صغيرة إلَّا أحصاها بعيونهِ وإرصادهِ من الخدم والحرم في تقرير يقدمهُ صباح كل يوم لجلالة السلطان .

أما وظيفة حسن باشا محافظ بشكطاش فهي المراقبة على السراي من الخارج وعلى من بها من العساكر والضباط والخدام . وسراي جراغان [1] هذه من أكبر سرايات السلطنة وهي على البوسفور بين أسكلة [2] بشكطاش وأسكلة أورته كوى وعلى الجادة . وقد أفرط المفرطون في المراقبة والمحافظة عليها بحيث أن وابورات الشركة الخيريَّة الَّتي تمرُّ في البوغاز إذا حاذتها رسمت في سيرها قوسًا على السراي للبعد عنها ولو كان في هذا خطر عليها باشتداد الريح واضطراب البحر . وقد يبلغ التملق والنفاق ببعض ركابها أن يحولوا نظرهم إلى الشاطئِ الثاني إذا مروا عليها. وكذلك الصنادل والسفن إذا قربت منها تخط ذلك القوس تباعدًا عنها وإذا قسرها

(١) سراي أو قصر جراغان جدد بناؤه بين سنتين ١٨٦٣ و ١٨٦٧ وتولى هندسته سركيس بك باليان فشيده على الطراز التركي المستحدث كطولمة بغجه إلا أنه أقل زخرفة ولكن أشد موقعا في النفوس بعظمته وهيبته حتى قيل : إنه أجمل ما ابتناه السلاطين من القصور .. وكله من الرخام تبلغ واجهته ٧٥٠ مترا » وهذا القصر يقع على ضفة البسفور الشمالية ، وفيه قتل السلطان عبد العزيز بعد خلعه ، وعاش فيه السلطان مراد حتى مات ، وسكنه السلطان عبد الحميد قبل توليه السلطنة ، وقد رغب عبد الحميد أن يعود إليه بعد خلعه إلا أن الاتحاديين رفضوا ذلك ، وقد أصبح مقرا لمجلس النواب .

وفي يناير ١٩١٠ شب فيه حريق أتى على الرياش والأثاث والأوراق والوثائق ، والمظنون أنه أحرق عمدا وقد رثاه الشاعر ولي الدين يكن بقوله :

هــذا قــضاء الله أم غــدر ... مــاذا أصــابك أيـهـا القــصر

أعلى « مراد » رحت مضطرما ... مــن غــيرة إذ ضــمه القــبر

أم أنــت ممــن فيــك منتحــرٌ ... يــا قــصر أم في مــا جــرى سر

انظر مجلة « المشرق » للأب لويس شيخو عدد ديسمبر ١٩٠٩ ومجلة الهلال عدد أكتوبر ١٩٠٩ وعدد مارس ١٩١٠ . (ط)

(٢) اسكلة : الميناء أو رصيف الميناء ، وهي كلمة غير عربية كانت شائعة الاستعمال في ذلك الوقت بهذا المعنى . (ط)

البحر إلى القرب قليلًا منها صاح العساكر على من فيها أن يبعدوا فإن لم يفعلوا بعد التنبيه الثاني هددوهم بإطلاق الرصاص عليهم فهي محميَّة من جهة البحر بشوك الحراب ونار البنادق أما مِنْ جهة البر فلا يمكن لعابر الطريق أن يصعد نظرهُ إلى نوافذها أو يقف أمام جدرانها وأبوابها فإن فعل هذا أحد أخذهُ المراقبون أخذ الجبارين إلى مالك مطلق التصرف وهو الحاج حسن باشا الفريق محافظ بشكطاش حامل النشان العثماني المرصع فيستنزف تامور قلبهِ بالاستنطاق وهذا ديدنهُ وهذا دأبهُ ليلًا ونهارًا .

ومِنْ عجيب ما يتناقلهُ الناس في خلواتهم إن أحدى المركبات وقفت عن السير أمام السراي لتعب مسَّ خيولها أو حرن [1] أدركها فضبطت الواقعة ودام التحقيق مع سائقها وراكبيها أيامًا حسومًا عرف المحققون فيها وظائف راكبيها ومساكنهم وجيرانهم وأقاربهم حَتَّى إذا لم يبقَ ظل شبهة لديهم أطلقوهم بعد الكشف عن الخيل بطبيب بيطري . وهذه الأشياءُ الَّتي يتعجب منها الناس ويستبعدون وقوعها ولا يكادون يصدقونها هي أهم ما يشتغل بهِ الخاصة المقربون الذين يسمون أنفسهم (بنده كان أو فداكار) وبنده كان هذه كلمة فارسيَّة معناها عبيد ولكنها اختصت بمن تشرف بالمحسوبيَّة لذات السلطان . وفداكار من يفدي السلطان بروحهِ وهاتان الكلمتان مفتاحان يفتح بهما المتملقون كنوز مصالحهم وسرَّان عظيمان يبيحان لحاملهما أن يفعل ما يشاءُ غير آثم ولا مذنب لأنهُ وهب روحهُ لحب ذات السلطان .

قد خرجنا من سراي جراغان كما دخلنا لا نعلم شيئًا وهذه القصة تشبه ببعض وجوهها حكاية ذي القناع الحديدي الذي كان محبوسًا عند لويس الرابع عشر ملك فرنسا وبقي امرهُ في ظلمات الخفاءِ لا يعلمهُ أحد لليوم وكل ما يقال عنهُ حدس وتخمين لا يغنيان من الحق شيئًا . وهذا آخر ما نقولهُ في دائرة الباش أغا .

---

(١) حرن : حرنت الدابة لم تبرح مكانها . (ط)

المقال السادسة

دائرة الياوران في المابين

هذه الدائرة تحتوي على فحول القواد وقروم الأبطال ورجال الحروب وفيها منهم .

أبطال مملكة أسود خلافةٍ ظل الهدى غابٌ لهم وعرينُ

إلَّا أن التجارة الرائجة في السراي استنأَت بهم بعضهم وشجاعتهم فكسروا جفونهم للمطامع وناموا عن شأنِ الإسلام الذي قام عزهُ على سيوف آبائهم وأجدادهم . وأصبحوا يتلون وصايا الانكماش والانقباض بعد أن كانت تتلى وصايا المعالي بين أظهرهم وصاروا يتحينون فرص العطاءِ كأنهم من الشعراءِ .

وهم ثلاثة أقسام . ياور . وياور أكرم . وياور فخري . وسرياور (أي رئيس الياوران) وهو محمد باشا صاحب رتبة الفريق وصهر جلالة السلطان . فاليلوران إلا كارم ينيفون على عشرين كلهم من أعاظم المشيرين . والياوران مائة وعشرون والياوران الفخريون فوق مائة وثلاثين ورتبهم مختلفة من رتبة الملازم إلى رتبة المشير ولم يجتمع على باب سلطان من السلاطين ولا ملك من الملوك المتقدمين والمتأخرين ما اجتمع اليوم منهم على الباب الرفيع والسدة السنيَّة . كما أنهُ لم يبلغ بعظمة دولة وقوة سلطنة وجلال إمبراطوريَّة وسعة مملكة في عهدنا أن يكون في قوادها عشرة من المشيرين وللدولة العثمانيَّة المجد الأثيل بأن لها في قوادها ستين مشيرًا .

والمشير هنا هو المارشال مثل مولتك في ألمانيا ومكماهون في فرنسا وولسلي في انكلترا .

قلنا أن عدد المشيرين حول السدة السلطانيَّة ستون مشيرًا أما الدولة البريطانيَّة فليس في وسعها ولا في سعتها إلَّا تعيين ستة مشيرين أحدهم ولي عهد الملكة والآخر عمها والأربعة الباقون اشتهروا في حروبها كاللورد ولسلي في مصر واللورد روبرتس في الهند والدولة الفرنسويَّة كان عندها أربعة مشيرين أيام حربها مع ألمانيا ولم يخلفهم أحد بعد وفاتهم ويضرب الأوربيون المثل في بطر بونابرت الفاتح الكبير مع أن مشيريهِ لم يبلغوا العشرين ولكن أين هم منا وعدد مشيرينا لا يقل عن الستين . والدولة الروسيَّة ليس فيها اليوم إلَّا مشير واحد هو جوركو الشهير وإمبراطوريَّة ألمانيا لم يبقَ بها مشير بعد مولتك ومونتفل . وإيطاليا لا مشير لها . وأسبانيا فيها مشير واحد هو كمبوس الذي أيد ملك العائلة الحاضرة وقهر أحزاب الدون كارلوس .

أما المشير بمعنى ذي الشورى فقد تعالت عنهُ الدولة العليَّة علوًّا كبيرًا.

ولم يسمع أن الباور الذي وضع عند الأوربين لمعاون القائد في ساحة القتال يكون في رتبة المارشال . ولكن للدولة الأمر المطلق فتهب ما تشاءُ من الألقاب لمن تشاءُ من الرجال .

ورتبة الياور الأكرم في المابين فوق كل المراتب قدرًا . وكان جواد باشا الصدر الأعظم السابق يوقع على أوامر الدولة متأسفًا هكذا « صدر أعظم وياور أكرم » ولو سلّم لهُ لقدَّمَ الثاني على الأول لأنهُ يرى أن في الياور الأكرم معنى الخدمة الخصوصيَّة لذات جلالة السلطان فهو يفضلها على الوكالة العامة المطلقة عن الخلافة والسلطنة . ومن هذا وغيره يظهر أن

هؤلاء الأفاضل اعتبروا أن السلطنة والدولة والخلافة والأمة والإسلام والمسلمين أشياءُ خلقها الباري عزَّ وجلَّ لخدمة الذات السلطانيَّة لا أن جلالة السلطان الذي رفعهُ الله إلى مقام الخلافة هو المسأُول المكلف أن يحفظها بنفسه . ونحن ننزه إيمان جلالة السلطان أن يصغى إلى زخرفهم فإن الأمر في القيام بشأن الخلافة عند الله عظيم .

ومن الباوران الأكارم الغازي عثمان باشا أسد بليفنا ونعامة يلدز [١] وهو مشير المابين ولهُ المراقبة والسيطرة على العساكر المحافظين على القصر السلطاني داخلًا وخارجًا حتى لا يقع بين أفرادهم شغب أو إهمال في الخدمة فلا يكاد يغيب عن السراي فإن دعت الضرورة أن يفارقها بعض الدقائق أرسلوا إليهِ في الحال فيحضر سريعًا ويباشر المراقبة المستمرَّة الَّتي لا يؤتمن عليها غيرهُ وقد كان جلالة السلطان أمر مرة بتعيينهِ سر عسكر [٢] فلم يبق إلَّا أيامًا قلائل في هذه الوظيفة ثم رأى جلالة السلطان أن لا غناء عنهُ في السراي وقد قيل للمرحوم توفيق باشا الخديو السابق أن يبعث لهُ بتهنئة فقال المغفور لهُ أخشى أن يعزل قبل أن تصل التهنئة وهكذا صار،

---

(١) الغازي عثمان باشا : هو عثمان نوري باشا القائد العثماني الشهير ، ولد سنة ١٨٣٢ في طوقات من أعمال سيواس ، تخرج من المدرسة الحربية ، وشارك في حرب القرم ، وأخمد ثورة في كريت ، وحارب الصرب فهزمهم ، وكان من أكبر القواد في حرب تركيا مع روسيا سنة ١٨٧٧ إذ أظهر تفوقا كبيرا ونال شهرته لحسن بلائه فيها ، أما بليفنا التي يشير إليها المويلحي فهي حصن في الطونة دارت حوله معارك رهيبة بين عثمان باشا والروس . وقد كسر عثمان جيوش الروس أكثر من مرة وأنزل بهم هزائم متلاحقة فأنعم عليه السلطان بالنيشان العثماني المرصع مع لقب غازي ، وعندما وقع في أسر الروس أكرمه القيصر إسكندر الثاني لبسالته وكان في سنيه الأخيرة مشير المابين ، وقد تزوج اثنان من أولاده بكريمتي السلطان ، وتوفي في أبريل ١٩٠٠ (تراجم مشاهير الشرق) . (ط)

(٢) سر عسكر : قائد الجيش . (ط)

ولهذا بلغ شرفهُ في السلطنة ما لم يبلغهُ أحد فإن جلالة السلطان زوَّج بنتيهِ مِنْ ابنيهِ . ولهُ دائرة خاصة في المابين من أعظم دوائرهِ ويزار فيها ويقصدهُ القاصدون ذوو الحاجات من العساكر وغيرهم فيقضي من حوائجهم . ولهذا فالعسكري في المابين بما يقدم لهُ من أنواع الإكرام والاعتناءُ بشؤُونهِ فيما زاد عن الحوائج الضروريَّة فوق الضابط في الخارج الذي يقف حيران عاجزًا وسط احتياجات حياتهِ . وكل من في المابين يحترم هذا الغازي لوقارهِ وسنهِ وحسن بلائهِ في خدمة الدولة وبينهُ وبين السيد أبي الهدى ما يكون بين المتناظرين من المجافاة والمعاداة . فمن ذلك أن جلالة السلطان شكا يومًا إلى الغازي فتورًا يجدهُ في جسمهِ الشريف فقال لهُ لو استراح جلالة وليّ النعم عن الاشغال ثلاثة أيام أو أربعة لزال ذلك الفتور الذي يجدهُ مولانا . فمال جلالتهُ إلى رأيهِ وشكرهُ عليه . ثم حكى جلالة السلطان للسيد أبي الهدى عن فتوره وعما قالهُ الغازي عثمان باشا لهُ فقال السيد . سبحان الله أن هذا يخالف الصداقة الَّتي كنت أعلمها من عثمان باشا لجلالتكم فإن تأْخير جلالتكم عن مباشرة الأشغال يومًا واحدًا موجب للقيل والقال والقلق والاضطراب وكيف خفى هذا على عثمان باشا . فتكدر جلالة السلطان وبعث الحاج علي بك الباشمبنجي إلى الغازي يعتب عليهِ فيما أشار بهِ على جلالتهِ وكثيرًا ما يمرُّ الغازي عثمان باشا والسيد أبو الهدى جالس فإذا حاذاهُ مدَّ السيد رجلهُ تهاونًا بهِ بما لهُ مِنْ عظيم المنزلة لدى جلال السلطان .

ومنهم الغازي مختار باشا وهو من أعظم القواد فضيلة وأعزهم نفسًا وأجلهم قدرًا وهو وكيل الرئاسة السنيَّة على مجلس التفتيش العسكري في السراي السلطانيَّة . وننقل هنا حكاية وقعت تدل على غيرة نفسهِ وشرف

أخلاقهِ ومحافظتهِ على الاسم العسكري وذلك أن جلالة إمبراطور ألمانيا بعث إلى جلالة السلطان نشان النسر الأسود مع برنس ألماني من ذوي الوجاهة والشان إجلالًا للمقام السلطاني ولما حضر البرنس احتفال جلالة السلطان بهِ احتفالًا عظيمًا وبعد الوليمة السلطانيَّة الَّتي أعدت لهُ أمر جلالتهُ أن كبراءَ السلطنة يتناوبون في دعوتهِ لوليمة يدعوهُ إليها كل واحد منهم .

وأمر جلالتهُ عثمان بك كيلارجي باشي أن يذهب إلى كل من جاءَت عليهِ النوبة فيسألهُ عما ينقصهُ من لوازم الوليمة فيتممهُ لهُ من السراي السلطانيَّة فكان بعضهم يرفع الستائر والكراسي من بيتهِ إلى جهة أخرى ليفرش بيتهُ في كرامة الوليمة ولما جاءَ عثمان بك إلى الغازي مختار باشا وسألهُ عما ينقصهُ ليكملهُ لهُ قال لهُ أني بنعمة وليّ النعم مولانا السلطان لا ينقصني شيءٌ . ولما سافر البرنس ورد مكتوب مِنْ جلالة إمبراطور ألمانيا لجلالة السلطان يثني على الغازي مختار باشا ويمدحهُ بناءً على ما سمعهُ من البرنس من أوصافهِ الكاملة وأخلاقهِ الكريمة وسعة اطلاعهِ وعلمهِ بالفنون العسكريَّة وغيرها ويهنئُ السلطنة بقائد مثلهِ فأمر جلالة السلطان باستدعاء الغازي إلى السراي ولما حضر بعث جلالتهُ إليهِ من يبلغهُ الرضا العالي وحسن التوجهات السلطانيَّة وأرسل لهُ من طعامهِ الخاص احتفاءً بهِ ووعد أن يقابلهُ في الصباح وفي الليل أعطى خمسة آلاف جنيه إلى عثمان بك وكان المابينجي الثاني ليوصلها إلى الغازي إحسانًا من لدن مكارمهِ وكان في نفس عثمان بك بعض الحزازات من الغازي فجاءَ إليهِ يقول بصوت عال قد جئت لك بإحسان لم ترَهُ في عمرك ولم يرهُ أبوك في عمرهِ وقدم ورقة المبلغ فقال لهُ مختار باشا أن قبول الإحسان من جلالة مولانا

السلطان قلَّ أو كثر من أجلّ ما يتشرف بهِ الإنسان ولكني لا أقبل عطيَّة غلافها كلامك هذا . ولم يأخذ الورقة ونزل من السراي ليلًا إلى بيتهِ وكتب مكتوبًا إلى المرحوم رشيد بك الكاتب الخاص لجلالة السلطان يذكر لهُ الحكاية وما سمعهُ من الكلام الذي لا ينبغي أن يقترن بعطيَّة سلطانيَّة . وفي الصباح أمر جلالة السلطان بحضور الغازي إلى سدتهِ فأخبرهُ عثمان بك بما شاءَ فغضب جلالة السلطان ثم دخل رشيد بك فعرض مكتوب الغازي فأحضر جلالة السلطان عثمان بك وكدرهُ تكديرًا كثيرًا وأمر أن يبعث في الحال إلى الغازي بمركبة من السراي ليحضر فيها ولما مثل بين يدي جلالتهِ أعطاهُ العطيَّة بيدهِ الشريفة ولاطفهُ غاية الملاطفة ورجع الغازي شاكرًا للإحسانات المتتابعة عليهِ في آن واحد .

ومنهم نصرت باشا وهو رجل شهم القلب مقدام إلَّا أن جسارتهُ طوحت به إلى النفي في بغداد وهو فيها للآن ولهُ دلال على جلالة السلطان وكلمات بهلوليَّة فأرسلهُ السلطان إلى شاه العجم بنشان وعند رجوعهِ إلى الحدود العثمانيَّة فاجأَهُ التلغراف بأن يذهب إلى بغداد فذهب إليها وقد كان في الحضرة السلطانيَّة مرة ولما أُمر بالجلوس سحب الكرسي من تحتهِ سجاده جي باشي فوقع فأوجب ذلك ضحكًا عليهِ ولما خرج دعا إلى حجرتهِ سجاده جي باشي وأغلق الباب وضربهُ ضربًا مبرحًا وقال لهُ إياك والمزاح مع عسكري مثلي . ولهُ أشياءُ فوق ذلك لم تتحملها عظمة التخت .

ومنهم درويش باشا وابنهُ صهر جلالة السلطان وهو الذي بعثتهُ السلطنة إلى مصر مع السيد أحمد أسعد في حكومة المغفور لهُ الخديو السابق لإخماد الفتنة العرابيَّة . والسيد أسعد هذا هو الذي بعثهُ جلالة السلطان إلى سفير الإنكليز في الأستانة ليخابرهُ في مسألة سياسيَّة فتخلص من الدخول

فيما لا يحسنهُ بالتمارض واسترسال السعال . ولما قدم درويش باشا إلى مصر مع صاحبهِ أكرم المغفور له الخديو السابق مثواهما وأحسن نزلهما وبوَّأهما من مكارمهِ أعلى منزلة وظن أنهما يستأصلان الفتنة بشهامة أحدهما وحكمة الآخر فقفلا عن مصر بحسن حظهما غانمين سالمين وتركا مصر لسوءِ حظها أشد ارتباكًا وأعظم اضطرابًا ووضعا ذنب إخفاقهما على كواهل المصريين وطفقا يذمان مصر وتثني عليها الحقائب . ولو كان لمصر من حسن الاتفاق طالع سعيد لجاءَ غيرهما وإخمدا الفتنة في بدءِ اشتعالها ولكن ما الحيلة وهؤلاءِ رجال السلطنة والسلطان وحدهُ لا يقدر على كل شيءٍ . والياور الأكرم المشار إليهِ أرنؤُودي من ذوي البيوتات العظيمة في بلاد الأرنؤُود . والسلطنة ترى فيهِ عونًا سديدًا وركنًا شديدًا على ضبط البلاد الأرنؤُوديَّة وهو يرى بهذا أن بلادهُ صارت لهُ ملكًا يتصرف فيهِ تصرف المالكين . والمساكين سكان البلاد زادوا بهِ طبقة ضاغطة فوق الطبقات الضاغطة فوق هواديهم وطوقًا على أطواقهم الَّتي في أعناقهم .

ومن الياوران الأكارم إسماعيل باشا الكردي الرئيس الثاني لمجلس التفتيش العسكري ومنزلتهُ في بلاد الأكراد منزلة درويش باشا في بلاد الأرنؤُود ولهذا لهُ المقام الأسمى في السراي ولهُ بهِ النفوذ الأقوى الذي تنطوي تحتهُ الفوائد الجمة من البلاد الكرديَّة وقد اتخذهُ جلالة السلطان صهرًا . وعلى هذا كلما زاد القبول في السراي زاد النفوذ في البلاد وكلما زاد النفوذ في البلاد زاد القبول في السراي إلى ما شاءَ الله من درجات السعادة لصاحبها وإلى ما أراد سبحانهُ من دركات الشقاء للعباد والبلاد .

ومنهم شاكر باشا وكان سفيرًا للدولة في الروسيا وقد ترشح اسمهُ لمسند الصدارة مرارًا لتقلبهِ في السياسات العالية ولما هو مشهور عنهُ من

سداد الرأي . وقد جعلهُ جلالة السلطان سفيرًا بينهُ وبين سفراءِ الدول في الأستانة للمخابرات السياسيَّة ثم اختارهُ في هذه الأيام مراقبًا على الولايات الأرمنيَّة لأن لسفراءِ الدول بهِ ثقة . ولما أرسل إلى كريد لتسكين ما كان فيها مِن الاضطرابات كان جواد باشا الياور الأكرم والصدر السابق في معيتهِ ثم عاد شاكر باشا إلى الأستانة وبقي جواد باشا وكيل الولاية فيها وأُحسن عليهِ برتبة المشيريَّة ثم عين صدرًا أعظم واستقدم إلى الأستانة فسار شاكر باشا بأمر جلالة السلطان إلى الباخرة لاستقبال من كان في معيتهِ حتى يعلم أن الرفعة والضعة بيد السلطان وأن جلالتهُ يرفع من يرفعهُ ويضع من يضعهُ على ما تقتضيهِ حكمتهُ فأَدى واجب تلك الطاعة على أَحسن ما يصدر عن عبدٍ لمولاهُ ، وحمل هو والشيوخ من القواد أمثالهِ على رؤُوسهم رئاسة الصدر جواد باشا الذي صعد إلى أَعلى وظيفة في الدولة وهو في عنفوان الشباب ومقتبل العمر بقوة التقارير الَّتي كان يقدمها والأخبار الَّتي كان يرفعها وأخذ يرفرف على رؤُوسهم في جوّ الاقبال بتلك التقارير ويتقدمهم بها في درجات الأبهة حَتَّى جاءَ المفتش وأنزلهُ من الدرجة الَّتي كان دخلها بغير حق إلى الدرجة الَّتي يستحقها بتذكرتهِ [1] ولا أظن أن أحدًا من هؤُلاء القواد الذين يبيتون على الحشايا الوثيرة وفوق الأسرة المذهبة مستريح القلب إذا مرَّ على فِكرهِ تاريخ حياتهِ وما لاقاهُ في الحروب وما قاساهُ من الخطوب وقابلهُ بتقدم من طار بأجنحة التقارير حَتَّى حط

(١) أَلَّف بعض الانكليز رسالةً في سيرة عشرين رجلًا ارتقوا على غير استحقاق فلم يلبثوا أن هبطوا بعد الارتقاء فشبههم فِي إرتقائهم وهبوطهم برجال يركبون مركبات أَعلى مما يحقق لهم ركوبهُ في القطار حتى يأتي المفتش ويرى تذاكرهم فينزلهم من مركبات الدرجة العليا إلَى مركبات الدرجة الَّتِي تستحقها تذاكرهم . فجرى هذا التشبيه عند الكتاب مجري الأمثال السائرة . (المويلحي)

على رأسهِ إلَّا أن ثلاثة منهم وهم شاكر باشا هذا وفؤَاد باشا المصري ودرويش باشا لما أخذهم المقيم المقعد من تيههِ وكبرهِ قدموا عريضة إلى جلالة السلطان يلتمسون فيها إحالتهم على المعاش فغضب جلالتهُ من إقدامهم وعتب عليهم ثم استرضاهم بحكمتهِ وسياستهِ .

ومن الياوران الأكارم أيضًا فؤَاد باشا المصري وبهِ تفتخر مصر لعزة نفسهِ وثبات جأْشهِ وقوة فؤَادهِ وصداقتهِ لجلالة السلطان إلَّا أن فضائلهُ رمت بهِ في مشاكل لا يسلم الواقع فيها في كل وقت وضيقت عليهِ حلقات الاستنطاق في أمور رمتهُ فيها سذاجة الصادق الأمين ومع هذا فإنهُ لا يخرج منها لحسن نيتهِ إلَّا بالعطايا الطائلة . بعثهُ جلالة السلطان إلى امبراطور النمسا بنيشان فاشترى من فينا سلاحًا أعجبهُ ليقدمهُ إلى الحضرة السلطانيَّة فأبلغوا جلالتهُ قبل تقديمهِ إلى سدتهِ أن فؤَاد باشا اشترى سلاحًا ومرة لقصدٍ سيءٍ فأُخذ عند قدومهِ إلى الاستنطاق وفي هذه الأثناءِ نزل جلالة السلطان من يلديز [1] إلى بشكطاش لصلاة الجمعة ـ قبل أن يحرم المسجد الحميدي مساجد الأستانة وأهلها من التمتع بركابهِ ورؤْيتهِ الَّتي بها انتعاش القلوب ـ وكان هو وراءَ الجواد الذي يركبهُ جلالة السلطان وبهرام آغا بجانبهِ والوزراءُ والمشيرون ولما ملأَ بهرام آغا عينهُ من هذه العظمة الملوكيَّة وضع يدهُ على كفل الجواد ، وقال: بسم الله ما شاء الله . فجفل الجواد وضرب برجلهِ فأَصابت يد المشير فؤَاد باشا وكادت تضرُّ بها ضررًا عظيمًا فتقوَّل الذين يتحينون فرص التملق أقوالًا استوجبت استنطاق فؤَاد باشا

(١) يلديز : قصر السلطان عبد الحميد ومعناه النجم ، وقد تحول إلى متحف وسمح لأفراد الشعب التركي بدخوله نظير رسم رمزي بعد خلع السلطان ، انظر وصفه في مجلة المشرق عدد ديسمبر ١٩٠٩ ومجلة الهلال عدد أكتوبر ١٩٠٩ . (ط)

وبهرام آغا عند رجوع جلالة السلطان إلى السراي فخلص الآغا بكلمات قالها وقويت الشبهة على فؤَاد باشا لمسألة السلاح الذي كان الاستنطاق جاريًا عليهِ فيها فأَقام في السراي ثلاثة أيام لا يأْكل طعامًا حَتَّى كاد يأْتي على نفسهِ . ولما سمع سعيد باشا الصدر الأعظم بهذا وكان حينئذٍ باشكاتب الحضرة السلطانيَّة عرض الأمر على جلالة السلطان فصدرت الإرادة السنيَّة بالعفو عنهُ . هذه عيشة السراي الَّتي يتحاسد عليها المتحاسدون ويتنافس فيها المتنافسون . وقد اتهمه أعداؤُهُ بأكبر من هذا حَتَّى رمى بشرائط الكسوة العسكريَّة الَّتي كانت عليهِ إمام الحضرة السلطانيَّة لما بلغت الروح التراقي من كيد الذين يستنفرون من ذي فضيلة بينهم ثم أحسن عليهِ جلالة السلطان بمعدن باعهُ بثمانين ألف ليرة . وفي العام الماضي أعيدت عليهِ الكرة في فتنة أخرى زعموا أنهُ أَحضر من أوربا بعض مواد التهابيْة كالديناميت وغيرهِ فصدرت الإرادة بتفتيش بيتهِ فلم يجدوا إلَّا ألعابًا ناريَّة أحضرها لزينة يوم الجلوس السلطاني .

هذا حال الأمين إذا وُجد بين الخائنين وهذا فعل الخائنين في إضاعة الأوقات (الضروريَّة لإصلاح حال الدولة) على جلالة السلطان مع علمهم أنهُ قائم وحدهُ بإدارة الشؤُون كبيرها وصغيرها وأن أوقاتهُ كلها لا تكفي لذلك . ما تداخلت الدول في أمورنا من شيءٍ قليل .

قد ذكرنا من ينبغي أن يذكر من الياوران على حدتهِ أما الباقون فأكثرهم لا يذكرون إلَّا في المقالة التالية مقالة الجواسيس المعروفين بالخفيات .



المقالة السابعة

الجواسيس

يهجر الإنسان لذَّاته ويرفض راحة حياته لطلب العلم ويضرب في الأرض ويجمع من قوته لنوال الإثراء وينازل الأبطال ويصارع الأهوال لبلوغه العلياءِ حَتَّى إذا مضى العمر إلَّا الأقلّ قيل لهُ طالب علم أو غنى أو عظيم القدر . أما إنسان الأستانة فلهُ طريق إلى العلياءِ مختصر ينال الإثراء والعلياءَ وشهرة العلم في يوم واحدٍ وليس عليهِ في الوصول إلى مطلبهِ إلَّا أن يكتب تقريرًا ملفقًا يتهم فيهِ الأبرياءَ الأمناءَ والصادقين الغافلين فتنال عليهِ الدنانير ويطلع في صدرهِ قمر الوسام بازغًا وتخاطبهُ الدولة بالفضيلة والسعادة . ولا يلبث أهل بلد يرون في هذا مورد ثروتهم وجاههم أن يزدحموا عليهِ وينسلوا من كل حدب إليهِ فإذا انتشر وباؤُهُ فيهم أمات الفضائل وأحيا الرذائل وأضحك الأعداء وأبكى الأولياءَ وأفقر الصادقين وأغنى المنافقين وألقى العداوة والبغضاء بين الراعي ورعيتهِ فانحاز الراعي إلى الاعتصام منهم والبعد عنهم وترك الرعيَّة في البكاء من عملهِ فلا يستريح ولا يستريحون . وإذا أوجس الوالد خيفة من أولادهِ فالحياة مُرَّة والعاقبة أدهى وأمرّ . ولهذا أحرق دهاة الملوك أوراق السعايات والوشايات الواصلة إليهم قبل الاطلاع عليها فسلّوا بحكمتهم وقوة نفوسهم الأضغان والأحقاد من القلوب وملؤُوها بمحبتهم وبالإذعان لهم بعلو الهمم وسموّ المدارك وعاشوا بهذا مع رعاياهم تحت ظل الأمن

والأمان والمحبة والإحسان وتفادوا بهِ أرق الليل وقلق النهار . وممَّا يذكر من هذا القبيل أن محمد علي باشا أرسل إلى الأستانة مملوكًا من مماليكهِ اسمهُ عبد اللطيف بمأموريَّة فاستهواهُ رجال الدولة كما هي عادتهم في استجلاب من تقع أيديهم عليهِ من الحاشية المصريَّة واتفقوا مع عبد اللطيف هذا بعد الإحسان عليهِ برتبة سامية أنهُ عند رجوعهِ إلى مصر يجتهد في تشكيل جمعيَّة تقاوم مُحمَّد علي ، فلما جاءَ عبد اللطيف باشا إلى مصر فعل ما أمروهُ بهِ فبلغ محمد بك لاظاوغلي تشكيل تلك الجمعيَّة فاستحضر عبد اللطيف باشا المذكور وأمر بقتلهِ فقال الرجل أُريد أن أقول لك كلمات في أذنك قبل قتلي فأبى وأمر بالإسراع في قتلهِ فاعترض عليهِ أحد أصحابهِ في امتناعهِ عن سماع ما كان يريد أن يسرهُ لهُ فقال محمد بك خشيت أن يرتاب من كان متفقًا معهُ فيقع الفشل بين الناس وأنا مكلف براحتهم . أما إذا أكرم الملك على الوشاية وأحسن على السعاية وقدّم على الأفك وأخر على الصدق وتبسم في وجه الدنيءِ وقطب في وجه الشريف فلا تلبث القلوب أن تفسد والخطوب أن تتفاقم . والقلوب إذا ملأَها الخوف والحقد لا يعالجها الإحسان والأنعام ولا يداويها التلطف والابتسام وربما زادها الإحسان مرضًا والابتسام مضضًا فيستعصى الداءُ وينتهي الأمر بانطواءِ مصالح الدولة العامة تحت مصلحة خاصة واحدة وهي محافظة لتلك على نفسهِ فتنحل عرى السلطنة حينئذٍ وتمتد الأيدي الأجنبيَّة من الخارج إليها وتعاونها القلوب من الداخل للانتقام والخلاص منها ويصبح من بيدهِ الأمر المطلق بين المتاعب والمخاوف تطالبهُ الرعيَّة برفع الأيدي الأجنبيَّة عن الملك وتأمرهُ نفسهُ بالمحافظة عليها خوف الفتنة وتكلفهُ الدول بإصلاح بلادهِ . ولما كان من المحالِ القيام بهذا العمل جميعهِ في آن واحد انحصرت القوى كلها في المحافظة على النفس .

وإذا أمعن المنتقد فيما كتبنا لا ينسبنا إلى المبالغة أن قلنا أن الحال في الأستانة قد وصل إلى هذا الحد وكاد يتخطاهُ .

قال يوسف رضا باشا لصديق لهُ أن جلالة السلطان قد تعوَّد أن يسمع مِنْ جواسيسهِ كل يوم خبرًا مقلقًا على نفسهِ فإذا مرَّ يوم ولم يأْتهِ فيهِ ما يقلق خاطرهُ على نفسهِ بقيام فتنة وتشكيل جمعيَّة ظن أنهُ وقع ما يخشاهُ وما أتاهُ خبرهُ فيبقى متكدرًا حَتَّى تكتب لهُ الجواسيس بشيءٍ مِنْ هذا القبيل فيشتغل بتحقيقهِ فإذا ظهر لهُ كذبهُ كغيرهِ من الأخبار السابقة سرّي عنهُ واستراح خاطرهُ . وإذا أخبر جلالتهُ أحدًا من خاصتهِ بأنهُ بلغهُ أن جماعة ينوون لذاتهِ شرًّا فإن كذَّب الرجل لجلالتهِ الخبر بالبراهين ليذهب عنهُ الكدر ارتاب فيهِ وظن أنهُ يحاول كتم الأمر لدخولهِ فيهِ . وقال جلالتهُ يومًا لأحد المقربين لسدتهِ السلطانيَّة شاكيًا من كثرة الأشغال لديهِ أنهُ وصل لمقامهِ الاسنى ثلاثة تقارير في مسافة نقض وضوءهِ .

ماذا يبقى من الزمن بعد ذلك للدولة وتشييدها والشريعة وتأْييدها والجنود وترتيبها والأحكام وتقويمها والماليَّة وتنظيمها والمعارف وتعميمها وعلائق الدول وتوثيقها والسياسة وتنسيقها والسفن وتعميرها والمنافع العامة وتكثيرها .

لا يبقى من الزمن إلَّا ما يكفي لسماع تقارير السادة المشايخ ودسّ بعضهم على بعض ليأْخذ زيد مكان عمرو وينال بكر منزلة خالد . ولو اشتغل الأساتذة الجهابذة في إقامة الحجة على الأوربيين في هذه الأيام بأن دين الإسلام ليس كما يزعمون بعيدًا عن التمدن والإصلاح بل هو عدل وإنصاف وحكمة وهديً لكان ذلك أَولى بقوم تكتب ألقاب أحدهم في ثلاثة أسطر فلا يصل القارئُ للاسم الأَبعد صفوف من الألقاب .

ولما علم الجواسيس أنهُ لا يؤخذ بيد العناية إلَّا التقارير الَّتي تختص بذات السلطان السنيَّة وتحققوا أن لا عقاب على الكاذب للقول المشهور بين رجال المابين « إذا عاقبنا الجواسيس على كذبهم ضاع منا الصدق فعليهم أن يكذبوا وعلينا أن ننتقد » أكثر الجواسيس من إلقاء الريب بين الراعي والرعيَّة وتفننوا في أفانين الفتن ونزلوا إلى طبقة دنيئة في التجسس حَتَّى أنك لتجد مأمورًا من ذوي الرتب واقفًا في زاوية من زوايا الوزارة الَّتي هو مأمور فيها مع جارية سوداءَ من اللاتي يبعنَ الحلواءَ فإذا كشفت نجْواهما علمت أن الجارية بإغرائهِ تدَّعي على رجل من العامة أنها سمعتهُ يحادث آخر على قصد جلالة السلطان بسوءٍ فيشتغل ناظم باشا ناظر الضبطيَّة الأيام والليالي لتحقيق هذا البهتان ويبعث بأوراق التحقيق متتابعة إلى السراي .

ولا يخطر بعاقل أن في الأستانة رجلًا واحدًا يحدث نفسهُ بهذه الخيانة لجلالتهِ الَّتي يعدُّها فوق الكفر ولكن الجواسيس يعلمون الناس الفتنة ويجرُّونهم إلى الهلاك ويوقعونهم ولا ذنب لهم في سخط جلالتهِ وغضبهِ ولهذا قطع جلالتهُ عادة آبائهِ وأجدادهِ في تأدية صلاة الجمعة في مساجد الأستانة . وكان لهُ عادة أن يصلي في بعض الجمع في تكيَّة بناها بقرب السراي للشيخ محمد ظافر فحسدهُ حاسد ــ ولا تستبعد وجود الحاسد لمكان هذه النعمة العظيمة ـ فجاءَ البراق من أقصى بلاد البلغار يحمل خبرًا فظيعًا وهو أنهُ قد وضعت الديناميت في أرض التكيَّة فقامت لقيامة في بشكطاش وحُفرت أرض التكية ونقض بعض بنائها ولم يظهر شيءٌ من هذا ولكن قرَّت الشبهة في النفس فترك جلالتهُ الصلاة فيها واختص المسجد الحميدي بهذه المزيَّة الجليلة دون سواهُ . كيف يستريح الملك مع

حاشية هذا حالها وهذا كيدها فمها ابتسام وقلبها انتقام . وهم يشبهون بعضهم بعضًا بالمئذنة ظاهرها مستقيم وباطنها ملتف معوجّ .

كان للجواسيس دائرة في السراي يجلس فيها (سر خفيَّة) أي رئيس الجواسيس وهو أحمد باشا الجركسي فلم يسلم من شرهم لأنهم اتهموهُ بعزمهِ على تشكيل سلطنة جركسيَّة فجرى عليهِ حكم الاستنطاق بأبوابهِ وانتهى الأمر بنفيهِ إلى حلب مع براءتهِ وصداقتهِ لوليّ نعمتهِ . وقام مكانهُ في هذه الوظيفة قدري بك كاتبهُ ولما عم الأمر وصار كل فرد في السراي (سر خفيَّة) أُلغيت الوظيفة الخاصة للوظيفة العامة . ولفظة خفيَّة بمعنى الجاسوس قد زالت عنها في الأستانة وصمة العيب وصارت ممَّا يفتخر بهِ . قالت إحدى السيدات الأميرات لأحد وكلاءِ الدولة بلغني أنك خفية يا باشا ـ منكرةً عليهِ ـ فقال وماذا يعلق بي من هذا إلَّا الشرف والافتخار فكلنا جواسيس لجلالة مولانا .

والجواسيس قسمان قسم من أكابر الدولة يتلقى اللقب العالي للشرف والفخر وقسم بالمرتبات الشهريَّة . وممَّا يحكي من نوادرهم أن تركة شهر مبيعها فحضر فريق عسكري ليشتري منها ما يعجبهُ فأعجبهُ جملة من الكراسي فاشترى منها خمسة وثلاثين كرسيًّا . فكتب الجاسوس تقريرًا في الحال يقول فيهِ إن فلانًا الفريق قد حضر إلى التركة الفلانيَّة واشترى منها خمسة وثلاثين كرسيًّا . ولولا أنهُ على عزم أن يعقد جمعيَّة ما اشترى هذا العدد الكثير من الكراسي . فصدر الأمر بعزل الفريق .

ألَّف حسن فهمي باشا كتابًا في حقوق الدول أعجب بهِ العارفون واستحسنهُ الواقفون عليها وطبع الكتاب وانتشر في سائر الأقطار وقرأهُ المؤلف بنفسهِ مرارًا على طلبة مكتب الحقوق وقدَّم منهُ نسخة لجلالة

السلطان لتوضع في المكتبة السلطانيَّة وتكلمت الجرائد التركيَّة والإفرنجية والعربيَّة عنهُ ورسمت نظارة المعارف درسهُ في مكتب الحقوق مع بقيَّة الكتب الَّتي اختارتها للدرس فيهِ فقام جاسوس من تلك النظارة يدعو بالويل على حسن فهمي باشا ويتهمهُ بالخيانة والغش لذات السلطان لوضعهِ جملة عظيمة الضرر غزيرة الشر سيئة العاقبة كبيرة الإثم في كتابهِ « حقوق الدول » قصد بها قيام الحجة على السلطان بتداخل الأجانب في داخليَّة الممالك محروسة المسالك . ومضمون تلك الجملة أنهُ إذا اختلت داخليَّة دولة مِن الدول فيكون للدولة المجاورة للخلل الحق في طلب الإصلاح . وكتب الجاسوس تقريرًا لجلالة السلطان بهذا فجاءَهُ الطلب إلى السراي وقوبل بالإحسان والألطاف وصدرت الإرادة السنيَّة في الحال بجمع الكتاب وإحراقهِ وأن لا يذكر في مكتب الحقوق اسمهُ وأن يرسل كتاب توبيخ إلى حسن فهمي باشا على ما كتب وبالإحسان على الجاسوس بالرتبة الأولى من الصنف الأول وبمائة وخمسين ليرة . . وقد قال الجاسوس بعد خروجهِ من المابين لصاحبٍ : عليَّ بعدُ تقريران لرتبة الوزارة .

يا كساد العلم ورواج الجهل ويا شقاءَ الحق وسعادة الباطل ويا خيبة الصادق ونجح المنافق ويا بكاءَ الأمين وضحك الخائن . أصبحت دار السلطنة الَّتي كانت عرينًا للأسود خلايا تطنّ فيها زنابير الجواسيس وأصبح العالِم من شر الجهلاءِ يوبخ على قواعد العلم يكتبها في تأليفهِ وأصبح الجاسوس بظلم العلماءِ يمشي مرحًا ويختال تكبرًا . كيف يستريح القلب في بلد يتناقل الجواسيس فيهِ خبر هذا الإحسان الذي يمحو من الجمهور كل فضيلة ويعديهم جميعًا بداءِ التجسس . ولهذا لا تلتفت ماشيًا أو قاعدًا أو راكبًا إلَّا وترى جاسوسًا يكتب أو يطوي كتابهُ أو يركب

مركبة إلى المابين . وقد تعوَّد صبيان القهاوي أن يقدموا للداخل المجمرة والمحبرة فيحرق الجاسوس بالأُولى الدخان وبالثانية الإنستان .

ويرسل الجواسيس بتقاريرهم إلى المابين فمنهم من يرسل تقريرهُ مختوم الظرف بخاتمهِ ولا عنوان عليهِ لأحد الحجاب فيصل في الحال إلى جلالة السلطان وهذا قاصر على الكبراءِ من رجال الدولة أو الجواسيس المحلفّين وباقي الجواسيس يعطون تقاريرهم مفتوحة لأصحابهم من رجال المابين وهم يضعونها في الظروف ويختمونها بأختامها بلا عنوان ويسلمونها لبعض الحجاب لإيصالها إلى يد جلالة السلطان فإذا تأَخر جاسوس عن تقديم شيءٍ لصاحبهِ في المابين لامهُ على إهمالهِ أو اتهمهُ بأنهُ اختار غيرهُ لتقديم تقاريرهِ . فلأجل أن ينفي عن نفسهِ الأول ويتبرأَ من الثاني يصبُّ البلاءَ على الأبرياءِ . والويل ثم الويل لمن يصادفهُ في الطريق من أصحابهِ فإن اسمهُ يكون قافية بيتهِ .

ومن الغرائب ما حكاهُ رجل كان يذهب لزيارة ناظر الضبطيَّة ناظم باشا في بيتهِ فدخل جاسوس عليهِ وأخبرهُ بأن فلانًا ـ وسمى رجلًا ـ عندهُ وليمة نكاح في هذه الليلة ـ كأَن الولائم من الجرائم ـ فلما أتم الجاسوس كلامهُ حَتَّى دخل شابان عليهما إشارة الكمال فقابلهما الناظر بالبشاشة . وبعد تناول القهوة قال أحدهما العاقبة عند أفندينا الناظر في أفراح أولادهِ . فقال ستة . (والرجل الزائر غير ملتفت لنادرة لم يسمعها أول مرة على كرة الأرض غيرهُ ولم يحضرها سواهُ كأَنهُ يرى أنهما يطلبان عددًا من البوليس لإظهار الشأْن والأبهة) . فقال أحدهما لا يكفي يا أفندينا هذا العدد . قال الناظر ثمانية . فقام الثاني ووقف أمامهُ أذلّ مِنْ مؤَلف يطلب من المعارف إذنًا بطبع كتابهِ ـ فقال يا وليّ النعم إن أهلنا أكثر من هذا العدد . (فلما سمع

الرجل الزائر الجملة الأخيرة تنبه للنادرة وصارت أعضاؤُهُ كلها آذانًا) . قال الناظر عشرة . ثم قال يا بوليس اذهب معهما ولا يدخل الوليمة إلَّا هذا العدد المقرر . فخرجا والمأتم أولى بحالهما من الفرح . ثم التفت الرجل الزائر إلى الناظر يكلمهُ بعينهِ وسنهِ فضحك الناظر وقال ما قصدت والله إلَّا خيرهم . أنا الذي وضعت هذه القاعدة والآن يجري العمل عليها في الأستانة جميعها لا يولم أحدٌ وليمة إلَّا بعد التماس الاذن الضبطيَّة بعدد المجتمعين فيها وما أردت بهذا إلَّا التخفيف عليَّ وعليهم والتضييق على الجواسيس أن يجدوا مجالًا واسعًا لاختراع الأباطيل وتلفيق الأكاذيب فاحفظ وقتي لما فوق رأسي من الاشغال ويستريح الناس من العذاب والاستنطاق والحبس والإطلاق . وشرع يشكو ما يقاسيهِ في هذه المأموريَّة من المتاعب والمشاق الَّتي لا تطاق . وقال أنهُ يوقظ في الساعات القليلة الَّتي يختلسها لنومهِ سبع مرات أو ثماني في كل ليلة لتلقي الإرادات السنيَّة في أشغال جلالة السلطان الخصوصية الَّتي يقلق بها الجواسيس خاطرهُ الشريف . وقد نظر الشهاب الخفاجي إليهم من وراءِ ستر الغيب فقال : « إن الأستانة طبق من الفضة مملوءٌ من العقارب والأفاعي » .

ومن غرائب النوادر أن رجلًا من أهل سلانيك اسمهُ عبد الله أفندي كان جالسًا على قهوة وكان يمدح رجلًا من العلماءِ ويصفهُ بالتقى والعلم ولما أراد الخروج من القهوة وجد رجال البوليس ينتظرونهُ فأخذوهُ إلى يلديز ولما دخل وجد مأْمور الاستنطاق ينتظرهُ فأخذ يسألهُ عن معرفتهِ بهذا الرجل الذي كان يمدحهُ ولمَ مدحهُ . فأخبرهُ أنهُ كان جارًا لهم ولوالدهِ بهِ معرفة قديمة . ولما كان في حجرات الاستنطاق مواضع يشرف فيها جلالة السلطان أحيانًا ليباشر بنفسهِ سير التحقيق حيث يرى منها ولا يُرى كان

مأمور الاستنطاق يخرج من الحجرة ويغيب هنيهةً ثم يعود فيسألهُ أسئلة فوق قدرهِ كأن يقول لهُ . هل تعرف علاقة خفيَّة بين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . فيجيب الرجل بالسلب . وقد بقي حائرًا في أمرهِ لا يجد جوابًا فيما يسأل عنهُ من هذا القبيل ثم أدخلوهُ مطمورةً مظلمة كان للمسكين فيها شهيق وزفير وعذاب مستطير ويوم قمطرير . وبعد ثمانية أيام بعثوهُ إلى الضبطيَّة فأدخلوهُ إلى مجلس فيها .

وهذا المجلس ينظر في الأمور الخاصة الَّتي تتعلق بالسراي فأجلسوه وبعد سؤَالِهِ عن اسمهِ صدر هذا القرار العجيب بهذه الصورة وهذا النص « مِن حيث أن عبد الله أفندي السلانيكلي ارتكب جناية مِنْ أعظم الجنايات فقد تقرر باتحاد الآراءِ سجنهُ من غير تحديد مدة مع عدم الاختلاط بأحد» .

ثم أمضى الأعضاءُ والرئيس وأمروا بهِ إلى الحبس . فدخل سجّينًا لا سجنًا ورتبوا لهُ شيئًا من الخبز والماءِ يقدمهُ لهُ السجان في أوقات غير منتظمة . فأراد أن يشتري يومًا نوعًا من الطعام لم يكن موجودًا عند البقال في السجن . فقال لهُ السجان لا يمكن أن يدخل إلى السجن شيءٌ من الخارج لأن البقال اشترى من الضبطيَّة هذه الدكان بمائتين وثمانين ليرة في السنة فهو يحتكر البيع هنا . وبعد أربعة أشهر أمر الضابط بإطلاقه من السجن فخرج المسكين أشعث أغبر كإنسان الغابة لا يعرفهُ من يراهُ . وبعد مدة علم أن للرجل الذي كان يمدحهُ قرابة بإمام وليّ العهد رشاد الدين أفندي . فما يدريك ماذا كتب الجاسوس وماذا رتب على هذا .

وقد أخرج الجواسيس طائفة الأرمن في الأستانة وأخرجوهم إلى ما نرى ونسمع وأفرطوا في التضييق والمراقبة عليهم بما لا يدخل تحت تعريف فإن وجد جاسوس على غلاف أوراق السجارة أو على علب الكبريت رسمًا

يشبهُ شراعًا أو مجذافًا أو دفة أو شيئًا من أجزاءِ السفينة أخذ الرسم وكتب تقريرًا معهُ يتهم فيهِ الأرمن بطلب الاستقلال [1] لأن الأرمن هم الذين يشتغلون في هذه التجارة وأن هذا الرسم يشير إلى السفينة الَّتي هي علامة الملك عندهم . فيجمع في الحال ما وجد الرسم عليهِ إلى الحريق ويأخذ ناظر

(١) الأرمن : كانت المسألة الأرمنية من القضايا الشائكة في تاريخ الدولة العثمانية وعلى وجه الخصوص في عهد السلطان عبد الحميد ، وأصل المشكلة أن قبائل كردية كانت أرمنية الأصل دخلت الإسلام ، مثل قبيلة (ماميقون) و « بكران » و « ريشقون » وكانت هذه القبائل التي اعتنقت الإسلام محتقرة عند الأرمن المسيحيين ، وازداد الكره بين الطائفة الإسلامية (التي أصلها أرمني) والطائفة الأرمنية النصرانية فاحتكم الطرفان إلى السلاح . وقد طالب الأرمن المسيحيون بالاستقلال الذاتي ، وكونوا جمعيات سرية مثل جمعية « ارمناقان » في مدينة « وان » سنة ١٨٨٠ وجمعية « خنجاق » سنة ١٨٨٥ في باريس وجمعية « طروشا غيان » في جنيف ، وأصدروا الصحف التي تطالب بالاستقلال مثل صحيفة « هنتشك » الأرمنية التي كانت تمدها إنجلترا بالمال ، وقد قام الأرمن بهجمات في استانبول ، وحاول أرمني أن يقتل السلطان ، واعتدوا على قرية تركية ، وقد أرسل السلطان عبد الحميد قوات الجيش للقضاء على التمرد الأرمني ، ويتحدث التاريخ عن مذابح عام ١٨٩٤ التي راح ضحيتها كثير من الأرمن ، ويذهب السلطان عبد الحميد إلى أن الروس وراء تمرد الأرمن : وقد كان للدول الأخرى مثل إنجلترا مصلحة في العراك الدائر بين الأرمن والمسلمين ، فإن هذا يتيح لها فرصة التدخل في شؤون الدولة العلية بحجة حماية الأقليات ، وقد بين الفيكونت دي كورسو ـ دسائس الإنجليز في مسألة الأرمن . ولم تكن الدولة العثمانية في عهد عبد الحميد تسمح بإقامة دولة « أرمينيا » أو « أرمنستان » حتى لا تطالب بقية البلدان والأجناس والطوائف بالاستقلال أسوة بالأرمن . وحتى هذه اللحظة يحقد الأرمن على الأتراك ، ويقومون بأعمال فدائية يقتلون فيها قناصل وسفراء تركيا انتقاما لمذابح الأرمن القديمة .

انظر كتاب « المعلوم والمجهول » لولي الدين يكن .

وكتاب « المسألة الشرقية » لمصطفى كامل . (ط)

الضبطيّة في التحقيق والاستنطاق والبحث على الجمعيَّة الَّتي تشكلت لطلب الاستقلال . وتنتشر الجواسيس لاستكشاف أعضائها فيحبس الضابط وينفي منهم على موجب ما ترد لهُ بهِ الإرادات السنيَّة . وقد ضيقت الحكومة على الأرمن في السفر تضييقًا سد عليهم منافذ الهرب فلا تقوم سفينة من الأستانة إلَّا ويراقبها لدقيقة قيامها عشرة من الجواسيس.

والحكومة إذا غلب عليها الجبن وأحاط بها الخوف وتولى الأدنياءُ أمورها وساس الأغبياءُ جمهورها وانتشر في جسمها ميكروب الجواسيس فبشر حكامها بالخراب القريب والدمار الوشيك.

ومن مخزيات الزمان ومسوّدات وجه العصر ما أصاب الأمن العام في قاعدة السلطنة وعاصمة الدولة ومقرّ الإمامة من إطلاق ذئاب الجواسيس الطلس على حملان الرعيَّة النائمة في حظيرة الخلافة الإسلاميَّة . فإن الجاسوس يسرق ويسلب ويختلس وينهب ويزوّر ويهتك الأعراض ويشهر السلاح ويطلق الرصاص على العاجزين الضعفاءِ من رعيَّة السلطان ثم تحكم المحاكم بدرجاتها عليهِ حتى إذا لم يبقَ إلَّا تنفيذ الحكم جاءَهُ العفو باسمًا فيجعل مضبطة الحكم تحت قدمهِ ويأْمن عاقبة العقاب في جميع ما يفعلِ كما وقع لجاسوس حسن فهمي باشا المتقدم ذكرهُ فإنهُ أطلق الرصاص في بيتهِ على صهرهِ وتقدمت الدعوى إلى المحاكم على حسب العادة وكتبت الجرائد تفصيل تلك الواقعة الشنيعة وحكمت المجالس عليه بالعقاب المقرر لجنايتهِ فأَدركه العفو قبل التنفيذ . فسكر بنشوتهِ ورجع يحمل على الناس بعربدتهِ . فليبكِ على العدل الباكون وليضحك علينا معشر العثمانيين الضاحكون .

وكما حصل لجاسوس آخر من المحلفين اسمهُ محمد مهري من أعضاءِ شهر أمانت (المجلس البلدي) فإنهُ كان مديونًا لرجل استخدمهُ كاتبًا في دكانهِ قبل أن ترفعهُ الحظوة إلى مقام التجسس ولما مات الرجل ادعى بصك زوَّرهُ عليهِ بألف ليرة وطلب المبلغ من تركتهِ فتقدمت الدعوى إلى المحاكم وظهر تزوير الصك بادئَ بدءٍ وأمرت المحكمة بحبسهِ احتياطًا فحبس أشهرًا ثم حكمت جميع المحاكم عليهِ مع محكمة التمييز بدفع ما عليهِ للورثة الأيتام وبحبسهِ ثلاث سنوات على ارتكاب التزوير . وبينا الضبطيَّة تطلبهُ لتنفيذ الحكم عليهِ جاءَ العفو لهُ طائرًا بجناح النجح . فما أطول استهزاءَهُ بعد ذلك بالمحاكم والقوانين وما أسرع بطشهُ بالضعفاءِ والمساكين .

قل لي أيها القارئُ أي حامل في هذا البلد الأمين لا تتعب الكرام الكاتبين دعاءَ وابتهالاً ليلًا ونهارًا عشاءً وأبكارًا أن تلد جاسوسًا . وأيّ أب لا يتمنى أن ينجب لهُ ابن في هذه الصناعة لو أمن أن يسلم من شرهِ فيها . لأن كثيرًا من الأبناء في دار السعادة يسعون بآبائهم . ولولا خوف التطويل وملل القارئِ لذكرناهم بأسمائهم .

وهكذا يسمع كل يوم بجناية يمحوها العفو وتهمة باطلة يعقبها العقاب . ولقد تقدمت على جاسوس دعوى إلى محكمة الاستئناف فارتفعت أصوات الأعضاء بالخلاف في توقي مدة الجزاءِ فقال لهم الرئيس خفضوا على أنفسكم لا تضيعوا الوقت بالخلف في دعوى مصيرها إلى العفو .

ومن الغريب أن بعض الدهاة من المشايخ وغيرهم ممن وقفوا على الحقائق وخفايا الأمور اللدنيَّة يستكتبون الجواسيس بالوسائط الغامضة والمكر الأخرس تقارير على ذواتهم مشحونة بالتهم الفظيعة والمفاسد

الشنيعة والجرائم القتالة فإذا وصلت إلى جلالة السلطان وأمر باستنطاقهم خرجوا من منافذ التخلص الَّتي فتحوها لأنفسهم في تلك التقارير المصنعة خروج السهم من الرميَّة فينالون الزلفى والنعمى ببراءتهم ويتركون أثرًا في نفس جلالة السلطان بتكرار تلك التقارير المتابعة يدل على قدرتهم على الشرور والمفاسد وإيقاظ الفتن العظيمة بنفوذهم وعصبيَّاتهم . وبهذا بلغ بعضهم ما ليس بعدهُ درجة في الترقي والقرب وبنوا بيوت مجدهم على هذا الأساس وأمنوا على أنفسهم بهذه الأوهام وزادوا فخوّفوا بها وتربعوا في دسوتهم غير مبالين بتقرير يكتب أو رسالة تطبع فإن عُرض على جلالة السلطان حقيقة من حقائقهم صاحوا واعولوا واستدلوا على براءتهم بالتقارير المواضي الَّتي بيَّن التحقيق فسادها .

ومِنْ الغرائب أن بعضهم يعرض سيئات نفسهِ وذنوب ذاتهِ في قالب يغفل عنهُ الشيطان ويعجز عنهُ الإنسان فيستخرج من الشر خيرًا ومن الشرى شهدا بقوة دهائهِ وشديد محالهِ وربما أصاب برمية أغراضًا عديدة . فمن ذلك أن يوسف رضا باشا كان يشرب ليلة مع رجل من الجواسيس يبغضهُ لحزازات عليهِ في صدرهِ فأراد الانتقام منهُ فانتقد الباشا على جلالة السلطان بعض الأمور واستوثق من الرجل بدهائهِ ومكرهِ أن لا يحكي شيئًا . وفي الصباح ذهب الباشا إلى السراي يستغفر جلالة السلطان نادمًا على ما وقع منهُ في حالة الذهول وغيبوبة الحس بمحضر فلان وذكر اسم الرجل الذي انتقد أمامهُ . فنال العفو وحسن الرضا بإخلاصهِ واعترافهِ على نفسهِ بالذنب من غير واشٍ وبلغ من عدوهِ الجاسوس اربهُ بغضب جلالة السلطان عليهِ لسكوتهِ عن تبليغ ما سمع . ونال إدخال السرور على ذات السلطان بان جلالتهُ قد ضبط الأمور بالحكمة والحزم وملك الألسنة

وأخاف القلوب وأقام منها عليها رقباءَ حَتَّى صار المخطئُ أو المذنب يسبق بالاعتراف على نفسهِ قبل الوشاة لتخفيف العقاب عليهِ .

اللهم ليس في قدرة الرعيَّة إلَّا أن تمد أيديها للاستغاثة برحمتك أن تبعد عن جلالة السلطان الذي بيدهِ خيرها وشرها هؤُلاء الأشرار الذين لو اجتمع منهم عشرة على أنظم سلطنة في العالم لخربوها في بضعة أيام .

ومن الجواسيس طائفة وظيفتها أن تلازم من تؤْمر بملازمتهِ لمراقبتهِ ملازمة الظل فعلى شيخ الإسلام أربعة منهم لا يفارقونهُ حَتَّى يدخل الحرم فإذا دخل الحرم راقبةُ المكلفات بهِ من جواسيس النساء . فلهذا تراهُ على صغر سنهِ وشرخ شبابهِ أصفر اللون ضئيل الجسم لا يكاد يقاوم النسيم لضعفهِ . وكذلك الصدر الأعظم لا يتحرك حركة ولا ينطق بكلمة إلَّا أحصاها كتاب رقبائهِ .

ومن هؤُلاءِ الجواسيس من يلازم مركبات أعضاء السلطنة (الشاه زادات) فيركب الواحد منهم حصانًا وراءَ المركبة على مسافة خمسين خطوة وقد كانوا يلتصقون بالمركبات ويزاحمون الخدم الراكبين وراءَها قبل أن يضرب أحد الشاه زادات واحدًا منهم على تهجمهِ وإقدامهِ . فأُمروا أن يبعدوا هذه المسافة . وهناك فريق عسكري اسمهُ إسماعيل باشا وظيفتهُ الَّتي نال بها هذه الرتب العسكريَّة في أقرب زمان هي أن ينزوي وراءَ الأشجار ويختفي خلف الجدران في الطريق الَّتي يمرّ فيها وليّ العهد رشاد الدين أفندي [(١)] فيكتب كل ليلة تقريرًا ويقدمهُ إلى الحاج محمود أفندي مدير

(١) رشاد الدين أفندي : هو ولي العهد زمن السلطان عبد الحميد ، وهو السلطان محمد رشاد الخامس ، ابن السلطان عبد المجيد ، وشقيق السلطان عبد الحميد ، تولي السلطنة بعد لانقلاب العثماني سنة ١٩٠٩ واستمر في الحكم حتى عام ١٩١٨ وقد قال =

التشريفات الهمايونيَّة يذكر فيهِ أن ولي العهد كان في المنتزه هذا اليوم مقطب الوجه عابسًا ولما جاءَ إلى الموضع الفلاني التفت وأطال الالتفات ولما مرَّ من المكان الفلاني أخرج رأسهُ من نافذة المركبة وكان في الطريق رجلان شاهدهما مرتين في أيام متقاربة في مكان واحد من الطريق . فتقوم القيامة للبحث عنهما فكم من مظلوم يؤْخذوكم من بريءٍ يتهم عند البحث عن الشخصين الموهومين فإذا وصفهما الفريق مثلًا بأن أحدهما كان أسمر اللون والآخر مقرون الحاجبين أو ضيق العينين أو أحمر الوجه وقع البلاءُ على من يمشي في تلك الطريق بهذه الصفات . ولما كان الاستنطاق يتخللهُ اختلاف في القول لما يلحق البريءُ المتهم من الخوف والاندهاش ولما يحسب حسابهُ المستنطق من تعلق الشبهة أو التهمة بهِ أو نسبة العجز إليهِ وسلب المهارة عنهُ إن لم يثبت شيئًا ذهب كثير من الناس في طريق القارظين .

تقابل الشيخ محمد ظافر في يوم من أيام المواسم في مضيق من الطريق بمركبة وليّ عهد السلطنة فسلم الأمير عليهِ فجمد دم الشيخ وتعطلت إرادتهُ . ولما أفاق ذهب إلى جلالة السلطان ليقص عليهِ القصة فوجد الجاسوس قد سبقهُ إليهِ ووجدهُ عالمًا بالخبر . وعندما وقعت التهمة على

=حافظ إبراهيم فيه :

حي عهد الرشاد يا شرق وأبلغ	ما تمنيت من زمان بعيد
قد تولى (محمد الخامس) الملـ	ـك فأعظم بتاجه المعقود
علم الله أن عهد رشاد	خير فأل بـرد عهد الرشيد

وهو مدح أجوف وتحية في غير موضعها إذ كان الرجل لا حول له ولا طول لأن مقاليد الأمور كانت في يد الاتحاديين أو « الجون ترك » من أمثال طلعت باشا الصدر الأعظم ، وأنور باشا ، وزير الحربية ، ونيازي باشا وغيرهم ، وفي عهده احتلت إيطاليا طرابلس الغرب أو ليبيا ، وقامت الحرب العالمية الأولى التي كانت تركيا طرفا خاسرا فيها .(ط)

حسن أغا المعين من المابين رئيسًا على الخدمة في تكيَّة الشيخ ظافر بأن لهُ اتصالًا بوليّ العهد لم يسلم الشيخ من الشبهة بذلك السلام الذي بينهُ وبين هذه الحادثة سنون وأعوام .

فإذا كان وليّ عهد الخلافة والسلطنة بهذه الحالة من التشديد والتضييق عليهِ والاشتباه فيهِ والخوف منهُ وإبعاد الناس عنهُ ونفي الواصلين إليهِ كيف يَكون حالهُ مع الأمة وكيف يكون حال الأمة معهُ إذا صار في ساعة واحدة ساطانًا عليها . لا ترى منهُ الأمة إلَّا قلبًا نفورًا ملأَتهُ الحفيظة ببغض الناس ولهُ العذر في هذا ممَّا قاساهُ من التضييق والهوان .

وهذا الأمر هو أعظم مصائب الأمة ومن العجيب أن الناس لا يتنبهون للتفكر في هذا الخطب الفادح ولا يقفون عندهُ وقفة المتدبر وشقاؤُهم وسعادتهم متوقفان في المستقبل عليهِ لأن الخلود محال . ولو نظر العثماني إلى ملوك أوربا وما يعاملون بهِ ولاة عهودهم من الإطلاق والحريَّة وممارسة الأمور والسياحة في البلاد ومخالطة أرباب السياسة لبكى على حالهِ ولعلم أن للسلطنة في بلادهِ معنى غير الذي يعلمهُ الناس في البلاد الأخرى وهو أن السلطنة ارث ورثهُ السلطان ليفضي بهِ حياتهُ في لذة ونعيم وتقضي الأمة مدتها معهُ في شقاءٍ وجحيم .

يا ملوك البلاد فزتم بنسءِ الـ	عمر والجور شأنكم في النَّساء [1]
غرض القوم متعة [2] لا يرقّـ	ـون لدمع الشمَّاءِ والخنساء



(١) النسءُ والنَّساءُ التأخير في الأجل وطول العمر . (المويلحي)

(٢) والمتعة التمتع . (المويلحي)

المقالة الثامنة

عيد الجلوس السلطاني

في مثل هذا اليوم من سنة ١٨٧٦ جلس على سرير السلطنة وعرش الخلافة جلالة السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني بارثهِ الشرعي عن آبائهِ وأجدادهِ غياث الأمم وغيوث الديم أعاد الله يوم هذا العيد الجليل على الأمة العثمانيَّة وعليهِ بالسعادة والإقبال والعز والإجلال . وهذا اليوم يوم الزينة في دار السعادة وعاصمة السلطنة ومقر الخلافة فيصير دجى ليلها بياضًا مما يظهرهُ سكانها من علائم السرور والابتهاج أمام الحكومة السنيَّة . وفيهِ تنشر الجرائد العثمانيَّة ما يخترعهُ ويدخرهُ أصحابها طول السنة من المعاني الشعريَّة وغرائب الإغراق وبدائع الغلوّ في حسن الأحوال ورغد عيش السكان ليسحروا بهِ عقول الرعيَّة ويدخلوا بهِ السرور على جلالة السلطان كأن يقولوا أن في هذه الليلة المقدسة مئتين وخمسين مليونًا من المسلمين فوق كرة الأرض يمدون أيديهم بالدعاءِ إلى السماءِ ليعيش جلالة السلطان على أريكة الملك إلى آخر الزمان . ولو اتصلت أيدي هؤُلاءِ العبيد بعضها فوق بعض لقطعت ألوف الفراسخ وأمسكت بالهلال وحينئذٍ تصير راية لهلال حقيقيَّة للسلطنة السنيَّة .

أما نحن فقد عزمنا أن نذكر الحقائق الخالصة من شوائب المبالغة والغلوّ عن السلطنة العثمانيَّة من ذاك اليوم إلى هذا اليوم ليعلم الراعي أنهُ فقد نصف سلطنتهِ ومعظم شأنها أمام أعين الأوربيين بخيانة الخائنين وغش

الغاشين ليتدارك أيدهُ الله الأمر في النصف الباقي الذي ابتدئَ فيهِ مِن مبادئِ الاضمحلال ما كان ابتدأ في ضياع النصف الأول ولنعلم الرعيَّة أن ما ملكتهُ الدولة بدماءِ آبائها وأجدادها ذهب رخيصًا بهوى شيخ أو جهل خصي فتقف مع جلالة السلطان بقلوب صادقة العزمات لتخليص الدولة من ورطتها ناسية ما مضى من الخطاء برجاء الخير فيما هو آتٍ .

كانت الدولة العثمانيَّة يوم جلوس جلالة السلطان على تختها من أجلّ الدول قدرًا وأعزها شأنًا وأبعدها صيتًا وأرفعها صوتًا وكانت قوة أساطيلها ـ الَّتي يسكت عنها الآن حياءً وخجلًا ـ بعد الدولة الفرنسويَّة في ترتيب قوى الدول البحريَّة وكان سكانها بإحصاءِ الجريدة العسكريَّة العثمانيَّة اثنين وأربعين مليونًا . فكان لها في أوربا عشرة ملايين وفي آسيا أربعة عشر مليونًا ونصف . وفي أفريقيا أحد عشر مليونًا ونصف . وكان لها رومانيا والصرب بستة ملايين . فضاع من أوربا البلغار وبوسنه وهرسك والجبل الأسود وتساليا بأربعة ملايين . وضاعت رومانيا والصرب بستة ملايين . وضاعت تونس من افريقيا وهذه مصر بملحقاتها بعشرة ملايين ونصف ولم يبق لها فيها إلَّا طرابلس الغرب بمليون واحد . وضاع من آسيا قبرص وقرص وباطوم واردهان بمليون واحد . فالنصف الضائع أكثر من النصف الباقي .

كان أول ما فتح القضاءُ عليها من صحيفة البؤس فتنة البلغار وما أحدثتهُ من المذابح كما وقع الآن ببلاد الأرمن فقامت الدول تطالب الدولة بإجراء الإصلاح كما تطلبهُ اليوم لبلاد الأرمن وحددت لها الإصلاح في فصول كما تحددهُ لها في المسألة الأرمنيَّة . فدفعت الدولة طلب الدول كما تدفعهُ اليوم بعزمها على نشر الإصلاح عمومًا في جميع ولايات السلطنة .

وعليهِ بادر جلالة السلطان بإصدار الفرمان العالي بتشكيل مجلس المبعوثان ونشر القانون الأساسي إلَّا أنهُ وجد أيدهُ الله من حاشيتهِ من يثبطهُ عن تنفيذهِ فجمع مدحت باشا جمعيَّة في الباب العالي من أعيان الأستانة واستشارهم في الجواب القطعي الذي يجب أن تعطيهُ الدولة للدول. فاتفقت تلك الجمعيَّة بأَجمعها أن يرفض طلبهنَّ بالمبادرة إلى إجراءِ الإصلاح العام بنشر القانون الأساسي وتشكيل مجلس المبعوثان الصادر بهما الفرمان العالي. وأراد مدحت باشا بهذا رفع التردد في تنفيذ الفرمان وإغلاق الباب في وجوه المثبطين. فاشمأزَّ جلالة السلطان منهُ لتعضدهِ بالأمة واعتمادهِ على الدول في تنفيذ أغراضهِ فأَمر بنفيهِ إلى أوربا قبل اجتماع المجلس ونشر القانون لعدم إمكان ذلك بعدهما. ومن هذا علمت الدول أن الأمور جارية على غير ظواهرها وأثبت لها نفي الرجل الساعي في الإصلاح ما تظنهُ من التلاعب بها فشددت في طلب الإصلاح للبلغار واشتدَّ الاضطراب في الأستانة وهاجت الأفكار وكثر القيل والقال. فرأى جلالة السلطان أن قبول الإعلان بالحرب مِنْ روسيا يصرف أفكار الأمة عن الاشتغال بهِ في الداخل. وبعد قبول الإعلان بالحرب علمت الدولة أنها غير مستعدة تمام الاستعداد لهذه الحرب الهائلة فأمر جلالتهُ بجمع مجلس المبعوثان لتلقي الدولة مسئولية الحرب على عاتقهِ وبالفعل أقر المجلس على قبول الإعلان بالحرب. ولما استحصلت الدولة منهُ على غرضها هذا أمرت بفضهِ في الحال. ثم أرادت الدولة أن تقلد دولة ألمانيا في حربها مع فرنسا حيث وضعت ألمانيا جميع التدابير الحربيَّة والحركات العسكريَّة في يد المارشال مولتك فصارت جميع الأوامر تصدر من يلديز بالحركات العسكريَّة في ميادين الوغى لقواد الجيش العثماني بمشاركة محمود

باشا الداماد وفات السراي أن الخريطات الَّتي كانت أمام مولتك لأراضي فرنسا كانت أضبط من خريطات الجيش الفرنساوي نفسهِ وأن خريطات الدولة كانت تشتري من الأسواق وأن محمود الداماد غير المارشال مولتك فكم من حركة أمرت فيها السراي بالتقدم وكان الخذلان الوحيّ فيهِ . وكم أمرت بالتأخر وكان في غير ما أمرت السداد والصواب . وقد سئل الغازي عثمان باشا بعد عدوتهِ من روسيا في مجلس الوكلاءِ عن سبب انحصارهِ في بليفنا وعدم خروجهِ منها مع إمكان الخروج قبل التضييق عليهِ فأخرج من جيبهِ تلغرافات تأمرهُ بعدم الخروج . وقد تجاسر بعض الوكلاءِ ولامهُ على فعلهِ وقال لهُ كان يجب عليك أن تقول يرى الشاهد ما لا يرى الغائب . فأجابهُ بأن العسكري يجب عليهِ الطاعة المطلقة للرئيس الأعلى . ويقال أن كثيرًا من هذه الحركات كان مبنيًا على التنجيم وضرب الرمال والأحلام حَتَّى أن بعض المشايخ كان يبشر جلالة السلطان بأسر امبراطور روسيا . وقد نصح بعض الصادقين جلالة السلطان أن يخرج بنفسهِ إلى أدرنه كما كان يفعل آباؤُهُ وأجدادهُ في الحروب وكما يفعل الروس فأبى الخروج وبعث محمود باشا الداماد مَكانهُ ولو كان خرج جلالتهُ لبعث في الجنود العثمانيَّة روح الغيرة وحب التفاني في نصر الدولة ولكن للقضاء حكمًا لا تغلبهُ النصائح والعزائم .

وقد قاست الجنود العثمانيَّة ما يفتت الأكباد ويذيب القلوب لعدم الاستعدادات الحربيَّة في مأكلها وملبسها وعلاج جروحها ودفن قتلاها . وكانت قد تشكلت جمعيَّة الهلال الأحمر لجمع المساعدات من أهل الخير فذهب من تونس الجنرال حسين باشا إلى مواقع الحرب بما قدمهُ من مالهِ وقدمهُ أهل تونس بترغيبهِ . ولما رجع إلى الأستانة وذهب إلى الساري أمر

جلالة السلطان سعيد باشا الصدر الأعظم الحالي وكان باشكاتب الحضرة السلطانيَّة أن يدعوهُ إلى مأدبة سلطانيَّة . فجلس عليها مع سعيد باشا وشرع يحكي على ما رآه وشاهدهُ من الضنك المحدق بالعساكر العثمانيَّة وعريها في الثلوج وجوعها وجروحها والدموع تسابق كلماتهِ على المائدة فقد كان الرجل متفانيًا في حب الدولة . ولما قام ليغسل يديهِ وجد الطست الذي قدموهُ لهُ من الذهب الابريز وجميع الآنية منهُ فأبى أن يغسل يديهِ فيهِ . وقال بعدما شاهدت ما عليهِ العساكر المسلمون الذين يدافعون عن الإسلام والدولة في مواقع الحرب لا أغسل يدي في بيت الخليفة في هذا الطست . فأمر جلالة السلطان لما سمع بكلامهِ أن يخرج في الحال من الأستانة فخرج وما قدر أن يعود إليها بقيَّة عمرهِ لأنهُ قال الحق .

ولما ضاق الأمر على الدولة وظهرت علامات الانكسار أرادت السراي أن تحمل أيضًا على عاتق المجلس المسأُوليَّة في طلب الصلح فأمرت بجمع المجلس . ولما اجتمع الأعضاءُ لم يتساهلوا تساهلهم في المرة الأولى بل أرادوا البحث والتدقيق عن الأسباب الَّتي نشأ عنها الانكسار وطلبوا حضور السرعسكر ليسألوهُ . ولما علم من حول جلالة السلطان بهذا الطلب قالوا لجلالتهِ هذه أول خطوة من المجلس في محو سلطتكم المقدسة فإذا تمَّ لأعضائهِ ما أرادوا طلبوا الصدر الأعظم غدًا ولا يبعد عليهم أن يتجاسروا بعدها على طلب ذاتكم المقدسة فأمر جلالة السلطان في الحال بطرد أعضاءِ المجلس ونفي المشاهير من رجالهِ .

ولما عظم الخطب وفدح الأمر وقرب الروس مِنْ دار السلطنة طلبت الدولة من الدول التوسط لصدهم فلم يجبنَ إلَّا انكلترا فإنها لبت الدعوة وأرسلت أسطولها في الحال إلى الدردنيل.

وفي هذهِ الأثناء كان الغراندوق الروسي وصل إلى سنستفانو . ولما علم بأن انكلترا أرسلت أسطولها سلَّم في عقد الصلح وتمت معاهدة سنستفانو وكانت شديدة الوطأة على الدولة . ولما بلغ الانكليز ما تضمنتهُ من الشروط المضرة بالدولة ألزمت الدول بعقد مؤتمر . فقبلت الدول إلَّا فرنسا فإنها اشترطت أن لا يصير الكلام فيهِ على مصر وسوريا وبيت المقدس . وهذا الذي نبَّه الانكليز أن يسبقوا إلى مصر .

ولما عقد المؤتمر في برلين بعثت الدول بصدورها ووزراءِ خارجياتها وأرسلت الدولة نائبًا عنها اسكندر قره تيودوري باشا والي كريت الآن وهو يوناني الأصل مع مشير عسكري فكانت منزلتهُ في المؤتمر دون منازل بقيَّة الأعضاءِ وصوتهُ أضعف الأصوات فيهِ لأنهُ لم يكن صدرًا ولا وكيلًا من وكلاءِ الدولة . وقد أخطأَت الدولة حيث لم ترسل أكبر رجل فيها لمؤتمر عُقد لأجلها كما فعلت حين أرسلت في مؤتمر باريس عالي باشا نائبًا عنها . وما أدراك ما عالي باشا .

ومن غريب ما وقع في المؤتمر أنهُ أعطي لدولة اليونان تساليا وأيبير وما كان لها عضو فيهِ ولا يد في الحرب . وقد قال في هذا بعض رجال الدولة « نحن أرسلنا قره تيودوري باشا نائبًا عنا وعن اليونان فأدَّى وظيفتهُ لنا ولليونان . ثم أعطى المؤتمر للجبل الأسود ميناءَ اسمها دولشينو . فتوقفت الدولة في تسليمها لهُ بعد انفضاض المؤتمر فاضطرت الدول أن تبعث أسطولًا لتسليم تلك الميناءِ للجبل الأسود . فسلمتها الدولة ولكن بعد حضور الأسطول . ومن هذا وأشباههِ لم يبقَ لكلام الدولة وقع في نفوس الدول ولا لتعهداتها اعتبار .

وكان لدولة الانكليز اليد البيضاءُ والهمة العلياءُ في صدّ الروس عن

الدخول في دار السلطنة ومقر الخلافة وفي تأييد التخت العثماني فيها بعد أن عزم جلالة السلطان على مغادرة الأستانة والرجوع إلى بورسه مقر تخت آل عثمان القديم ونقل خزائنهُ إلى الباخرة بالفعل . وكان لها الفضل في فسخ معاهدة سنستفانو الَّتي كانت الضربة القاضية على الدولة لو بقيت . وفي عقد المؤْتمر الذي تكفل بحفظ أملاك الدولة . ولا ينكر هذا إلَّا من سفه نفسهُ .

وانتهى المؤْتمرَ على استقلال الممالك الَّتي كانت تحت الدولة وانفصال بلادها عنها وكفالة الدول لها . وقد كان البرنس منرنيخ وزير النمسا المشهور بالسياسة نصح الدولة قبل مؤْتمر باريس أن تجتهد في إصلاح أمورها حَتَّى لا تحتاج إلى كفالة من الدول فإن للكفيل حق التداخل وهذا يضرُّ بها يومًا من الأيام وهو ما تقاسيهِ اليوم فصدق قولهُ بعد نصف قرن .

ثم انفض المؤْتمر بعد خراب البلاد وهلاك الرجال وضياع الأموال ووصول الروس إلى أسوار العاصمة واستغاثة الدولة بالدول وتحملها منَّة الإنكليز بإجابتها دونهنَّ ورجوع نائب السلطنة منهُ بنصف الدولة . كل هذا تسبب عن المحاولة في إجراء الإصلاح في ولاية من ولايات الدولة كما هو حاصل الآن فترتب على ذلك استقلالها واستقلال غيرها . ولا بدَّ للدولة الآن أن تقيس الحاضرَ على الماضي وأن تسرع بإجراءِ الإصلاح قبل أن يصير في نصفها الثاني ما صار في نصفها الأول وأن تنجو من عقد مؤْتمر آخر يأْتي عليها .

ثم إن جلالة السلطان بعد انفضاض المؤْتمر وبعد أن أصاب الدولة ما أصابها توجس خيفةً من كل عثمانيّ يصير صدرًا لانكشاف ما أعقبتهُ سياسة الدولة من الغلطات الظاهرة . فاختار أن يأْتي بصدر للدولة من الخارج

فوقع اختيارهُ على خير الدين باشا [1] فاستدعاهُ مِنْ تونس وكان الباي قد عزلهُ وغضب عليهِ ومنعهُ الاختلاط بالناس . فحضر إلى الأستانة . وتقلد منصب الصدارة العظمى واستحلفهُ جلالة السلطان على المصحف البخاري أن لا يدخل في مؤامرة على ذات السلطان وحلف لهُ جلالتهُ أنهُ لا يعز لهُ . فكان أول آماله الانتقام من الصادق بأي والي تونس فساعد على عزل إسماعيل باشا خديو مصر الأسبق وبعث لسيدهِ الباي يهددهُ أن تكون لهُ تلك العاقبة قريبًا . فأسرع الصادق باي بالالتجاءِ إلى الحكومة الفرنسويَّة ليأمن على نفسهِ من شرّ مملوكهِ الذي صار مالكًا ووجدت فرنسا الحماية على تونس وحصل جلالة السلطان على غرضهِ بنفي مدحت باشا ونوري باشا ورشدي باشا وشيخ الإسلام خير الله أفندي ومحمود باشا الداماد إلى الطائف .

(١) خير الدين باشا : مملوك شركسي تحرر عام ١٨٤٥ عندما أبطل الرقيق في تونس ، وقد أتيحت له فرصة التعليم ، فتخرج من المدرسة الحربية ، وتنقل بين أوربا والشرق ، وأتقن العربية والتركية والفرنسية ، وتقلد المناصب الكبيرة في تونس ، فكان وزيرا للحربية ، ورئيسا لمجلس الشورى على عهد الصادق باشا باي تونس ، وكتب فصولا سياسية في صحيفة الرائد التونسي التي صدرت عام ١٨٦١ في تونس ، وحدث خلاف بينه وبين الباي فترك تونس إلى الأستانة سنة ١٨٧٧ وبعد عام تولي الصدارة العظمى ، وبعد عام آخر تركها ، وعين عضوا في مجلس الأعيان العثماني حتى أدركته المنية عام ١٨٨٩ .

وفي الأستانة كان ينشر آراءه السياسية في جريدة « السلام » التي أنشأها جبرائيل عبد الله الدلال الحلبي سنة ١٨٧٩ وقد نظم الدلال شعرا في خير الدين يدل على عمق الصداقة بينهما . ومن مؤلفات خير الدين التونسي كتاب « أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك » الذي أودع فيه أفكارا سياسية استهدف منها إيقاظ المسلمين من غفلتهم ، والأخذ بالنظم الحديثة في الإصلاح ، ورأى أن كل ما في أوربا ليس فاسدا ، أو يتعارض مع الدين الإسلامي ، ومن عباراته السديدة « تقول لرجال الدين اعرفوا الدنيا ونقول لرجال السياسة اعرفوا الدين » .

انظر كتاب « تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي » لأنور الجندي وكتاب « تاريخ الصحافة العربية » لطرازي . (ط)

ومحمود الداماد هذا هو حسد السيد أبا الهدى على قربهِ من جلالة السلطان حَتَّى قال لجلالتهِ أنهُ لا يليق بعظمة السلطنة أن تدخل في أمورها السياسيَّة العظيمة (هذا العرب) . فكافأهُ الله على تحقير أمة منها سيد المرسلين أن نفاهُ السلطان إلى بلاد العرب فذلَّ بينهم وهلك فيهم . وهذه اللفظة طالما استعملها كبراءُ الأستانة في الشتم والسب وهم يعنون بالعرب الزنجيَّ أو الكلب الأسود . فمن ذلك أن طبيبًا من أطبَّاءِ الحضرة السلطانيَّة في رتبة الفريق كان اسمهُ عارف باشا كان في مجلس حافل وكان يخاصم شخصًا وينازعهُ حتى وصل إلى تهديدهِ فقال وهو محتدّ مغتاظٌ إن لم أفعل بك كيت وكيت أكن (عرب) » . ما كان ينبغي أن يلفظ بهذا أحدٌ في مقر خلافة الرسول العربيّ ولكن هذا يضاف إلى أمثالهِ من سوءِ الأحوال الَّتي نحن في ذكرها .

ثم حدث بعد ضياع تونس الفتنة العرابيَّة في مصر فأوصلتها سياسية الطمع إلى هذا الحال . لأن الدولة ظنت أنها وجدت فرصة يمكنها فيها بالدهاءِ السياسي أن تردّ على الدولة ما ميز السلطان محمود بهِ مصر فاتصلت المخابرة بين المشايخ وعرابي . وكان السيد أسعد قد جاءَ إلى مصر قادمًا من الحجاز فتقابل مع عرابي . ولما ذهب الأستانة مدحهُ لجلالة السلطان بأنهُ الرجل الذي يرجى منهُ الخير للدولة في مصر . وعلى هذا رفضت الدولة أن ترسل عساكرها إلى مصر لأن المشايخ عرضوا على جلالة السلطان بأن إرسال العساكر المسلمين لقتال إخوانهم المسلمين يضرُّ بمقام الخلافة سيما إمام مسلمي الهند الذين تتهيأ الدولة بواسطة المشايخ على استجلابهم لها في مستقبل الزمن . فبعث جلالة السلطان درويش باشا للمغفور لهُ الخديوي السابق والسيد أسعد لعرابي وكان لكل واحد منهما مخابرة مخصوصة مع جلالة السلطان بتلغرافات الأرقام . إلَّا أن السيد أسعد لم يجد من عرابي في المرة الثانية ما وجدهُ في المرة الأولى من الإكرام

لاعتمادِهِ على الشيخ ظافر. ولهذا كتب في البياننامة الَّتي تقدمت من الصدارة إلى المابين بطلب فرمان العصيان أن من جملة ما صدر من سيئات عرابي أنهُ يحقر آل البيت ولا يعتني بهم.

والخلاصة أن المسألة المصريَّة وقعت في أيدي المشايخ ويد بهرام أغا وكان الباب العالي لا يعلم منها إلَّا المخابرات الرسميَّة على حساب العادة الجارية. فلما أمر جلالة السلطان أن يعقد مجلس من رجال الدولة في المابين تحت رئاسة الصدر الأعظم سعيد باشا للنظر في المسألة المصريَّة قال أحد رجال الدولة للصدر كيف نتكلم في مسألة لا نعلم منها شيئًا لأن الدولة أمرت أن الجرائد لا تكتب عنها حرفًا واحدًا ومنعت دخول كل جريدة أجنبيَّة فيها ذكر مصر. قال له الصدر ما المسؤول بأعلم بها من السائل.

فهل تترك انكلترا مصر بعد أن سمعت أن فرنسا اشترطت عدم ذكرها في المؤتمر. هل تفوتها بعد أن علمت أن فرنسا استحصلت على سكوت الدولة عن تونس بتسليم مدحت باشا إليها. هل تأمن على مصر بعد أن رأت أنها وقعت تحت أيدي المشايخ. هل تقتنع بتركها بعد أن خلصت الدولة من مخالب روسيا.

ثم ابتدأ في هذه الأيام في النصف الثاني من السلطنة ما ابتدأ في النصف الأول منها طبق الأصل كما تراهُ في الأحوال الحاضرة وكما يظهر لك من مقالاتنا السابقة فلا نطيل عليك الكلام بإعادتهِ ولا ندري ما تأتي بهِ الأيام.

أعرضوا عن مدائح وتهانٍ   فالمراثي أولى بنا والتعازي

نسأل الله أن يوفق جلالة السلطان إلى خير الأمة والدولة ويبعد عنهُ الخائنين الغاشين بفضلهِ وكرمهِ آمين.



المقالة التاسعة

الجواسيس

من نوادر الوقائع أن رجلًا من طرابلس الشام اسمهُ عبد الحميد حضر إلى الأستانة ليحصل على وظيفة من وظائف العدليَّة في بلاد الدولة وكان لمنيف باشا معرفة بهِ فجاءَ إليهِ لعرض العبوديَّة (على اصطلاح أهل الأستانة) فقال لهُ الباشا متى جئت وفي أي مكان نزلت. قال الرجل جئت اليوم ونزلت في يلديز. قال لهُ الباشا كيف ذلك - وقد ظن أنهُ نزل في السراي السلطانيَّة - قال في نزل بقرب السَركجي اسمهُ يلديز (النجم). فوقف منيف باشا على رجلهِ وقال لهُ قم ولا تجلس هنا حتَّى تنتقل من هذا النزل إلى آخر. فوقف الرجل مبهوتًا لا يدري سبب هذا الأمر الحتم. فقال لهُ الباشا أنسيت أن اسمك عبد الحميد واسم هذا النزل يلديز فايَّ قارعة من قوارع الدهر وأي بائقة من بوائق الزمان تريد أن تصبَّ على رأسك ورأسنا. فكاد الرجل يصعق من هذا الاتفاق الذي لم يرزق التحرز منهُ وخرج يشتم أباهُ وأمهُ. ولما وصل إلى النزل وجد نفرًا من البوليس ينتظرونهُ - ولو كان هذا الأرصاد والاسراع في مصالح الجمهور لسبقنا غيرنا بمراحل - فأخذوهُ إلى الاستنطاق وما خلص من ضيق الخناق حتَّى خفَّ عقلهُ وجيبهُ معًا وبقي في الأستانة مدة ببركة هذا الاتفاق لا ينال وظيفة ولا يجد مساعدًا.

لا يعجب القارئُ إذا رأى أن منيف باشا ناظر المعارف الفاضل الحكيم

بذل في تلك الحادثة من العناية والاهتمام فوق ما تستحق . لأنهُ أُصيب من لفظة « يلديز » بشهاب ثاقب كاد يقضي عليهِ . وذلك أنهُ ألف كتابًا واتفق أن ورد في الكتاب ذكر الحباحب وهو حشرة يضيءُ ذنبها في الليل كالنجم فعبر عنهُ منيف باشا بحيوان يلديز (ومعنى يلديز النجم) فطار الجواسيس إلى السراي السلطانيَّة وقدموا التقارير السريَّة بأن منيف باشا يعرض بجلالة السلطان في قولهِ عن الحباحب « حيوان يلديز » على سبيل التورية فعزل الباشا في الحال وبقي في نحوسة نجمهِ خمس سنوات مغضوبًا عليهِ لهذه الكلمة الَّتي ما خطر ببالهِ غير معناها الحقيقي . ولكن الجواسيس أقدموا على حجب السلطنة يهتكونها بنقل هذه المفتريات ولو كان أمامهم عقاب لخافوا من الهجوم على عرش الخلافة وسرير السلطنة يقرعونهُ بهذه التأويلات الَّتي يرجع العقاب فيها على المؤوّل والمبلغ .

ومن العجائب قدرة بعضهم على قلب الحقائق فيجعل المجرم بريئًا والبريءَ مجرمًا بالكرامة أو الاستدراج أو بقوة السحر أو بالتنويم أو بما لا ندري . فمن ذلك أن جاسوسًا كتب إلى ناظر الضبطيَّه أن مصطفى رشدي أفندي مِنْ أعضاءِ مجلس المعارف عندهُ أوراق مضرَّة بالسلطنة والسلطان . فهجم ناظر الضبطيَّة بالبوليس على بيتهِ واخرج منهُ أحمالًا مِن الكتب والأوراق وأحضروا ترجمان الباب العالي لترجمتها في الحال فوجدها حمَّالة الجرائم والذنوب . فأمر بحبس مصطفى رشدي فاستشاط السيد أسعد غضبًا لأنهُ من شيعتهِ والمحسوبين عليهِ واشتكى لجلالة السلطان من ناظر الضبطيَّة ورماهُ بالطيش والعجلة . وكان ناظر الضبطيَّة في تلك الأثناءِ يبعث إلى جلالة السلطان ما يترجمهُ المترجم من تلك الأوراق ساعة بعد ساعة والسيد أسعد لا يعلم بما فيها . وقد تضمنت مِن الطعن على مقام

الخلافة وعلى جلالة السلطان ما لا يبلغهُ شيعيّ من الطعن والقدح في الوليد بن يزيد الأموي . وتضمنت أسرارًا وفظائع عن الحجاز وأفعال الشريف يتألم لها الإنسان مسلمًا كان أو غير مسلم . هذا وناظر الضبطيَّة يضيق عليهِ الحبس كلما اطلع على ترجمة ورقة من أوراقه . فلما علم السيد أسعد بمضمون تلك الأوراق ضاق ذرعًا وسقط في يدهِ لمدافعتهِ عن المجرم إمام الحضرة السلطانيَّة . فأدركهُ ليث الكتيبة في المزدحم السيد أبو الهدى وقد سألهُ أحد أصحابهِ عن المخلص من هذا المشكل فقال لهُ هوّنْ عليك نحملهُ كلهُ على كاهل كامل باشا الصدر فما أقدرهُ على الافتراء ، وما أصبرهُ على النار فلم يشعر ناظر الضبطيَّة إلّا والإرادة السنيَّة صادرة بإطلاق مصطفى رشدي والإحسان عليهِ بخمسين ليرة وإرجاعهِ إلى وظيفتهِ . فتعجب الناس وحق لهم العجب والاستغراب . ومن الغريب أن ناظر الضبطيَّة أخذ الإرادة بيدٍ وكان في اليد الأخرى ترجمة البيتين المشهورين في ذم موسى الهادي خليفة يزني بقامة الخ . وكم من أبيات كتبها رشدي من هذا القبيل للاستشهاد بها على الأحوال الحاضرة وكم من كلام لهُ على الارادات وسقوط قيمتها لكثرتها . فمن ذلك قوله « إن الإرادة أصبحت كرجل الجرادة » وكثير من هذا الهذيان الذي لو قالهُ غيرهُ ممن ليس لهُ ظهر لحلت بهِ العبر . ورشدي هذا من الآلات الَّتي قلعوا بها كامل باشا من الوزارة فإن السيّدين استحصلا على إرادة من جلالة السلطان لمنيف باشا ناظر المعارف بتوظيف مصطفى رشدي في المعارف وهل يعلمان أن منيف باشا لا يقبل الرجل لما يعلمهُ من خفة عقلهِ وتهورهِ . فردَّ الإرادة بأن ليس في المعارف حل خالٍ لتوظيفهِ فتقدم في الحال تقرير بأن منيف باشا قال لرشدي حين قابلهُ قد جاءَت وريقتكم (بالتصغير) يعني الإرادة وليس

لكم محل هنا . فجاءَ ذلك مصدقًا لما كانا يشتغلان فيهِ من نسبة كامل باشا والذين معهُ من الوزراء للاستهانة بالإرادات السلطانيَّة وبهذا وغيرهِ عزلت الوزارة الَّتي حفظت شأْن السلطنة ست سنوات .

يا محب الإصلاح في زمن أصـ ـبح فيهِ الإصلاح وهو بغيضُ

كَيف النجاة بما بقي للدولة والخلاص بهِ من جواسيس هريتة الاشداق لالتهام الرُّشا [1] جهنميَّة البطون لهضم السحت مبسوطة الأيدي لحصاد الاثم باسمة الثغور لفوادح الظلم . مقبوضة النفوس عن فعل الخير كمُهِ [2] العيون عن رؤْية الحق . مزورَّة الجوانب عن قيل الصدق . محصورة المساعي في أفانين الشر . مشرئبة الأعناق لهتك العرض . سابقة الإقدام لمورد الإفك . طائرة الصيت في عدواة العدل . مطويَّة الجوانح على مخزيات الغش .

لو عاين الدجَّال بعض فعالهم لا نهلّ دمع الأعور الدجَّالِ

ماذا أقول ويقول القائلون وماذا أكتب ويكتب الكاتبون في قول عزْلٍ من كل مقاومة ومنازلة ومكافحة ومساجلة إلَّا من سلاح الإيمان بالله تارة وبالطلاق أخرى .

وأكذب ما يكون أبو المثنَّى إذا آلى يمينًا بالطـــلاقِ

وماذا أقول في قوم لو وقع في أيديهم صداق البتول عليها السلام لاشتروا بهِ معاول لهدم الكعبة إن لزم هدمها لأحكام مكيدة من مكايدهم أو تصنيع دسيسة من دسائسهم في غرض واحد من أغراضهم . قد اتخذوا

(١) الرشا ، بضم الراء ويكسرها جمع رشوة. (ط)

(٢) كمه العيون : أي عيونهم مستورة لا تقدر على الرؤية . (ط)

اسم الخلافة أحبولة لدفع المنفعة وجلب المضرة على الدولة فنجحوا بتمالوءهم وشد بعضهم أزر بعض .

ناموا في حلم جلالة السلطان وغطوا فيهِ غطيطًا وظنوا أن القضاءَ نام معهم وما هي إلَّا لفتة من لفتات الخليفة أو عزمة من عزماتهِ تأْتي عليهم فيبطل السحر والساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى .

قال بعض الفضلاءِ من وكلاءِ الدولة أن السلطنة قد فقدت جلال شأْنها بيمين زيد وسبحة عمرو ومسواك بكر . فقال لهُ رجل ويصلح أمرها شيءٌ واحد تصدر بهِ إرادة واحدة وهو حريَّة المطبوعات . وقد حصل ولله الحمد فان فاتت حريَّة المطبوعات العثمانيين في الأستانة فما فاتتهم في مصر وصاحب الميزان يقول في ميزانهِ اليوم ما يقول .

وها نحن نقول ونصيح ونكتب وننشر ونبعث إلى كل وجهة بكل وسيلة حتى نبلغ جلالة السلطان ما ألمَّ بدولة آل عثمان بكيد الكائدين ومكر الماكرين وشعوذة المشعوذين وغش الغاشين . ولا يعجزنا أن نبعث بآلة حفظ الصوت إلى البيت الحرام وإلى الروضة الشريفة فتنقل بها كلام المظلومين الذين ملأُوا حجورهم من الدمع في تلك البقاع الطاهرة ليسمعهُ جلالتهُ فيرحم جيران بيت الله من قوم جعلوا الحجاز مقاطعةً لهم واستحلوا دم الحجاج في الحرم . ولا يبعد عن العقل أن جلالة السلطان يكذبهم في أَيمانهم مرة واحدة فيقف على زورهم وبهتانهم ودسائسهم ومكرهم ويرفع الدولة بيدهِ الطاهرة من وهدة السقوط ويحفظ الأمة من عاقبة القنوط ويرحم المظلومين :

من شكاوى قد ضجَّ من طول ما استُعـ   ـمل فيها المخفوض والمرفوع

وقد تمادى هؤُلاءِ الجواسيس في غيهم لما لم يردعهم قرآن ولم يزعهم سلطان فخرقوا سياج الأدب ومزقوا حجب العظمة وسرادقات الجلال فنقلوا عن جلالة السلطان إلى أفراد الرعيَّة ما أزالوا بهِ هيبة السلطنة عنهم ونقلوا إلى جلالة السلطان عن الرعيَّة عبارات لا ينطق بها عثماني يحب وطنهُ وسلطانهُ . وإنك لتجد الداخل إلى الأستانة مملوءَ الصدر بحسن الآمال فرحًا مسرورًا داعيًا لجلالة السلطان بالنصر والظفر مكذبًا لجرائد الأحرار أن كان من مصر معتقدًا فيها الزور والبهتان فإذا أقام فيها عشرين يومًا تغير حالهُ وصدَّق ما كذَّب آنفًا واشتغل لسانهُ بالاستعاذة والحوقلة . أما إذا اجتمع بواحد ممن ذكرنا يومًا واحدًا فإنهُ يخرج من الأستانة يائسًا من كل خير ومن كل إصلاح محتقرًا ما استعظم مستصغرًا ما استكبر مسترخصًا ما استغلى كارهًا ما أحبَّ فلا حول ولا قوة إلَّا بالله .



المقال العاشرة

جلال الخلافة وجمال السلطنة

أن الممالك تختلف في تشيد عظمتها اختلافًا كبيرًا فمنها ما تختار لهُ الحديد الذي قال الله تعالى فيهِ ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فتبنى المملكة عليهِ صرح مجدها وتصنع منهُ الأساطيل والأسلحة والمدافع والمعاقل والحصون والآلات البخاريَّة والطرق الحديديَّة وتصنع منهُ ما تصنع من أنواع القوى فيها بها أعداؤُها في الخارج . فإن قالت مقولها حتم وإن أشارت فإشارتها حكم . ولا تزال بتلك القوى تتجه جميع أجزائها لقصدٍ واحد هو إقناع الأجنبي بعظمتها وتسليمهُ بمنعتها فأميرها ووزيرها ونائبها وتاجرها وعالمها وجاهلها وصانعها وزارعها يعملون لهذه الغاية كل على مقدورهِ وطاقتهِ ولا يأنف الأمير أن يعمل لها كما يعمل الأجير . وهذا عمر ﷺ قد أنزل نفسهُ في كثير من الأحوال منزلة واحد من أفراد الأمة للسعي وراءَ ذاك الغرض فقد كان يخرج بنفسهِ لما جاءَهُ الخبر بنزول رستم إلى القادسيَّة فيستخبر الركبان كل يوم عن أهل القادسيَّة منذ حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهلهِ فلما جاءَ البشير بالفتح لقيهُ كما يلقى الركبان من قبلُ فسألهُ فأخبرهُ فجعل يقول يا عبد الله حدثنى فيقول لهُ هزم الله العدو . وعمر يحث معهُ ويسألهُ وهو راجل والبشير يسير على ناقتهِ . فلما دخل المدينة إذا الناس يسلمون عليهِ باسمهِ بأمرة المؤْمنين ويهنئونهُ . فنزل الرجل وقال هلَّا أخبرتني يا أمير المؤمنين رحمك الله وجعل عمر يقول لا عليك يا ابن أخي لا عليك يا ابن أخي .

ومن الممالك ما تختار الذهب وترى فيهِ طريقًا مختصرًا لبلوغ الغاية إلَّا أن هذه يختلف مقصد بيت الملك فيها عن مقصد الأمة فيشتغل الممسكون بزمام الأمور في إقناع الرعيَّة بعظمة الدولة والسلطنة ولا همَّ لهم إلَّا التسليم بالأبهة والجلال من الداخل فيبهرون ألباب الرعيَّة بجعل ما تتغالى في تعظيمهِ وهو الذهب حقيرًا في استعمالهم ويظهرون لهم من أنواع الزخرف والزينة ما يذهلهم عند رؤْيتهِ فيعتقدون في الدولة بلوغ الغاية من العظمة ويعتقدون في الأجنبيّ أنهُ يرى ما يرون فيها . ولهذا تجد كثيرًا من الناس يظهر على وجوههم البشر ويصغون كل الاصغاء إذا سمعوا رجلًا يحكي عن خزينة الأمتعة في الدولة وأن فيها تخت السلطان الغوري المرصع باللؤلؤ والياقوت وزكابًا من الزمرد اهداهُ محمد علي إلى السلطان محمود وكذا وكذا من نفائس الجواهر وقد لا تجد منصتًا لمن يحكي عن ترسانة لندن مثلًا . وأوضح من هذا أنك تجد بعض القارئين لهذه المقالة يشتغلون بالسؤَال عن ذلك الركاب الزمرد ولا يلتفتون إلَى قصة المغربي في آخرها .

ولما كانت السلطنة العثمانيَّة قد فاقت جميع الدول الأوربيَّة في الأبهة والفخار بأعظم مقتنيات الزينة رأينا أن تبين مظاهر الجلال ومواسم الاحتفال ومواكب الأبهة واحدًا واحدًا . فمنها موكب صلاة الجمعة الذي يقصدهُ القاصدون من أوربا لرؤْيتهِ .

ما قيصرُ في موكب انتصارهِ ولا الإسكندر في يوم افتخارهِ استغفر الله بل ما سعد قادمًا من القادسيَّة ولا المعتصم قافلًا عموريَّة املأُ للقلوب مهابةً ولا للعيون بهاءَ من رؤْية جلال السلطان يوم الجمعةِ في موكبهِ .

في يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ترد العساكر رجالًا وفرسانًا من أطراف الأستانة إلى بشكطاش عشرة آلاف أو يزيدون فينتظرون في طريق

السراي السلطانيَّة صدور الإرادة السنيَّة بتعيين المسجد . وهي عادة جارية إلى اليوم وإن كان المسجد الحميدي قد اختص بصلاة جلالتهِ دون سواهُ . فإذا صدرت الإرادة اجتمعت العساكر في ساحة المسجد أمام باب السراي واصطفت صفوفًا مضاعفة بعضها وراءَ بعض . وفي هذه الأثناء تتسابق مركبات المشيرين والوزراءِ والمشايخ والأجانب من السفراءِ وغيرهم فيجلس السفراءُ ومن كان معهم من عليَّة قومهم الوافدين على الأستانة في قاعة الجيب الهمايوني المطلة على تلك الساحة الَّتي لا يسمع السامع فيها قيلًا ولا صهيلًا إلَّا صليل الأسياف وترديد الأنفاس هيبةً وإجلالًا وانتظارًا واستقبالًا لإشراق نور الحضرة السلطانيَّة . فإذا حان وقت الصلاة أشرقت المركبة السلطانيَّة المذهبة كالشمس ضياءً من مطلع السراي تحمل الإمام نائب الرسول ﷺ ويجلس أمامهُ الغازي عثمان باشا . والمشيرون وكبار رجال المابين حافون من حول المركبة مشاةً خشَّع الأبصار ترهقهم ذلةً من جلال تلك العظمة الاماميَّة . وهم في غير هذه الساعة أكاسرة الزمان وقياصرة الرومان كبرًا وجبروتًا وكلهم في أمواج الملابس الذهبيَّة يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب . حتى أن الناظر ليكاد يوالي الحمد لله تباعًا على ما منحهُ للدولة من عديد الرجال الصادقين في خدمة الأمة والملة بشهادة الكلمات الناطقة فوق النياشين لولا ما يعتريهِ من الاشتباه فيهم . والنشان عنوان كتبتهُ الدولة ووضعتهُ على صدر حاملهِ شهادةً منها للناس ببيان ما هو مكنون وراءَهُ من فضائل الغيرة والحميَّة فإذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون في القلب كانت كبائع يغش الناس بوضعهِ على زجاجة الخل عنوان ماءِ الورد .

ثم تسير المركبة بالعزّ والإجلال والسعادة والإقبال تحسدها الكواكب

وتحفظها المواكب حتى تصل إلى السلم السلطانيَّة من المسجد فيدخل جلالتهُ على صف المشايخ وأولهم شيخ الإسلام فالسيد فضل باشا العلوي فالسيد أسعد فالسيد أبو الهدى فالسيد جمال الدين الأفغاني فناظر الأوقاف فبعض الخاصة من الوزراء والمشيرين فيشير جلالتهُ إليهم بالسلام بيدهِ الكريمة وفي بعض الأحيان يكلم شيخ الإسلام كلمة أو كلمتين تشريفًا لقدرهِ وربما ميز بعض الواقفين بابتسامة . ثم يصعد إلى المكان المخصص لصلاتهِ فيصلي فيهِ وحدهُ وصفوف العساكر العثمانيَّة واقفون في تلك الساحة ينتظرون تشريف جلالتهِ للسراي بعد تأدية الصلاة .

أما المراقبة والمحافظة على المسجد من جهاتهِ الستْ فلا يقدر على وصفها واصف . وإنك لترى على كل نافذة من نوافذ المسجد حافظين غليظين يمنعان كل قاصد للنظر منها مهما بلغ من القدر والشأن . وعلى سطح المسجد عشرات من العيون والأرصاد ولا يدخل المسجد مصلٍّ إلَّا إذا فتشهُ المراقبون تفتيش اللص سرق فص خاتم فإذا دخل المسجد جلس عن يمينهِ جاسوس وعن شمالهِ جاسوس ومن خلفهِ اثنان وكلهم مستوفزون للوثبة عليهِ . فإذا أراد المسكين أن يصيح بأنهُ مظلوم ضرب أولئك الأعوان على فمهِ أن يلفظ الميم ورفعهُ الأربعة مطويًّا كطيّ السجل للكتاب وأوصلوهُ إلى سجن الاستنطاق . وهناك يسلّ المستنطق خيط نخاعهِ بعد أن جمع الأشقياءُ بين أضلاعهِ . ولهذا قل الواردون على الجامع للصلاة من الخارج فخلا للجواسيس والأعوان . وأن الخطيب ليتجنب في خطبتهِ كل آية وكل حديث فيهِ ترغيب في العدل أو تنفير من الظلم أو إيماءٌ إلى موعظة من نهي عن منكر أو أمر بمعروف . ولا يدور في تلك الخطبة من كل جمعة إلَّا حديث واحد اختاروهُ لبعدهِ عن كل تأويل وهو « أن الله

جميل يحب الجمال » فإذا جاءَ عيد الأضحى استبدلوهُ بحديث آخر وهو قوله « سمنوا ضحاياكم » وهكذا في مساجد الأستانة لا يخطب الخطباءُ إلّا بهذين الحديثين .

فإذا قضيت الصلاة خرج جلالة السلطان بالهيئة الّتي دخل بها وصاح العساكر الواقفون في انتظار جلالتهِ بالتهليل والتكبير والدعاءِ وانفض الجمع وذهب العساكر كما جاؤُوا إلى مواضعهم.

وهنا نذكر حكاية : مر على الأستانة من أقصى الغرب رجل من العلماء فيهِ خشونة البادية ولما رأى الموكب السلطاني ووقوف آلاف من العساكر المسلمين لا يصلون في وقت الصلاة سأل أحد مشايخ الحضرة السلطانيَّة بعجرفة لا تليق بأدب الخطاب مع قاضي عسكر روم ايلي بقولهِ : يا شيخ الأستانة أيجوز في الشريعة أن يقف عشرة آلاف من المسلمين حول المسجد الجامع وقد سمعوا أذان الجمعة وشهدوا الناس يصلونها ولا يجسر أحد منهم أن يصليها للحكم القاهر عليهم . سبحان الله يا شيخ الأستانة قد أصبح حكم العبد فوق حكم الرب قال الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقال الضابط للعساكر قفوا هنا ولا تصلوا فأطاع العبدُ العبدَ وعصى العبدان الرب . أتريدونَ نصرًا من الله بعد هذا والله يقول : ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [(1)] ، وأن خذلاَننا لدليل عصياننا . أن الله لم يبح للمسلمين ترك الصلاة في حال من الأحوال وقد عرفنا الله كيف

---

(١) في الأصل « أقوامكم » وهو خطأ والصواب « أقدامكم ».والآية الكريمة من سورة « محمد » . (ط)

نصلي صلاة الخوف فقال تعالى يخاطب الرسول : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ وأن الأئمة نوابُ رسول الله ﷺ في كل عصر قوَّام بما كان يقوم بهِ فكان الخطاب لهُ متناولًا لكل إمام يكون حاضر الجماعة في حال الخوف فعليهِ أن يؤُمهم كما أمَّ رسول الله ﷺ الجماعات الَّتي كان يحضرها . يا شيخ الأستانة أن الله أمر النبي أن يقسم المؤْمنين طائفتين تصلي واحدة وتحرسها أُخرى في ساعة الفزع الأكبر والدماءُ سائلة والقلوب طائرة والألباب طائشة والعدو بالمرصاد يرصد الغرة وينتهز الفرصة والرسول واقف لتشييد الدين ولا أرى يا شيخ الأستانة عندكم شيئًا من الخوف يستوجب تقسيم المسلمين طائفتين فكيف ساغ لكم أن تنهوا المسلمين جميعًا عن الصلاة عند إقامتها أمامهم .

قال لهُ شيخ الأستانة هذه سياسة فيها إرهاب العدوّ ألا ترى للأجانب قد احمرت وجوههم عند رؤْية هذا الموكب السلطاني[1] . قال الشيخ المغربي

---

(١) مما ذكره ولي الدين يكن في هذا الشأن أن أوربيا سأل السلطان عبد الحميد قائلا : « ما السبب في إكثار السلطان من الحرس والجند حين يخرج إلى صلاة الجمعة ؟ فقال له عبد الحميد : لأمكن هيبة الخلافة من قلوب النصارى ، وقد حرف الكلمة ترجمانه فقال : من قلوب الأوربيين فجاءت الإقالة شرا من العثرة . (ط)

أنا أعلم شيئًا من الشريعة والشريعة فوق السياسة فإذا كان لديكم في هذا مخلص شرعي فانشروا بهِ رسالة على المسلمين حَتَّى يطمئنوا على دينهم الذي وضعوهُ في أيديكم وإن لم يكن عندكم مخلص شرعي فلا تكتموا السلطان حكم الله ولا تغيروا اعتقاد المسلمين في تقواهُ . وإن سكتم عن الاثنين فالاثم عليكم لا على السلطان . فتغير وجه شيخ الأستانة وقال للفقيه المغربي إن بقيت في الأستانة إلى الغد يا فضولي أكلتك الأسماك . فخرج الرجل وهو يقول والله ما تساهلتم في هذا الأمر العظيم الذي يشق قلب الدين وأخفيتموهُ عن السلطان إلَّا لتحفظوهُ للطعن عليهِ عند كفران نعمتهِ وخروجكم عليهِ . فلما سمع شيخ الأستانة همهمة الرجل بهذا الكلام سعى سعيهُ فأحاطت بالرجل مَكايد الجواسيس وحفت بهِ دسائسهم فطلب النجاة من دار الخلافة وخرج مع البازي عليهِ سواد .



نصف رمضان

في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك من كل سنة تهبط العظمة الإماميَّة هبوط الجلال والرحمة من سماءٍ يلديز إلى السراي القديمة الَّتي كانت مشرَّفة بسكن السلاطين من آل عثمان في قديم الزمان . وهذه السراي واقعة على البوغاز من جهة ومتصلة بجامع آيا صوفيا [1] من جهة

(١) أيا صوفيا : أو آجيا صوفيا معناها باليونانية الحكمة المقدسة . كانت كنيسة في القسطنطينية ، أنشأها يوستنياس الأول في القرن السادس الميلادي ، وعندما انتصر السلطان محمد الفاتح على البيزنطيين واستولى على عاصمتهم حول أيا صوفيا إلى مسجد وأدخل عليها تعديلات وإضافات بحيث تصلح لأداء الفرائض الإسلامية وهي اليوم متحف ، وقد وصف أيا صوفيا الرحالة المغربي ابن بطوطة وقال عنها : « من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا .. » . =

وبالباب العالي من جهة أخرى وهي تحتوي على المخلفات النبويَّة مستودعات الخلافة والسلطنة الَّتي حفظها السلاطين حفظ الروح ووضعوها بجانبهم والقريب منهم مبالغة في حفظها وتكريمها أولًا وتبركًا بها ثانيًا . لا زالت لهم وفيهم ما مرَّت الغداة وكرّ العشيّ .

وقبل ذلك هذا الموكب الجليل والمحفل الشريف نذكر ما تتخذهُ السلطنة من أساليب الاحتياط لهُ وأفانين التيقظ لسلامتهِ من شوائب ما يكدر الصفاءَ على زعمهم . والله يعلم أن الأمة العثمانيَّة أشد حبًّا لسلطانها وأحرص على حياتهِ منها على حياتها ولكن الجواسيس يجدون كل يوم نوعًا من الفتنة لإبعادها عن سلطانها وإبعاد سلطانها عنها .

قبل ميعاد الاحتفال بشهر أو أكثر تشتغل نظارة الضبطيَّة ونظارة الجمارك ونظارة العسكريَّة ونظارة البلديَّة وسفارات الدولة في أوربا والمشايخ في الأستانة والجواسيس الخارجيَّة والداخليَّة لهذا اليوم المعلوم .

فوظيفة نظارة الضبطيَّة فيهِ أن ترتب الجواسيس من الرجال والنساء ليدخلوا البيوت المسكونة الواقعة على جانبي الطريق بأَوهى المناسبات ليراقبوا حركات سكانها وزائريها في هذا اليوم . ثم تأْخذ مفاتيح البيوت الخالية الواقعة على ذلك الطريق لتأْمن أن يكمن فيها كمين سوءٍ ثم تملأ السجون بعباد الله الذين يشتبهُ الجواسيس فيهم وأكثرهم من أصحاب

= وقال أحمد شوقي في وصف أيا صوفيا :

كنيسة صارت إلى مسجد	هدية السيد للسيد
كانت لعيسى حرما فانتهت	بنصرة الروح إلى أحمد
شيدها الروم وأقيالهم	على مثال الهرم المخلد

(ط)

الدعاوى والشكاوى فتلتقطهم بتعللات ملفقة لتأمن غوغاءَهم في ذلك اليوم على زعمها .

وتصرف نظارة الجمارك مجهودها وتبذل مقدورها في إمعان البحث والتنقيب عن جميع الواردات إلى الأستانة خشية أن يفلت شيءٌ من الديناميت . وكثيرًا ما تؤَخر تسليم البضائع لأصحابها حتى ينقضي ذلك اليوم .

وتشتغل نظارة البلديَّة بفرش الطريق بالحصباء والرمل وهي تُسرُّ البحث في الأرض تحت ظاهر هذا العمل عما تظن أن يخبأَ من كرات الديناميت . ظنٌّ باطل ورأي عاطل ولكن الجواسيس يعلمون الناس الخيانة وارتكاب المفاسد .

وتشتغل نظارة العسكريَّة بالمحافظة على الكوبري فيبيت الضباط والعساكر في الصنادل تحتهُ ليلة ذلك اليوم المعهود وتمتد فوقهُ الإدارة العرفيَّة تلك الليلة فلا يعبر عليهِ أحدٌ إلَّا أُحيط بنظراتهِ ولفتاتهِ . وقد وقع مرةً من رجل عبر عليهِ شيءٌ فانحنى لتناولهِ فاكبَّ عليهِ الجواسيس والأعوان وأخذوهُ أخذ العزيز الذليل ولهذا ترك الناس المرور عليهِ في تلك الليلة .

وتشتغل سفارات الدولة في أوربا بالاستخبار عن الفوضويين أن كانت أفكارهم قد توجهت نحو الشرق وسافر أحد منهم إليهِ .

ويشتغل المشايخ ونعم ـ ما يشتغلون لو اقتصروا عليهِ ـ بقراءَة الأحزاب والأوراد والدعاء والابتهال إلى الله في تلك الليلة المباركة أن يحفظ للإسلام خليفتهُ .

وتراقب الجواسيس جميع المراقبين لهذه الأعمال فلا يمر ذلك اليوم إلّا وجميع المشتغلين بهذه الأشغال نيام من المتاعب والمشاق الَّتي تحملوها . وما ظهر عنها إلى اليوم خيانة من الأمة الصادقة تدعوهم إلى تحملها دائمًا ولكن النياشين والرتب والأموال مسببة عن هذه الترهات فكيف يتركون السبب فيحرمونها .

وقد وجد بعض الدهاة من أصحاب الحاجات طريقًا قريبًا لقضاءِ أشغالهم فأخذوا يبعثون قبل يوم الخرقة بيوم أو يومين تلغرافات شديدة المآل من مكري كوي في ضواحي الأستانة إلى جلالة السلطان نفسهِ بعبارات تشف عن اليأس والضجر فلا يلبثون أن يدعوا إلى السراي للإفطار والإكرام وقضاءِ حوائجهم ببركة ذلك اليوم العظيم .

فإذا كان الضحى من يوم تلك الليلة اصطفت العساكر العثمانيَّة كالبنيان المرصوص من يلديز إلى السراي القديمة صفين على جانبي الطريق - والمسافة بين يلديز وبينها تزيد عن مسير ساعة - وخرج أهل الأستانة من الرجال والنساءِ والأولاد للتبرك برؤْية الإمام حافظ أمانات الرسول ﷺ فيقفون وراءَ صفوف العساكر والجواسيس منبثون بين ظهرانيهم وفي طيَّات اجتماعهم . ولا يزال جميع الواقفين في انتظار الموكب السلطاني حَتَّى يمر بهم وفي وسطهِ المركبة المذهبة تحمل جلالة السلطان وقد أحاط بها وازدحم حولها الياوران ازدحام العطاش الهيم على المورد العذب فلا يدعون فرجةً ولا خصاصًا للأمة المحرومة أن ترى سلطانها وإمامها . وما ترى الأمة إلَّا لمعان الذهب وأشعة الجواهر وأشخاص الياوران تطير بها الجياد السبق حول المركبة :

وأجلُّ علم البرق فيها أنها   مرَّت بجانحتيهِ وهي ظنونُ

فيرجع الناس والأسف ظاهر على وجوههم لعدم تمكنهم من رؤية الإمام وإذا سألت كثيرًا من أهل الأستانة عن سيماءِ جلالة السلطان نكسوا رؤوسهم حياءً لعجزهم عن وصف ما لم يروا وقد حرمهم جلالتهُ أيضًا أن يروا صورتهُ بالفوتوغرافيا . أما الصور الَّتي نراها في أيدي الناس بدعوى أنها صورة جلالتِهِ فليست منها في شيء .

هذا ثمر ما غرسهُ الجواسيس ونتيجة ما قدموهُ . وقد قالت زوجة أحد سفراءِ النمسا في الأستانة لجلالتِهِ أني أرى أن الأمة العثمانيَّة تحب جلالتكم وتتمنى رؤْيتكم فلو أحسن عليهم جلالة السلطان بالخروج عليهم في بعض الأحيان لكان ذلك عندهم أجلَّ إحسان من لدن جلالتكم . فشكرها جلالة السلطان على كلامها ولكن أقسم الجواسيس إنها تقول هذا لمآرب ومقاصد .

وعلى ذكر حب الأهالي الذي شهدت بِهِ هذه السيدة لهذا البيت الرفيع بيت الخلافة والسلطنة نذكر ما وقع للمرحوم السلطان عبد المجيد فإنهُ خرج يومًا لصلاة الجمعة في أحد مساجد الأستانة فوجد في انتظارهِ كثيرًا من العساكر على خلاف العادة فسأل السر عسكر عن اجتماعهم فقال أنهُ بلغنا أن بعض السفهاءِ يقصدون تكدير الصفاءِ بالاجتماع والغوغاء في الطريق . فقال الخليفة أرجعوا العساكر إلى مواضعهم حالًا ثم التفت إلى من حولهُ من الرجال وعيناهُ تنوبان عن لسانهِ في الانتهار وقال إذا كانت الأمة لا تريد أن أكون حاكمًا عليها أأقبل أنا أن تكون محكومة لي . وبعد تأدية الصلاة أمر أن لا يتبعهُ إلَّا ياور واحد وطاف بنفسهِ جميع شوارع الأستانة فكان الناس يقعون على مواطئ فرسهِ يقبلونها . وما رأى الراؤون يومًا في الأستانة أملك لمجامع القلوب واشرح للصدور من ذلك اليوم .

هذا الكلام لا يصدر إلَّا عن همة ملك في سلسلة آبائهِ ثلاثون سلطانًا ملأُوا الأرض بعظمتهم ورهبتهم . وكنا نسمع عن جلالة السلطان عبد الحميد كلامًا مثلهُ أو أعزَّ منهُ لو أراحهُ الجواسيس من كيدهم .

فإذا وصلت المركبة السلطانيَّة إلى سلم السراي صعد جلالة السلطان . والصدر الأعظم وشيخ الإسلام والوكلاءُ والوزراءُ والمشيرون وصدور العلماءِ واقفون وقوف الخشوع بالملابس الرسميَّة والنياشين فيدخل جلالة السلطان قاعة الاستراحة فيستريح هنيهة ثم يدخلونَ إلى المكان الذي يفخر على كل مكان لشرف احتوائهِ على المخلفات النبويَّة فيفتح الحفظة أمام جلالتهِ صندوقًا من الفضة ويخرجون منهُ تلك المخلفات فيقبلها جلالتهُ ثم يضعونها على مائدة . وهي البردة الَّتي أعطاها النبي كعب بن زهير وسنٌّ من أسنان المصطفى ﷺ وشعرات من شعرهِ الشريف ونعالهُ الشريفة وبقيَّة من البيرق الشريف وإناءَانِ من الحديد لسيدنا إبراهيم الخليل كان يشرب بهما الماءَ من زمزم وجبةُ الإمام أبى حنيفة وذراع سيدنا يحيى . ويقف جلالة السلطان أمام تلك المخلفات ويقف الغازي عثمان باشا بجانبها ولديهِ مناديل بيض مَكتوب عليها بالحرير الملوَّن بعض الجمل المباركة . ثم يدخل الزائرون فيعطي عثمان باشا لكل واحد منديلًا بعد أن يمسح بهِ المخلفات فيقبلهُ آخذهُ وينصرف ويأتي غيرهُ حَتَّى تنتهي الزيارة .

وتنحصر زيارة المخلفات في رجال الرتبة الأولى من الصنف الأول فما فوقها ومن رتبة الفريق فما فوقها ومن باية الحرمين وروم إيلي بكلربكي فما فوقها وجلالة السلطان واقف . فإذا انتهت زيارة الرجال دخلت السيدات على مراتبهنَّ فإذا انتهت زيارتهنَّ أعادوا المخلفات إلى صندوقها وأغلقوهُ أمام جلالتهِ . وفي خلال تلك الزيارة الشريفة لا يخلي الجواسيس جلالة

السلطان من تقديم التقارير متابعة فيقرأُها في وقتها . وقد كتب لهُ جاسوس في إحدى الزيارات أن الكوبري وُضع فيهِ ديناميت فاندكت أركان السراي لهذا الخبر الفظيع والنبأ الشنيع وماج الناس وبعث جلالة السلطان بامنائهِ واحدًا عقب واحدٍ لتفتيش الكوبري فما وجدوا شيئًا وما عوقب الجاسوس الذي حلَّ نظام الزيارة بقذف الرعب في القلوب - لاحتمال أن يصدق مرةً في المستقبل - وقد عاش أولئك الجواسيس عشرين سنة يقدمون التقارير فينهبون بها نفائس أوقات السلطان وما سمعنا أنهم كشفوا لجلالتهِ مؤامرةً ولا أظهروا عصبةً للفساد ولا بينوا جمعيَّة للشرور وإنما هو كذب فوق كذب وإفك فوق إفك يحلون بهِ عرى الصداقة والولاءِ من القلوب الصادقة . ومن حظهم أن لا عقاب عليهم لاحتمال أن يصدقوا في العمر مرة واحدة .

وفي أكثر السنين يفطر جلالة السلطان في تلك السراي فيأْتي الخدم من سراي يلديز بالأواني الذهبيَّة المرصعة والموائد الفضيَّة وما يتبعها من أنواع الزخارف والزينة الَّتي لا توجد عند جميع ملوك الأرض لإفطار جلالتهِ فيملؤون بها سفينة كبيرة . وفي السنة الَّتي قبل الماضية أفطر جلالتهُ في مستودع المخلفات النبويَّة الَّتي بقيت ثلاثة عشر قرنًا ملتثم شفاه الملوك والسلاطين وما هي بذهب ولا بحجر كريم وإنما هو صوف خشن من لباس خاتم المرسلين . فتمد هنالك موائد العظمة المناسبة لأبهة السلطنة . ولكن لما كان الزمان قد أخذ على نفسهِ أن لا يتم سرورًا غرقت السفينة وهي عائدة مشحونة بالمواعين السلطانيَّة في ليلتها وغرق خمسون خادمًا كانوا في خدمة المائدة وأُمرت الجرائد أن لا تكتب في ذلك حرفًا .

ثم يعود جلالتهُ أحيانًا من طريق غير الذي جاءَ منهُ فإذا دخل يلديز

أطمأنت القلوب وسكنت الخواطر واستوت سفينة النجاة على الجوديّ :
وما الخوف إلَّا ما تخوَّفهُ الفتى ولا الأَمن إلَّا ما رآهُ الفتى أمنا

التفسير الشريف :

من أجلّ شعائر الخلافة وأفضل عوائد السلطنة قراءَة التفسير الشريف في شهر رمضان المُعَظَّم في السراي السلطانيَّة بحضور جلالة السلطان وهذه عادة ابتدأ أسلاف جلالتهِ بها منذ مائة وخمسين سنة فبلغ الدرس الآن من التفسير إلى آخر سورَة الأنفال . وعدد الدروس عشرة تقرأُ في أثناءِ الشهر المبارك من كل سنة .

فتنتخب السراي عشرة من العلماءِ من المنسوبين إليها والمعروفين لديها بالأوصاف اللائقة لحضور هذا المحفل الجليل وتنتخب لكل واحد منهم عشرة من طلبة العلم الموصوفين بمحاسن الآداب يحضرون يوم حضور مدرسهم لقراءَة درسهِ فيسأَلونهُ بعض الأسئلة في الذي يقرأَهُ من التفسير وهو يجاوبهم وأسئلتهم وأجوبتهُ معلومة لجلالة السلطان قبل الدخول إلى الدرس حفظًا للهواجس وتقييدًا للخطرات أن تنحدر على اللسان والبلاءُ موكل بالمنطق . وتعيين أيام الدروس في أثناء الشهر موقوف على صدور الإرادة السنيَّة بهِ فيحضر المدرس صاحب اليوم بأصحابهِ العشرة من طلبة العلم إلى المابين بعد صلاة الظهر فيدخلون إلى المكان المخصوص لقراءَة الدرس ويدخل المشايخ ورجال المابين الذين يختارهم جلالتهُ لشرف الحضور لهذا الدرس فيجلسون الجميع جلسة الصلاة ما بقي الدرس على شكل هلال ونجم ذلك الهلال كرسي جلالة السلطان الذي يجلس [1] عليهِ . ويبتدئُ المدرس في القراءَة والطلبة في الأسئلة المعلومة حتَّى ينتهي

(١) يجلس في الأصل « يجلض » وهو خطأ مطبعي . (ط)

الدرس قبيل صلاة العصر وجلالة السلطان جالس يسمع تارةً ويقرأ تارة من الأوراق ما لا يحتمل تأخيرا ولا يجيز الاعتناءُ بها إرجاءً فإذا انفض ذلك المحفل الديني الشريف أخذ الدرس والطلبة عوائدهم من الإحسان السلطاني وانصرفوا بعد قراءَة الفاتحة داعين شاكرين لا زالت هذه العادة الشريفة جارية في هذا البيت الرفيع القدر ما هلَّ على المسلمين هلال الشهر.

ديش كراسي (أجرة الاسنان) :

هذه عادة قديمة من عوائد بيت السلطنة في شهر رمضان وهي أن يعطي لمن يفطر فيهِ بعد الإفطار من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام إلى من يسعدهُ الحظ بالإفطار فيهِ من آحاد الناس صرة من النقود تناسب قدر المفطر فيعطي من ألف ليرة إلى ربع ليرة ويقدر ما يصرف لهذه العادة في الشهر المبارك من ستين ألف ليرة إلى سبعين ألفًا . وقد انحصر أكثرها هذه السنوات الأخيرة في طائفة الجواسيس فهم يذهبون إلى السراي أفواجًا قبل الغروب فيدخلون إلى حجرات الذين يقدمون تقاريرهم بواسطتهم من رجال المابين وبعد الإفطار يكتب صاحب الحجرة أسماءَ الذين أفطروا عندهُ من الجواسيس ويبعث بها إلى جلالة السلطان وجلالتهُ يعرفهم بأشخاصهم أو يدخل بها عليهِ فيعطي جلالتهُ لكل واحد منهم على قدر ما تستحق خدمتهُ من عشرين ليرة إلى مائة ليرة وإذا أغفل جلالتهُ واحدًا منهم طلب عادتهُ بورقة يقدمها إلى اليد الشريفة طلب الحق الواجب دلالًا من الجاسوس على تلك السدة السلطانيَّة . وقد صبَّ الجواسيس على صحائف أعمالهم التي لم يبقَ منها سن إبرة لكتابة عمل سيءٍ في هذا الشهر المبارك شهر الخيرات والحسنات درديّ ما بقي في مخيلاتهم من عكر السعايات

والوشايات فيكدرون صفاءَ عيش الناس في صيامهم وصلاتهم وعبادتهم ليذكروا بحسن قيامهم بالخدمة فتسمن صررهم بعجافة ذممهم ويساعدهم على التوسع في أساليب الفتنة ضرورة اجتماع الناس بعضهم ببعض في هذا الشهر المُعَظم في المساجد وأماكن العبادة كآيا صوفيا وجامع بايزيد وجامع الفاتح فإن الناس يذهبون إليها لصلاة العصر وسماع الوعظ ـ كلمة بقيت ـ من كلمات العصر الأول ـ ولا يخلو يوم من أيام الشهر المبارك من سحب ـ واعظ من كرسي الوعظ إلى مهواة الاستنطاق في هذه المساجد فيتُشز الجمع من حولهِ نثر السجعة أو العقد خانهُ النظام بسطر يكتبهُ جاسوس لتأويل كلامهِ في درسهِ إلى أمر بمعروف أو نهي عن منكر فيخرج الناس من المسجد عقب هذا المنظر وقد علا وجوههم اصفرار الخوف فوق فتور الصوم فإذا نظر أحدهم إلى وجههِ في مرآة أنكر نفسهُ .

وفي أواخر الشهر يفطر الضباط والعساكر في السراي فيعطي للضابط أجرة أسنانهِ قيمة مرتبهِ الشهري ويعطي للعسكريْ كذلك .

والعساكر خارج الأستانة يصومون الدهر جوعًا ويُحرمون طول عمرهم من غير عرفة لأن الدولة لا تكسوهم ولا تطعمهم وإنما تطلب منهم أن يموتوا في حبها .

وفي شهر رمضان يقوم سوق في جامع بايزيد يسمونهُ السركي أي المعرض يحتوي على البضائع والتحف النفيسة وأنواع المأكولات وأصناف الحلواءِ فيقصدهُ الوكلاءُ والوزراءُ والكبراءُ فيجلسون على الحوانيت لتمضية الوقت من آخر النهار ولا يكلم بعضهم بعضًا إلَّا كلام الزيارات الرسميَّة من وصف البرد والحر والثلج والمطر خوف التاجر والبائع والخادم والواقف والماشي لأن جُلَّ الداخلين إليهِ من الجواسيس . وهذا

المعرض عند أهل الأستانة يفوق معرض باريس في انتظارهِ وقدرهِ فإن العظماءَ ينتظرونهُ طول السنة لتفريج الهم والغم ساعة من النهار فيدخلون فيهِ ويزاحمون العامة والباعة بأكتافهم دخول المطلق من السجن في حديقة الأزبكيَّة في ليلة مقمرة وساعة مطربة ولكنهم حرموا فيهِ تلك الحريَّة بل تلك الأم البرة والوالدة المشفقة الَّتي نشرت جناحها على تلك الجنة المصريَّة والله يعلم أن كل ساكن في الأستانة مهما بلغ من القدر لا يدري أتدخل عليهِ الشمس صباحًا من نافذة البيت أو نافذة السجن ولا يدري طارق بيتهِ ألخير أم لشر . ولو دهم أهل الأستانة شر هؤُلاءِ الجواسيس دفعة واحدة لم يحملوهُ ولكن للتدريج سرًّا طبيعيًّا في احتمال الأذى .

ليلة القدر :

هذه الليلة إحدى الليالي الخمس الَّتي يسمونها ليالي القنديل لأنهم يسرجون فيها القناديل على منارات الجوامع في أرجاءِ الأستانة . وهي ليلة القدر . وليلة مولد النبي ﷺ . وليلة الجمعة الأولى من رجب واسمها (ليلة رغائب) وهي الليلة الَّتي حملت فيها أم النبي بهِ . وليلة المعراج . وليلة النصف من شهر شعبان واسمها عندهم (ليلة برات) أي ليلة العتق ويحييها جلالة السلطان في الجامع الحميدي وفي صباحها يفد كبراءُ الدولة على المابين لتهنئة الحضرة السلطانيَّة بها ويهنئُ الناس بعضهم بعضًا بتلك الليالي المباركة .

فيصعد الكبراءُ والأمراءُ والعظماءُ إلى الجامع الحميدي بعد العشاءِ في الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان وهي ليلة القدر فيقفون في انتظار بزوغ النور الأماميّ من مطلع يلديز حتى يخرج جلالتهُ على هذه الجموع بين أنوار الشموع ونور الإمام غالب على كل نور فإذا جلس جلالتهُ في

مكانهِ الخاص بهِ قرئَ المولد النبوي وأقيمت الأذكار ورتل القرآن ورفعت الأصوات بالدعوات ثم يرجع جلالتهُ في هذه الأبهة وهذا الجلال إلى مقر عرشهِ الحميدي .

عيد الفطر :

يخرج جلالة السلطان لصلاة العيد في موكبهِ المشهور بالحسن والجمال والأبهة والجلال فيصل من يلديز إلى جامع بشكطاش وبعد تأدية الصلاة يركب جلالة السلطان جوادًا ويمشي تحت ركابهِ عثمان باشا الغازي والصدور والوكلاءُ والوزراء مشاة على مقربة من الجواد وعلى جلالة السلطان كسوة ملازم من ضباط الجيش والنشان العثماني فوقها ولا يزال الموكب سائرًا حَتَّى يصل إلى سراي (طوله بغجه) وهي من أشهر الأبنية في العالم حسنًا وجمالًا وقد صرف على بنائها في زمن المرحوم السلطان عبد المجيد أربعة ملايين ليرة وصرف على بابها المرمر المصنع بالذهب ثمانون ألف ليرة ولا يوجد في أبنية الدنيا مثلهُ وهي خالية . وكان هذا أول دين اقترضتهُ الدولة . أما بهوها فوحيد في بابهِ وفي وسطهِ تخت السلطان الغوري المرصع وعليهِ يجلس جلالة السلطان يوم العيد وأول من يدخل على جلالتهِ نقيب الإشراف فيقف بين يديهِ وجلالتهُ واقف ثم يدعو لهُ بطول العمر والتأييد وبعدهُ يدخل الصدر الأعظم فيقبلَ ذيل ثوبهِ وكذلك شيخ الإسلام ثم يدخل الوكلاءُ فيقبلون رجلهُ ثم يصطفون ويجلس جلالة السلطان فيدخل المأمورون من الرتبة الأولى من الصنف الثاني من القلميَّة ورتبة ميرميران من الملكيَّة ورتبة مير لواء من العسكريَّة ورتبة مكه بايه سي من العلميَّة فما فوقها فيقبلون هُدَّابًا اسمهُ السجق يمسكهُ عثمان باشا عن يمين التخت فإذا انتهت التشريفات عاد جلالة السلطان على مركبتهِ

السلطانيَّة إلى يلديز فيأْتي تراجمة السفارات للتبريك بالعيد من طرف سفرائهم .

ثم تتوارد تلغرافات التهاني من الملوك والإمبراطورات ومن الحضرة الفخيمة الخديويَّة ثم من شريف مكة فيجاب عليها بإرادتهِ السنيَّة ولا حاجة إلى ذكر الاحتياط والحذر والتحفظ والتحرز وما يؤْخذ لهذا اليوم من قبل فقد تقدم الوصف .

عيد الأضحى :

لا يختلف عن عيد الفطر إلَّا في ذبح ثلاثين كبشًا يذبحها موظف مخصوص اسمهُ قربانجي باشي عن جلالة السلطان ويختلف أيضًا بتغيير حديث الخطبة فيوضع مَكان أن الله جميلٌ يحب الجمال (سمنوا ضحاياكم) .

أول السنة الجديدة :

للسلطنة عادة في هذا اليوم وهي أن يعطي للوافدين على السراي السلطانيَّة للتهنئة بافتتاح السنة من أعضاء العائلة السلطانيَّة إلى صغار المأْمورين نقود مضروبة بتاريخ السنة الجديدة فيعطي من ألف ليرة إلى الليرة الواحدة والكبراء الذين يأْخذون من تلك النقود يعطون منها في عودتهم لأولادهم ومنتسبيهم تفاؤُلًا وتبركًا بها وكان الصدر الأعظم في الماضي إذا رجع إلى الباب العالي أعطى لمأْموريهِ من تلك النقود ولكن بطلت هذه العادة باتصال المأْمورين بالحضرة السلطانيَّة بواسطة التقارير السريَّة فهم يأْخذون من جلالتهِ مباشرة كما يأْخذ الصدر الأعظم وشيخ الإسلام.

ليلة المولد النبوي:

هي من ليالي القنديل الخمس الَّتي ذكرناها والرسم في إحيائها جميعها لا يختلف فتسرج منارات المساجد عمومًا ويحضر جلالة السلطان في الجامع الحميدي لإحيائها بالقراءَات والصلوات.

الميلاد السلطاني:

هذا الميلاد يقع في اليوم السادس عشر من شهر شعبان المُعَظَّم ووصفهُ لا يختلف عن وصف عيد الجلوس الذي تقدم ذكرهُ



المقال الحادية عشرة

تقليد المناصب العثمانيَّة

كنت يومًا أحدث فاضلًا من العثمانيين قبل أن أدخل الأستانة وأعرف أحوالها فقال لي إذا رأيت أو سمعت في بلد من بلاد الدولة العثمانيَّة بطاغية من طواغي الظلم وداهية من دواهي الغشم سلَّابًا نهابًا فتاكًا هتاكًا أفاكًا غليظ القلب شديد الوطأة على الرعيَّة وديعة الله الضائعة طائش اليدين في إهراق الأحمرين الذهب والدم مخضب اليمين بالدم واليسار بالذهب يميت السنة ويحيي البدعة ويحرم الحلال ويحل الحرام وينظر شزرًا وينأى كبرًا ويشمخ آنفا ويلعن ألفًا فاعلم أنهُ ما خرج من الأستانة إلا وهو عاقد العزيمة على ارتكاب هذه الكبائر لما قاساهُ وعاناهُ وما حملهُ على كاهلهِ من كبر القوم في خروجهِ وما حطهُ عنهُ لهم من المال في دخولهِ وما وقف عليهِ من الحقائق واطلع عليهِ من ضياع الأمور وفوضويَّة الجمهور .

فحسبت محدثي يبالغ وظلت أعتقد ذلك حتى دخلت الأستانة وعرفت أحوالها فعلمت أن الرجل لم يقل غير ما يقولهُ كل من أقام في ذلك البلد زمنًا .

يأتي المعزولون من المأمورين على اختلاف طبقاتهم زرافات ووحدانًا إلى دار السلطنة . هذا عزل لطول مدتهِ في وظيفتهِ وذاك عزل لسقوط دعامتهِ وزوال حمايتهِ وهلَّم جرًّا فيدخلون وعبابهم مملوءَة بالمال ورؤوسهم بالآمال فيطوفون على بيوت الكبراءِ والوزراءِ والكتَّاب والحجاب ويقدمون الهدايا والتحف للناظر والوكيل والكاتب والحاجب والنديم

. والصاحب ويباشرون وظيفة الوقوف للسلام صباح مساءَ فيصطفون صفوف القائمين للصلاة على أبواب النظارات فيركعون لإشارة بالكف أو نظرة بالطرف ممن يمر عليهم من ولاة الأمور ويقيمون على هذا الحال سنوات والكاتب يعدهم والحاجب يمنيهم وحبل الأمل مطوي على القلب لطولهِ طي البكرة كلما انفصل منهُ ثنيٌ بدا ثنيٌ . ولا ينفعهم ما يظهرون من علامات الفقر وإشارات الفاقة من الأسمال البالية والعيون الباكية لأن القوم أدهى من أن يخدعوا بهذا وكيف يخدعون وعندهم العيون والأرصاد عليهم فهم يعلمون بما لهم من الثروة والعقار في بلادهم وما باعوا وما بقي فإذا استنزفوا ما يملكون وأخرجوهم من مالهم خروج الحية من قميصها أعادوهم إلى الوظائف ليجمعوا لهم الأموال في رجعة أخرى .

فيخرجون من الأستانة وقد وقفوا على القصد الحقيقي من السلطنة والدولة والخلافة والإمامة والجيوش والمعاقل والحصون والرتب والنياشين وهو حفظ ذات مولانا السلطان حفظهُ الله وأبقاهُ وجعل الأمة والدولة فداهُ . فلا يرغبهم في استبقاءِ وظائفهم عدل وإنصاف ولا يرهبهم خشية العزل ظلم واعتساف بعد إقامتهم في تلك المدرسة أعوامًا وبعد دخولهم وراءَ الملعب ورؤْيتهم صور اللاعبين كما هي وبعد معرفتهم بخوف زيد وعجز عمر وأكاذيب بكر وألاعيب خالد وبعد أن صارت القبة الَّتي كانوا ينظرونها من بعدٍ حبةً من القرب . فلا ترى الرعيَّة منهم بعد ذلك إلَّا نمورًا تمزق الأعضاءَ وأسودًا تفرق الأشلاءَ وأفاعي ناهشات وعقارب قاتلات ولا يروق منها إلَّا نقادًا وحملانًا ليس لها ما تدفع بهِ .

وما رأْيك في قوم علموا أن الحكومة حظرت على المطبوعات أن تجمع في جريدة بين حرفين لظلامة مظلوم أو شكاية شاكٍ وعرفوا أن لا عقاب على الرشوة ولا مؤَاخذة في استعمال القسوة ولا جناح على الكاذب ولا عيب على الخائن ولا وصمة على المنافق .

قال رجل من الأتقياءِ الصلحاءِ لصاحب لهُ كان يعاشرهُ : « قد عزلوني ولا ذنب لي كما تعلم فجئت هنا وقد مضى عليَّ ثلاثة أعوام وأنا أبعثر الأموال وأقبل الأذيال حَتَّى لم يبقَ لي مال ولا لوجهي ماءٌ . اضحك إذا ضحكوا واغضب إذا غضبوا واحزن إذا حزنوا والعن إذا لعنوا وامدح إذا مدحوا وما نلت منهم إلَّا وعدًا صار في أذني رعدًا مطرهُ من دموعي الهتانة وبرقهُ من ثناياهم البسَّامة وقدمات أبي في بلادي ومرض ابني ووضعت زوجتي وبيع أثاث بيتي وصرت لطول المدة لا أقدر على الرجوع خائبًا ولا على الإقامة محتاجًا وقد عينوني في وظيفة وقبل سفري إليها حولوها إلى آخر لقوة المنسوب إليهِ وشدة نفوذِهِ وهم يعدونني الآن بوظيفة في طرابلس الغرب وأنا أنتظرها انتظار المريض الشفاءَ وليس لي همّ إلَّا أن أكون يومًا من الأيام في عدد الذين يسلمونها إلى إيطاليا أو فرنسا » .

هذا حال المأمورين وهذه نياتهم وعزائمهم . أيصلح بهم بعد هذا أمر ويرأب بهم صدع ويرتق بهم فتق ويؤمن بهم على راحة وأمن . كلَّا ثم كلَّا .

أما الولاة فكثيرًا ما يعزلون وينقلون من ولاياتهم بذنب أنهم محبوبون من الأهالي كما حصل لعثمان باشا والي الحجاز سابقًا فإنهُ عزل عن الحجاز بدعوى أن الأهالي يحبونهُ ويسألون الله في الحزم أن يبقيهُ فيهم فجعلوا من هذا سببًا عظيمًا لعزلهِ فعزل . وإن كثيرًا من الناس يوظفون في الولايات لإبعادهم عن الأستانة فينفون على هذه الصورة فمنهم أحمد أفندي قدري صاحب جريدة الاعتدال بقى فيه الأستانة مدة طويلة بعد إلغاءِ جريدتهِ يقاتل الاحتياج وأصحابهُ الذين ألغى كامل باشا [1] جريدتهُ لأجلهم

(١) كامل باشا : ولد في قبرص سنة ١٨٣٢ (وقيل ١٨٢٦) تخرج في المدرسة العسكرية بالإسكندرية ، وتقلد مناصب كبرى ، فكان متصرفا لبيروت وطرابلس والقدس ، وعين واليا على قوصوه ثم حلب ، وترقى فصار وزيرا للأوقاف ، ثم تولى الصدارة العظمى وعزل منها ، ثم أعيد إليها ثم خلع مرة أخرى وصار واليا على حلب وحدثت=

يجودون عليهِ بسد الرمق أحيانًا لإسكاتهِ عن كشف ما يعلمهُ من مستور أمورهم ولما ضاق بهِ الحال جاءَ إلى نظارة المعارف وقال على ملإٍ من الحاضرين « إني قدمت كثيرًا من العرائض للباشكاتب ثريًّا باشا لالتماس خدمة من جلالة السلطان فما أجابني عنها بجواب وقد استعرت اليوم مسدسًا وملأتهُ بالرصاص وأنا عازم على قتل ثريا باشا في الجامع الحميدي عند حضور جلالة السلطان للصلاة » فطار الخبر إلى المابين في الحال فصدرت الإرادة السنيَّة لناظر الضبطيَّة يأخذ المسدَّس منهُ أولًا وبتعيينهِ باشكاتب في متصرفيَّة بلدتهِ طرابلس الشام بألف وخمسمائة غرش وبأن يبقى في الضبطيَّة حَتَّى تسافر الباخرة إلى تلك الجهة . وما أقدم قدري أفندي مع ذكائهِ على هذا القول المستوجب للمحاكمة إلّا وهو على يقين أن يأتي بخيرهِ ونجاحهِ لأنهُ كان من زمرة اللاعبين في الملعب . فمن يخاف هذا المأمور بعد ذلك وممن يخشى ومن يقي عباد الله من بؤسهِ . وقس على هذا كلهم أو جلهم . قال نافع أفندي وهو من الولاة المعزولين ومن الطرز الأول لمنيف باشا وقد سمع بهذا وأشباههِ قد طالت عطلتي وإني أرتب الآن في نفسي كلامًا يخشن مسهُ لأقولهُ أمام جاسوس عسى أن أُنفى لهُ بوظيفة في الخارج .

ولقد صار الولاة والحكام والعلماءُ يراؤُون بالرذائل والنقائص ليأْمنوا على وظائفهم ويعيشوا في بلدتهم ومسقط رأْسهم ونحن نذكر حكاية نموذجًا لهذا ، تولى قاضٍ لاسلامبول من أهل التقى والصلاح وكان لهُ صديق حميم فتقدمت للمحكمة دعوى لصاحب من أصحاب ذلك الصديق فوجد من القاضي انحرافًا عن الحق . ولما خرج من عندهِ قال لهُ

=اضطرابات وسرقات أثناء توليه أمور حلب فنفاه السلطان إلى رودس فلجأ إلى إنجلترا، وبعد عزل السلطان عبد الحميد كان عدوًا للاتحاديين وإن تقلد الصدارة العظمى في عهدهم، وتوفي في قبرص في نوفمبر ١٩١٣ . (ط)

أحد الحجاب كم تدفع لخلاص دعواك . فلم يجبهُ ورجع إلى صاحبِهِ وقصَّ عليهِ ما جرى فلم يصدق الخبر وذهب إلى القاضي ورجا منهُ أن ينصر الحق في تلك الدعوى فوعدهُ . ولما عاد صاحب الدعوى إلى القاضي رأى منهُ ما رأى أولًا . وعند خروجهِ قال لهُ الحاجب ثانيًا « لا تنتهي دعواك إلَّا على ما بينت لك » فذهب الرجل إلى صاحبِهِ وحلف لهُ على صحة ما جرى . فغضب الصديق ورجع إلى القاضي يعاتبهُ ويقبح مسلكهُ الذي اتخذهُ بعد توليتِهِ القضاءَ . وبعد جدال ونزاع طويل جرى بينهما قال لهُ القاضي أتريد أن يشهر عني خلاف ما عليهِ القوم فيحنقوا عليَّ ويسخطوا ويظنوا بي الظنون ويجعلوني غرضًا لهم . فخرج الرجل من عند القاضي وهو يلعن العذر والمعتذر ويقول لن تفلح أمة يرائي قاضيها بالارتشاء .

أما نحن فنقول إن كان القاضي صادقًا في اعتذارهِ كان من فظائع البلاءِ أن يصبح الارتشاءُ بين قوم من الرياءِ كاذبًا فمحمول على مسند القضاءِ في الدولة كما قال أبو الحسن الجزار الشاعر وقد دعاهُ أصحابهُ يومًا ليخرج معهم للنزهة خارج المدينة فوقفوا في طريقهم على جزار ليشتروا لحمًا وترجوهُ أن يقطعهُ لأنهُ أدرى باطايبهِ فقطع لهم لحمًا رديئًا فلاموهُ فقال لهم اعذروني ولا تؤاخذوني لأني لما وقفت وراءَ القرمة أدركني لؤم الجزارين .

لا يشك خبير أن دار السلطنة أُمّ العجائب في تقليد الوظائف لغير أهلها وليس هذا قاصرًا على الوظائف الإداريَّة والقلميَّة والسياسيَّة بل تعداها إلى الرتب والمناصب العسكريَّة والبحرية . فمن أعجب العجائب أن رجلًا كان يمشي فوجد ضابطًا بحريًّا بسيفهِ وملابسهِ الرسميَّة يقصدهُ في طريقهِ ضاحكًا ولما دنا منهُ سلم عليهِ والرجل ينكرهُ . فقال الضابط أنا فلان . قال الرجل ما هذا الذي أراهُ يا فلان وأنت لم توظف قط ولا دخلت زمانك العسكريَّة ارجع فاخلع ثيابك واعلم أن العقاب شديد على من

يفعل ما فعلت ولا أرى إلَّا رجال الشرطة يأخذونك إن لم ترجع في الحال من طريق غير مطروق فانجُ من مصيبة أوقعك فيها الشباب والجنون . قال الضابط اصمت يا هذا فأنا لا أرضى أن أكون ضابطًا عسكريًا كما توهمت بل إني ضابط بحري وأزيدك أيضًا أني عضو في مجلس البحريَّة بموجب الإرادة السنيَّة . قال الرجل عوضنا الله فيك خيرًا فأنت رجل مختل الشعور ثم ودعهُ وانصرف مسرعًا يترقب إن كان قد رآهُ معهُ أحدٌ . وبعد يومين علم بصدق ما بالغ في تكذيبهِ فخرج من الأستانة ولم يعد إليها .

ومن ذلك الفريقان الياوران محمد باشا ومحيي الدين باشا نجلا الأمير عبد القادر الجزائري فإنهما كانا باديءَ الأمر برتبة الحرمين العلميَّة ثم انتقلا إلى رتبة روم إيلي بكلربكي الملكيَّة في دمشق الشام ولما قدما دار السعادة تقلدا رتبة الفريق بسيفها وشرائطها وهما لا يعرفان من تعليم الجندي حرفًا وقد أراد أحد الضباط لما سمع بهذا الخبر أن يَكسر سيفهُ وقال كلهُ يحتمل إلَّا هذا .

وكان الباب العالي مرجع الوزارات والولايات والسفارات والسياسات الدوليَّة ومصدر التوظيف والعزل والنقل وتوجيه الرتب والنياشين على مستحقيها وكان الصدر الأعظم مسؤولًا أمام الحضرة السلطانيَّة عن جميع الشؤون كبيرها وصغيرها في أنحاء السلطنة ومع الدول فكان يتحرى جهدهُ مع زملائهِ في مجلس الوكلاءِ في ترتيب الأمور وسياسة الجمهور وتقليد الوظائف أربابها على أكمل ما يستطيع من حسن الترتيب . وما كان لأحد من الوكلاءِ والوزراء أن يخاطب جلالة السلطان في شأن من الشؤون ولا أن يذهب إلى المابين من غير إذن من الصدر الأعظم الذي هو الوكيل المطلق بنص فرمان الصدارة . فانحل ذلك النظام واختل ذلك

الترتيب وصار الصدر الأعظم لا يعلم بتوظيف زيد وعزل عمرو إلَّا بعد أيام من وقوعهِ وصار الباب العالي ديوانًا للقيد والتسجيل وانحصرت أمور الدولة في رجال المابين فاختلطت الوظائف بعضها ببعض وتقلدها غير أربابها وأصبح الشيخ سفيرًا في سياسة الدولة مع الانكليز كالسيد أحمد أسعد وطابخ الشاي واليًا كعزت أفندي ولاعب التياترو مابينجيًا يبعث إلى السفراءِ كعارف بك وهلمَّ جرًّا على هذا النمط حَتَّى أمستِ الوظائف كخرزات مختلفة الألوان وضعها واضع في جعبة ثم جلجلها ما استطاع وفتحها فانكب عليها شبان المابين يفرقون ما وقع في أيديهم على أصحابهم . فكانت نتيجة هذا ما تراهُ اليوم من حال الدولة في نصفها الثاني بعد ضياع النصف الأول .

وآخر صدر حافظ على حقوق وظيفتهِ خير الدين باشا فإنهُ استؤذن عليهِ يومًا لبهرام آغا وكان في ذلك الوقت باشمصاحب ولما دخل عليهِ قدم إليهِ جدولًا بأسماءِ أشخاص يوظفهم وآخرين يزيد في رواتبهم . فقال لهُ الصدر مالك وهذا يا وصيف قف حيث أوقفتْك وظيفتك على باب الحرم ولا تدخل في شغل غيرك . ولما خرج بهرام آغا سأل عن معنى « وصيف » فقيل لهُ معناهُ في تونس الخويدم . فامتلأَ إِهاب الآغا على الصدر حقدًا . ودخل عقب هذا عليهِ السيد أحمد أسعد ومعهُ قائمة كالأولى فسألهُ عن وظيفتهِ فقال وكيل الفراشة الشريفة . قال أيها الشيخ وظيفتك هي أن تدعو لجلالة السلطان . فخرج من عندهِ يعض على ناجذيهِ لطلب الانتقام منهُ . ولما رأى خير الدين باشا أن لا قدرة لهُ على مقاومة أهل المابين استعفى من الصدارة . وقد أراد كامل باشا في صدارتهِ الَّتي سبقت هذه أن يردّ إلى الصدارة بعض شأنها فقام عليهِ الشيخان أسعد وأبو الهدى واشترك معهما

غيرهما فدسوا الدسائس ونصبوا المكايد ومدوا حبال السعايات حَتَّى أقنعوا جلالة السلطان أن كل صدر يحاول إرجاع الصدارة إلى شأنها الأول لا ينبغي إبقاؤُهُ في الصدارة يومًا واحدًا والشاهد مدحت باشا . فعزلهُ جلالة السلطان . وصار الباب العالي الذي كان موضع المناجاة السياسيَّة والمخابرات العالية وبين الصدر وسفراءِ الدول ميدانًا للملاكمة والمشاتمة بين الصدر والوكلاءِ كما وقع أخيرًا بين جواد باشا [1] الصدر الأسبق وحسين رضا باشا ناظر العدليَّة ولولا دفاع الوزراء ودعاءُ شيخ الإسلام لسال دم الوكلاءِ في المجلس العالي قبل سيل دماءِ الأرمن على بابهِ .

ولا يزال الأمر في أيدي أهل المابين يتصرفون فيهِ فإن سمعوا بفاضل أبعدوهُ أوسعوا في أبعاد الناس عنهُ بنسبة نقيصة أو فضيحة إليهِ كما وقع لمنيف باشا وهو رجل مشهور بالفضل والحكمة حين قام صاحب جريدة الميزان وهو مأمور من دائرة وزارتهِ يَكتب فيهِ بكلام صريح ما يخالف عفة شيخ من الوزراء تحت إدارتهِ مدارس البنات والوزير ساكت لا ينطق بحرف ولا يدافع عن نفسهِ بكلمة لعلمهِ أن قلم المطبوعات الذي يمحو من الجرائد لفظة حريَّة . ملة . أمة . خطبة . سيف . قوة . صلاح . جمهوريَّة مجلس نواب . مجلس ملة . مجلس أمة . ولي عهد . جمعيَّة . تجمع . اجتماع

(١) جواد باشا : ولد في دمشق ١٨٥٠ وتعلم في بُرصّه بتركيا ونال الشهادة العسكرية ، وحارب في الطونة وفي غيرها ، وتولى مناصب في الأناضول بالقرب من الحدود الروسية، وفي الجبل الأسود ، وكان واليا على جزيرة كريت ، ثم تولى الصدارة العظمى سنة ١٨٩٠ وحصل على نياشين عديدة من السلطان والدول الأوربية ، وألف كتابين « المعلومات الكافية في الممالك العثمانية » و « تاريخ عسكري عثماني » ، وتوفي سنة ١٩٠٠ انظر (تراجم مشاهير الشرق) . (ط)

وما يشتق منهُ[1] - لا يجسر أن يقرأ قذف وزير من وكلاء الدولة ولا يمحوهُ

---

(١) من الكلمات الأخرى التي منع مراقبو الصحف تداولها ، ما أورده سليم سركيس في كتابه « غرائب المكتوبجي » حيث ذكر أن لقب « جلالة » لا يستعمل إلا للسلطان ، فإذا قال صحفي : « جلالة إمبراطور روسيا » تحذف ، وحظروا استخدام كلمة « مراد » وعندما غنى عبده الحامولي دور :

غـــاب عـــن عينـــي مـــرادي وانهمـــل دمعـــي صـــبيب

غيروا كلمة « مرادي » بـ « حبيبي » في حضور السلطان عبد الحميد .

حتى لا يتذكر الناس السلطان مراد السجين .

وكان الرقيب - يحذف كلمة « الحركة » لأنها تعني الثورة ، وعندما نشرت جريدة الأحوال خبر قدوم عز تلو إلياس بك الباشا من رحلة إلى بيروت غير المكتوبجي (وهو مراقب الصحف) لقبه من باشا إلى باشه لئلا يظن أنه نائل رتبة الباشا .

وفي عمل الرقيب على الصحافة والمطبوعات قال أحمد شوقي :

لنـــا رقيـــب كـــان مـــا أثقلـــه الحمـــدُ لله الـــذي رحَّلـــه

لـــو ابـــتلى الله بـــه عاشـــقا مـــات بـــه لا بـــالجوى والولـــه

لـــو دام للـــصُّحف ودامـــت لـــه لم تـــنج منـــه الـــصُّحف المنزلـــه

إذا رأى الباطـــل غـــالي بـــه وإن بـــدا الحـــق لـــه أبطلـــه

لو خال « باسم الله » في مصحفٍ تغـــضب تحـــينا محـــا البـــسمله

وقد نشرت المؤيد مقالا بتاريخ ١١/ ٢/ ١٩٠٠ بعنوان « المطبوعات في دار الخلافة » ذُكر فيه أن الجرائد تئن أنين ذي الداء العضال بعلة الرقيب وتسلطه العجيب » .

انظر المشرق سنة ١٩٠٩ .

الشوقيات المجهولة جـ ٢ .

غرائب المكتوبجي .

المؤيد في ١١ فبراير ١٩٠٠ (ط)

ولا ينبه على كاتبهِ وطابعهِ ليعاقبا إلَّا بايعا زمن السراي الشاهانيَّة . ولما رأى أحد أصدقاءِ الوزير ما أَلمَّ بهِ من الغم والهم قال لهُ تالله إن ذهبت اليوم إلى السراي بعد هذا الذي كتب فيك ترى من الالتفات والإقبال مال يسرك لأن ابتعاد الناس عنك بمحو فضائلك يقربك من جلالة السلطان . فذهب الوزير كما قال صديقهُ فنال من الالتفات والاكرام والاحسان ما لم يرهُ طول حياتهِ .

السفراءُ:

إن أهم الوظائف قدرًا وظيفة السفير لأنهُ صورة الملك والأمة المبعوث منها إلى ملك آخر وأمة أخرى . فينبغي أن يكون همهُ تحسين تلك الصورة من جهة ومعرفة خفايا سياسة الدولة المبعوث إليها وسياسة دولتهِ المبعوث منها من جهة أخرى . وعلى هذا يجب أن يكون من دهاة الرجال الصادقين المحنكين المتقلبين في فنون السياسة . والأمر في سفراءِ الدولة بالعكس فإن شذَّ في الحنكة والدرية واحد منهم كان مثل المرحوم أسعد باشا سفير الدولة في باريس . ومع وصفهِ بهذا الوصف فإن علمهُ أضرَّ بالدولة لاشتمال اليأس عليهِ واجتهادهِ في إدخال غيرهِ في يأسهِ . فقد قال لأحد الفضلاءِ لما رآهُ دائبًا مجتهدًا في نصح الدولة وإيقاظها من نومها بكتاباتهِ وخطبهِ « أيها السيد الفاضل إن الله أراد موت هذه الدولة فكيف تقدر على إحيائها أنت » .

أَيقول هذا سفير . أظن أن جزاءَ هذا القول لا يوجد في قانون هؤُلاءِ هم الذين في أيديهم روح الدولة في أوربا وهؤُلاءِ هم صور الملك والأمة العثمانيَّة أمام الملوك والأمم في أوربا . يا خيبة المسعى ويا ضياع الأمة ويا سقوط الدولة . ولكن ماذا ينقص السراي الهمايونيَّة إذا كان السفير يواظب

ليلًا ونهارًا على إرسال التلغرافات بما تكتبهُ الجرائد فيما يمسُّ الجلالة الخاقانيَّة . ويقال أن ما ينفق على هذه التلغرافات لا يبلغ ما ينفق على مصلحة الدولة السياسيَّة معاشرةً . ومن العجب أنَّ سفراءَ الدولة يرون الملوك ويجتمعون بهم ويعاشرونهم ولا يرون الذات المقدَّسة الشاهانيَّة الَّتي بعثتهمَ . ومما يتأسف لهُ العثماني أن يرى دولتهُ قد استعملت من التملق للدول ما أضحك الأوربيين علينا فإن العادة كانت جارية أن تعطي الدولة لسفراءِ الدول الذين من الطبقة الأولى نشانها العثماني الأولَ وتعطي للذين من الطبقة الثانية نشانها المجيدي الأول وكانت الدول تقابل سفراءَ الدولة بالمثل فتعطي سفراءَها نياشينها والآن تعطي دولتنا لسفراءِ الدول النشان العثماني المرصع وسفراءُ الدولة لدى الدول لا ينالون شيئًا فأي انحطاط . أقبح من هذا الانحطاط وأي هوان أفظع من هذا الهوان .

أما سفراءُ الدولة الذين لم يشذوا من كلية الجهالة وقاعدة الحمق والخرق فيضرون الدولة بغباوتهم كما يضرها الشاذُّ بعلمهِ على ما ذكرنا آنفًا ونذكر نموذجًا ليقاس عليهِ . كان للدولة سفير في رومية وهو الآن في الأستانة حضر يومًا إلى حانوت يخص إدارة جريدة « الإيطالي » لبيع جرائد المبادلة الَّتي ترد إليها من الممالك والأقطار وكان في هذا الحانوت أحد المصريين جالسًا . فقال السفير لاجير الحانوت: كيف حق لكم أن تضعوا رسم غردون باشا المقتول في الخرطوم بالملابس الرسميَّة والطربوش على رأسهِ وهو انكليزي . قال لاجير: إن السفير أخطأ أولًا في إرسالك إلى هنا فإنهُ كان يلزمهُ أن يرسلك إلى وزارة الخارجيَّة وأخطأ ثانيًا لأنك تلقب الانكليزي باشا وتنكر لبسهُ الطربوش العثماني . فاغتاظ السفير وشرع يتكلم بحدة فاحتد لاجير أيضًا وكاد الأمر يفضي إلى المشاتمة . ولما رأى

المصري وصول الأمر إلى حدّ لا تليق معهُ الفرجة قام فأصلح بينهما وقال للاجير: إن حضرتهُ هو السفير عينهُ . فضحك لاجير، وعبس السفير وانتهى الإشكال السياسي . وفي هذا السفير يقول موسيو جليان قنصل الدولة في رومية أنهُ يكون معهُ في حلّ تلغراف سري بالأرقام وارد إليهِ من الخارجيَّة فينظر من النافذة فيرى امرأةً سائرة في الطريق فيخرّج ليحادثها ويغازلها ويترك القنصل قائمًا والتلغراف في يدهِ منشورًا إلى أن يعود فيعتذر بأَبرد الأعذار .

ولا يصعب على الدولة الَّتي يكون هذا السفير في عاصمتها أن يستولي على مصوع [١] وغيرها من أملاك دولتهِ . وقد أقام هذا السفير الذي يشبههُ معظم سفراءِ الدولة في الفطانة سنين عديدة في رمية يحلُّ التلغرافات بحذاءِ النافذة .

نسأَل الله سبحانهُ لدولةِ هؤلاءِ صدورها ووزراؤُها وسفراؤُها وولاتها وقضاتها أن يخفف عنها ويرحمها ويحقق آمال رعيتها بها .

(١) مصوع : ميناء على البحر الأحمر ، كان تابعا لمصر في عصر إسماعيل وقد استولى عليه الطليان ضمن أراض كثيرة . (ط)

المقالة الثانية عشرة

الدعاوي في الأستانة

قدم على الوليد رجل من عبس ضرير محطوم الوجه فسألهُ عن سبب ذلك فقال بتُّ ليلة في بطن وادٍ ولا أعلم في الأرض عبسيًّا يزيد مالهُ على مالي فطرقنا سيل فذهب بما كان لي من أهل ومال وولد إلّا صبيًّا وبعيرًا فندَّ البعير والصبي معي فوضعتهُ واتبعت البعير فما جاوزت ابني قليلًا إلّا ورأس الذئب في بطنهِ يفترسهُ فتركتهُ واتبعت البعير فرمحني رمحة حطم بها وجهي واذهب عيني فأصبحت لا ذا مال ولا ولد ولا ذا بصر . فقال الوليد بن عبد الملك اذهبوا بهِ إلى عروة بن الزبير ـ وكان قد أصابهُ بلاءٌ متابع ـ ليعلم أن في الناس من هو أعظم بلاءً منهُ .

وصاحب دعوى في الأستانة أعظم والله بلاءً وأكبر مصيبة منها . ولقد كان يجب على الآباءِ والأمهات أن يدخلوا في جمل الدعاءِ لأبنائهم أن لا يحكم الله عليهم بدعوى في الأستانة فإن الدعوى فيها قصامة الظهور لإبطاءِ الحكم وإهمال الفصل فيها أو لمصيبة الحفظ لأوراقها وربما ورث الابن دعوى أبيهِ وجدهِ .

دخل رجل على ناظر الضبطيَّة وكان معهُ صاحب لهُ فقال الناظر لصاحبهِ أتعرف هذا الرجل . قال لا . قال هذا رجل من أهل الشام جاءَ إلى الأستانة في دعوى لهُ وأخذ تذكرة الباخرة ذهابًا وإيابًا وكان يظن أنهُ لا يقيم هنا إلّا أيامًا والآن بعد سبع سنوات إقامها حتى وصلت حالهُ إلى ما

ترى من أسمالِهِ البالية وما خلصت دعواهُ ولا خلص من بلواهُ . وقد أصبح قولهم « دعوى في الأستانة » في ولايات الدولة من أشد أنواع التهديد فيفصل الولاة والقضاة والمتصرفون (جمع متصرف وهو أليق وصف لحاكم تركي) معضلات الدعاوى إذا ذاك فيرضى المظلوم أن يظلم في بلدهِ ولا ينفي إلى دار السعادة فيجمع على نفسهِ بين ظلمهِ ونفيهِ وفقرهِ وموتهِ .

مرَّ المرحوم عبد الله باشا فكري في أسواق الأستانة فوجد رجلًا في حانوت يبيع أصنافًا من المناديل فوقف عليه ليشتري منها وفي أثناءِ حديثهِ مع الرجل رأى عليه مخائل طيب الأصل فسألهُ عن بلدهِ فقال الرجل من بغداد يا مولاي وكنت في بلدي من عِلية قومي فرماني القضاءُ والقدر في هذا البلد لدعوى بيني وبين جماعة من أهل بغداد فجئت إلى دار الخلافة لأنال من عدل الحكومة إنصافي فبقيت ثلاثًا وعشرين سنة ودعواي واقفة لا يحكم لخصومي فأستريح باليأس ولا يحكم لي فأحصل على حقوقي وقد بعت جميع ما أملك وانتهى بي الاحتياج إلى ما ترى (لا قدر الله عليك بدعوى في الأستانة) .

والبلاءُ كل البلاءِ أن يقال على الدعاوى كلمة « دورسون » يعني: (ليحفظ) وما سمعنا بحكومة في الإسلام تحكم بالقرآن جعلت إيقاف الحكم في دعاوي العباد المتظلمين إليها شرعًا أنزلتهُ عليها من سماءِ سياستها . ولقد صار هذا الحفظ من النواميس الطبيعيَّة لأن كل دعوى في الأستانة قوتين قوة جاذبة وقوة دافعة فإذا غلبت إحداهما على الأخرى لحقت الدعوى بالغالبة فإذا تساوتا وقفت وهذا هو المسمى في عرفهم بالحفظ . اللهمَّ أن الضياع خير من الحفظ .

وتلحق مصائب أخرى بالدعاوى فمن النوادر أن رجلًا من أهل حلب

جاءَ لدعوى في وقف بتوكيل من المستحقين الذين يبلغون سبعين شخصًا من أرامل وأيتام فأقام ثلاث سنين يتردد على نظارة الأوقاف وعلى الصدارة حَتَّى أشرفت دعواهُ على الانتهاءِ وأخذ يستعد للسفر جذلان فرحًا لخلاص أشغالهِ في تلك المدة الوجيزة ولم يبقَ عليهِ إلَّا أن يذهب إلى مقام المشيخة الإسلاميَّة لتضع تصديقًا على أوراقهِ . فذهب إليها وقدم أوراقهُ إلى أحد الكتاب فوعدهُ الكاتب بعرضها على المستشار ليأمر بهذا التصديق المطلوب ولما حضر المستشار وعرض الكاتب عليهِ تلك الأوراق استشاط غضبًا وأخذ يشتم صاحب الدعوى ويسبهُ بأنواع من السب والشتم لا تخطر على بال أسفه السفهاءِ وأمر الكاتب بإحضار الرجل في الحال . ولما دخل الرجل على المستشار مع الكاتب وهما لا يعلمان سببًا أوجب تلك الشتائم أعاد المستشار الكرة على الرجل بالشتم وقد همَّ بضربهِ . ولما سكن عنهُ بعض الغضب قال للرجل كيف تسمى نفسك بسلطان . قال يا سيدي أنا لم أسمِّ نفسي وإنما سماني أبي وهذا الإسم شائع يسمى بهِ أشخاص كثيرون وقد بقيت ثلاث سنوات وأنا أتردد على نظارة الأوقاف وعلى مقام الصدارة العظمى وأسمى يكتب في السجلات والأوراق وما سمعت هذا الاعتراض من أحد غيرك . قال المستشار أتريد أن تقيم عليَّ الحجة وأشار إلى الكاتب بحفظ الأوراق وأمر بطرد الرجل من المشيخة والتنبيه بعدم دخولهِ إليها أن عاد . فخرج الرجل باكيًا على ضياع حقهِ وحقوق موكليهِ المساكين الذين لا ذنب لهم إلَّا أن وكيل دعواهم اسمهُ محمد سلطان . وكان الرجل يتردد على بيوت الأمراءِ فإذا رأوهُ لا يزيدون على التبسم لغرابة ما حصل لهُ وما وجد منهم رجلًا تأخذهُ الغيرة والحميَّة لعرض أمرهِ على جلالة السلطان وكان الشيخ أبو الهدى إذا رآهُ توجع لحالهِ وربما حكى لمن

حولـهُ قـصتهُ الغريبـة بفـصاحتهِ المشهورة ومـا زادهُ شـيئًا عـن ذلـك التبـسم الآخذ بمجامع القلوب إلَّا قلب صاحب الدعوى ولا يعرف قيمة الجوهر إلَّا مقوّمهُ . والرجل كان كثير الشكوى منهُ لأنهُ من بلدهِ ولـهُ معرفة قديمة بهِ .

أن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم في الموطن الخشنِ

هذا حال أرباب الدعاوى في دار الخلافة ومقر السلطنة ومهبط العدل السماوي والإلهام الإلهي ومؤتلف الكتاب والسيف في إيمان البيعة فإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا بالخسران والخذلان فبكوا وأبكوا وحزنوا واحزنوا وماتوا كمدًا وأماتوا . وممَّا يزيد حزن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يروا العدل باسمًا والظلم باكيًا بين رعايا الدول الأوربيَّة ومما يجب مفارقة الحياة أن يسمع المسلمون أن الدول تأمر دولة الإسلام بإجراءِ العدل بين رعيتها وكان اللائق بمقام الإسلام أن تأمر دولتهُ دول العالم بما يأمرنها بهِ الآن من إجراءِ العدل بين رعاياها . وهل كانت وظيفة الخلافة في الإسلام غير رفع الظلم عن المظلومين في أنحاءِ العالم وهل فتحت الممالك إلَّا بهذا ولهذا ؟



المقالة الثالثة عشرة

المشايخ

هم حملة عرش الخلافة وعددهم أربعة وهم الشيخ السيد أبو الهدى الخانشيخوني الحلبي والشيخ السيد أحمد أسعد القيصرلي المدني والشيخ السيد فضل باشا المليباري المكي والشيخ محمد ظافر المدني المغربي . وقد اختلف الناس اختلافًا عظيمًا وتعددت آراؤُهم في سبب قربهم من حضرة مولانا الخليفة والتصاقهم ببساطهِ وهم من الأمة العربيَّة وما وضع عربي مهما كان حسبهُ ونسبهُ جبهتهُ منذ تأَسست السلطنة العثمانيَّة حيث تطأُ الآن أقدامهم وما مدَّ عربي بصرهُ حيث يمدُّون أيديهم وما حدَّث عربي نفسهُ قبلهم أن يحدّث جلالة الخليفة في نجواهُ ويدخل معهُ في شؤُون السلطنة فيعزل الصدور ويوليهم ويبعدهم ويدنيهم بنصحهِ .

فمن الناس من يقول: إن سبب هذا القرب وهذه الزلفى ميل جلالة السلطان إلى استطلاع المغيبات منهم لأن لهم مزاعم واسعة ودعاوى عريضة في هذا الباب . ومنهم من يقول أن سبب قربهم لهذا الحد من مقام الخلافة هو ما رتبوهُ في فكر جلالة السلطان بمقدَّماتٍ قدَّموها من أن سكون الأمة العربية وحركتها في أيديهم فإذا شاؤُوا قامت وإذا شاؤُوا سكنت .

ومن قدماءِ الأتارك جماعة يقولون: إن الدولة لما ذهب من ممالكها ما ذهب في الحرب الروسيَّة وصارت الأمة العربيَّة أعظم قسم تحكم عليهِ من

أجناس رعيتها جنحت إلى استعاضت ما فقدتهُ من شأْنها بتجديد اسم الخلافة الذي كان لا يذكر إلا قليلًا حينًا بعد حين في ألقاب السلاطين السالفين الذين كانوا في غنى عن قيودها وشروطها بقوة السلطنة وبسطة السلطة وانتشار السطوة وكانت الأمة العربيَّة تحدث نفسها دائمًا بأن الخلافة في قريشها بحكم النص وأنها مغلوبة عليهِ بحكم القوة فارتأَت الدولة من - الحكمة والسياسة أن تضع من شأْن الأمة العربيَّة وتسلب عنها الاستعداد للقيام بأمر عظيم أمام الأمم فاختارت أولئك المشايخ رؤَساءَ وسادات وفسحت لهم بطعن بعضهم على بعض فقالوا ونشروا وأعلنوا في بعضهم البعض من أنواع السب والقذف ومن التفسيق والتكفير ما أَسقط الجميع ولكن زادهم تثبيتًا وتمكينًا في مراكزهم ومقاماتهم . ولو قيل في غيرهم معشار ما يقال فيهم لم يتحمل الملك قربهم ولم تطق السلطنة نسبتهم إليها . ومن قرأَ ما يَكتبهُ بعضهم في بعض حكم بأن السلطنة لم تقبلهم معهُ إلَّا لأمر فوق كشف المغيبات وفوق حفظ الأمة أن تثور لوجود من يقوم بهِ سواهم . هذا قول من قدماءِ الترك فيهم .

وقد عزمنا أن نذكر كيف اتصلوا في ابتداءِ أمرهم بجلالة السلطان ونبدأُ بالشيخ السيد أبي الهدى ثم نذكر ما يقول بعضهم في بعض وما يقول خصومهم عليهم وما يقول أحباؤُهم لهم وما ينسبونهُ إلى أنفسهم وآبائهم وأجدادهم من الكرامات وخوارق العادات .

وفد السيد أبو الهدى على الأستانة (وكان لا يلقب حيتَئِذٍ إلَّا بالشيخ) في آخر حكم المرحوم السلطان عبد العزيز في زي أهل الطريق فأَخذ ينشد على الذكر في إحدى التكايا ويضرب على الدف على رسم الطريقة الرفاعيَّة الَّتي هي طريقتهُ . وكان لهُ شعر مرسل كالرفاعيَّة . والشيخ حسن الصوت

فصيح اللسان صبيح الوجه ذكي القلب فجذب إليهِ نفوس بعض الأمراءِ المتصوفين من أهل الأستانة وهو لا يأْنف الآن من الإنشاد في حلقة الذكر ولا يمتنع عن الحضور بنفسهِ إليهِ إلَّا إذا كان مريضًا . ثم رجع من الأستانة إلى حلب بوظيفة نقابة الأشراف على حلب . ثم عاد إلى الأستانة بعد جلوس جلالة السلطان على تخت السلطنة بشهرين فتلقاهُ أصحابهُ بالاكرام وحسن النزل .

وفي ذلك الوقت رأَى جلالة السلطان رؤْيا فقصها على حالت باشا وكان من أصحاب الشيخ فقال لجلالة السلطان إني أعرف شيخًا واسع المعرفة لهُ جانب مع الله ولو أمر جلالة مولانا أن تقص عليهِ الرؤْيا لوجدنا عندهُ تفسيرًا لها مطابقًا للواقع . فأَمر جلالة السلطان بإحضارهِ ولما قصَّ عليهِ المبلغ الرؤْيا فسرها تفسيرًا لها مطابقًا للواقع . فأَمر جلالة السلطان بإحضارهِ ولما قصَّ عليهِ المبلغ الرؤْيا فسرها تفسيرًا أعجب بهِ جلالة السلطان فأَحسن إليهِ . وبعد ذلك بأَيام صعد الشيخ إلى المابين وقال قد رأَيت النبي ﷺ ليلة أمس في الرؤْيا فأمرني أن أبلغ عنهُ جلالة الخليفة كلامًا وأمرني أن يكون ذلك مني إليهِ من غير واسطة . فاهتزت السراي السلطانيَّة لهذا الخبر واستعظموا الأمر واستبشروا بالفتح وكانت الدولة تستعد لقبول إعلان الحرب الروسية وزاد جلالة السلطان في عيونهم قدرًا للاتصال بالحضرة النبويَّة . ووجد جلالتهُ في ذلك الوقت المفعم بالمشاكل والاضطرابات بهذا الخبر مفرجًا لكربهِ وحافظًا لنفسهِ ففرح وأمر الشيخ أبا الهدى أن يبلغهُ بالواسطة ما أمرهُ بهِ النبي ﷺ فامتنع وقال إنما أُمرت أن أبلغهُ ذلك مشافهةً ولا يكون أحد بيننا فقيل لهُ أن جلالة مولانا السلطان لا يعرف اللغة العربيَّة وأنت لا تعرف اللغة التركيَّة فكيف يمكن أن تخاطبهُ بلا واسطة فأصرَّ على ذلك وذهب من السراي وقد اشتدت الرغبة في

معرفة ما قالهُ ﷺ . وفي الغد أرسلوا بطلبهِ ولما حضر قالوا إن جلالة مولانا السلطان أمر أن يكون المترجم بهرام آغا فأبى وقال لا أفعل إلّا ما أمرني بهِ النبي ﷺ وتركهم . فحاروا في الأمر كثيرًا وبعد يومين صعد الشيخ ووجههُ يشرق بالبشر وقال قد جئت لأبلغ جلالة مولانا الخليفة بنفسي من غير واسطة فأنا الآن أتكلم باللغة التركيَّة وشرع يكلمهم بها بلسان فصيح . فسألوهُ كيف ذلك فقال أن النبي ﷺ جاءَني في الرؤْيا وتفل في فمي فتكلمت باللغة التركيَّة كما ترون وقد انحلَّ المشكل فلما سمع جلالة السلطان بهذا أمر أن يبحثوا إن كان الشيخ يعرف التركيَّة من قبل فجاؤُوا بشهود منهم حافظ باشا من نظارة الضبطيَّة وغيرهِ يشهدون أن الشيخ لم يكن يعرف كلمة تركيَّة قبل ذلك اليوم فدخل على جلالة السلطان وأبلغهُ الرسالة النبويَّة ولا يعلم أحد ما هي . ومن ذلك الوقت نال حظوة لدى جلالة مولانا السلطان لم ينلها أحد من قبلهِ وصار الوزراءُ والكبراءُ ومنهم المرحوم جودت باشا [1] صاحب التاريخ الذي مات معاديًا له يقبلون يدهُ واستمر على هذه الحال من التعظيم والتبجيل إلى أن صدرت الإرادة السنيّة بنفيه إلى حلب ولا يعلم أحد سبب هذا النفي فقال عند خروجهِ سأعود بعد بضعة أشهر مدعوًّا بإرادة جلالة مولانا السلطان من بلدي إلى هنا . فصحَّ ما قالهُ واستدعاهُ جلالة السلطان بالتلغراف وأحبابهُ

(١) جودت باشا : هو أحمد جودت باشا ، ولد في الطونة سنة ١٨٢٢ ، وقد تلقي العلوم والآداب على عدد من العلماء ، تولى وزارات كثيرة منها الأوقاف والعدلية ، والداخلية ، والمعارف ، وقام بإصلاحات سياسية في كثير من ولايات الدولة العلية ، وهو شاعر ومؤرخ ، وله كتاب تاريخ آل عثمان المعروف بتاريخ جودت ويقع في تسعة مجلدات ، وقد ترجم الجزء الأول منه إلى العربية على يد عبد القادر الدنا ، وشرح ديوان صائب المشهور في الفارسية ، وله غير ذلك مؤلفات أدبية وقانونية وفلسفية ، وقد حاز كثيرا من النياشين المرصعة . وتوفي عام ١٨٩٤ . (ط)

يعدون هذا من كراماتهِ وخصومهُ يقولون أنهُ ترجى الشيخ أحمد أسعد والحاج علي بك الباشمبنجي أن يطلبا لهُ العفو من جلالة السلطان ففعلا وعفا جلالتهُ عنهُ . ولما جاءَ إلى الأستانة ترك خطة الولاية وتبع خطة السياسة .



الشيخ السيد أحمد أسعد القيصرلي المدني :

هو تركيٌّ الأصل من أهل قيصريَّة وقد هاجر أحد أجدادهِ منها إلى المدينة المنوَّرة فاستوطن بها وتعرب بيتهم فيها وكان من الذين يطوفون على الأمراءِ في البلاد للنيابة عمن لهُ حصة منهم في الفراشة النبويَّة فيقوم مقامهُ في خدمة الروضة الشريفة . وهذه الخدمة يشترك فيها الكبراءُ والعظماءُ في سائر الأقطار فيكون للواحد منهم جزءٌ من قيراط ويوكلون عنهم من يقوم بها في الروضة كإيقاد القناديل وكنس البسط وما أشبه هذا من الخدمة الَّتي هي من أعظم المفاخر . فوفد السيد أسعد على الأستانة مرارًا وكان يتردد على الحضرة السلطانيَّة في أيام السلطان عبد العزيز وتوكل عنها في نصيبها من تلك الخدمة الشريفة وكان لهُ منزلة لدى جلالة السلطان لتعلق ولاة العهود بمن يعدهم بقرب ما يتمنون بإقامة الصلوات وترتيل الدعوات في الأماكن الطاهرة المباركة . ولما جلس جلالة السلطان على تخت السلطنة نال السيد أسعد لديهِ حظوة الخادم الصادق وبقى في الأستانة تحت ظل جلالتهِ يرفهُ في النعيم ويتنعم في الرفاهة ويزداد قربًا بسكينتهِ وسكونهِ حتَّى صارت لهُ دائرة خاصة بهِ في المابين وهو من الذين يدخلون على جلالة السلطان بلا استئذان وإذا قيل في السراي « سيد أفندي » فإياهُ يعنون . ولجلالة السلطان بهِ ثقة فإذا مرضت في السراي السلطانيَّة إحدى الجواري فجلالتهُ يأمر

بنقلها إلى بيتهِ فإن أبلَّت من مرضها عادت إلى السراي وإن ماتت خرجت من بيتهِ . ورجال المابين يحترمونهُ احترامًا عظيمًا يليق بالانتساب إلى النبي ﷺ وبقربهِ من جلالة السلطان . وهو عاميّ لا اطلاع لهُ على شيءٍ من المعارف والعلوم ولكنهُ يوقر نفسهُ بالاطراق ومداومة الصمت ولو قلنا عنهُ أميٌّ لا يكتب ولا يقرأُ لكان أمدح لهُ من أن نصفَ كتابتهُ . فقد كتب مرة إلى صاحب لهُ ورقة فلم يفهم منها شيئًا وأعاد خادمهُ للاستفهام عما كتبهُ . وقد انتهى الجدال في التماس العذر للسيد بين صاحبهِ وجلسائهِ بأنهُ في أثناءِ كتابة ما كتب كان بجانبهِ صبي من أولادهِ يلعب فخط خطوطًا في ورقة وغلط السيد فطوى ورقة الصبي في الظرف مكان ورقتهِ . وقد طعن أعداؤُهُ في انتسابهِ إلى النبي عليهِ الصلاة والسلام طعنًا حزبهُ جدًّا فاحتار في أمرهِ ولم يقوَ على معارضتهم فتداركهُ السيد أبو الهدى وأخذ بيدهِ فأخرجهُ من تلك الوهدة الَّتي أوقعهُ خصومهُ فيها بأن وهب لهُ نسبة رفاعيَّة وجعلهُ عمهُ في النسب فمحت هذه الهمة الصياديَّة ما كان بينهما من الموجدة القديمة . وعرف السيد أسعد لابن أخيهِ هذه المأثرة الَّتي حفظ بها شرفهُ بين رجال المابين ولدى جلالة السلطان فاتفقا واتحدا وشذَّا عن قاعدة التفريق في السراي . وتعضد السيد أبو الهدى بحضرة العم كما يعبر عنهُ ودفع باتحادهِ معهُ شر معانديهِ في المابين . ومع هذا فالسيد أسعد يعترض اعتراض المشفق أحيانًا على السيد أبي الهدى لاندفاعهِ في الأمور وربما أظهر الضجر من تعبهِ في رتق الفتوق الَّتي يفتقها السيد أبو الهدى باندفاعهِ . والسيد أسعد يود من ابن أخيهِ أن يسلك مسلكهُ في التؤَدة والدهاءِ لينجحا في ما أراداهُ ولا يخيبا في شيءٍ ابتغياهُ . وهما في الحرب القائمة بين المشايخ صف يقابل صف السيد فضل باشا والشيخ ظافر . ورتبتهُ روم إيلي قاضي عسكر

وعندهُ النشان العثماني المرصع والمجيدي المرصع ورتب أولادهِ لم ينلها كثير من شيوخ العلماءِ فإنهم برتبة استامبول بايه سي الَّتي تقارب رتبة البالا [1] أو تضاهي رتبة الفريق في العسكريَّة . ومرتبهُ الشهري مع أولادهِ ينيف على خمسمائة ليرة . هذا غير ما يأْخذهُ من الإحسان والأنعام المتكرر في أثناءِ السنة .

وهو ردءٌ لشريف مكة وركن شديد لما بينهما من الصلة فاستند إليهِ الشريف ومدَّ رجلهُ في عينِ الزمان غير مبالٍ بأحد وأخذ يفعل أفاعيلهُ في تلك البقاع الطاهرة ولم يثنهِ وجوب احترام حرم الله عن ضرب الإشراف فيهِ حَتَّى هاجر من جوار بيت الله قوم لم يحتملوا الضيم والذل وأصبح الحجاز مجتمع الفتن ومستنقع الدماءِ وكادت تسقط بذلك فريضة الحج عن الناس وأصبحت عرائض شكوى المظلومين كالعهن يضربون بها سورًا ضربهُ الشريف دونهم من سبائك الفضة والذهب لا من القطر والحديد . والسيد أسعد اقنع جلالة السلطان أن العرب جميعهم لا يعصون لهُ أمرًا ولا يخالفون لهُ حكمًا وقد اضطرتهُ هذه الدعوى الَّتي كانت أقوى الأسباب لقربهِ وعلو منزلتهِ أن لا يزور المدينة حين سافر إلى الحجاز مع راتب باشا منذ أشهر ليقابل بهِ الشريف ويصلح ذات بينهما فإنهُ من البعيد أن سيدًا من أولاد الرسول يأْتي إلى مكة ولا يذهب إلى زيارة جدهِ لتأْدية الواجب عليهِ وليدعو بأنفاسهِ الطاهرة لجلالة السلطان أن ينصرهُ الله ويؤَيدهُ ويدفع عنهُ المكاره ويوفقهُ لحل معضلات هذه الأيام ليؤَدي في العمر وظيفة ما أُحيل عليهِ من الفراشة في الروضة الشريفة ليظهر لأهل المدينة الَّتي غاب عنها سنين عديدة نعم الله السابغة عليهِ ليسر المحب ويسوءَ العدوّ . فإن الإنسان

(١) البالا : رتبة تركية تعني بك البكوات . (ط)

مهما بلغ من الرفعة والجلال في غير وطنهِ لا يروق في عينهِ كما يروق لهُ بين لداتهِ وأترابهِ في بلدهِ ولهذا قال عبد الله بن طاهر لما دخل مصر واليًا ورأى عظمة موكبهِ « ليت عجائز بوشنج يشاهدنني اليوم » . وليرى السيد أهلهُ وأقاربهُ وأملاكهُ في المدينة ولكن منعهُ عن هذا علمهُ أن العرب يتظرونهُ في طريق المدينة فلا يكاد يصل إليها أو لا يكاد يرجع منها والسيد لا ينسى أن العرب نبهوهُ مرة.وهو ذاهب إلى المدينة . وقد بالغ في دعوى نفوذ كلمتهِ في جزيرة العرب حتى قال أنهُ لابدَّ أن يضم نجدًا إلى حكم الدولة فهو يرسل الهدايا إلى ابن الرشيد من لدن الحضرة السلطانيَّة ويجعل بها مواصلة مستمرة ووفودًا ذاهبة آيبة.ليعلق الآمال بعملهِ دائمًا . وجلالة السلطان شديد العناية بهِ وكثير الإكرام لهُ فإنهُ يشرب النارجيلة في الحضرة السلطانيَّة.

وهو الذي أرسلهُ جلالة السلطان إلى سفير انكلترا في مأموريَّة سياسيَّة ولما قابل السفير خاف على نفسهِ أن يدخل في أمر لا يستطيع أن يخطو فيهِ خطوة فأخذ يسعل سعالًا مسترسلًا للتخلص حَتَّى أشفق عليهِ السفير وردهُ باللطف والاحتفاءِ والتأسف على ما فاجأَهُ من المرض . وربما باللطف والاحتفاءِ والتأسف على ما فاجأَهُ من المرض . وربما تعجب السامع من إرسال جلالة السلطان المشهور بالحزم والحكمة شيخًا من المشايخ الذي لا يجول فكرهم إلَّا في دائرة ضيقة من المعلومات إلى سفير الانكليز في أمر سياسي مهم وما أدراك ما سفير الانكليز في الأستانة . فنقول أن لجلالة السلطان عذرًا واضحًا لأن هؤُلاءِ المشايخ ظهروا أمام جلالتهِ في أرقى مظاهر السياسة وذلك أن لكل واحد منهم صاحبًا من المابينجيَّة يوحي إليهِ جميع ما يصير ولو كان إشارة بالطرف في مقابلة مساعدة الشيخ لهُ عند

الحاجة . فإذا سمع الشيخ من صاحبِهِ أمرًا مهمًا من الأمور السريَّة في السياسة كتب تقريرًا إلى جلالة السلطان عقب علمهِ بهِ وأشار إلى ذلك الأمر السري بما يوافق غرض السلطان فيهِ والشيءُ إذا صادف هوى في الفؤاد وقع في النفس وقعًا عظيمًا فيعتقد جلالة السلطان أن الشيخ قتل السياسة علمًا . وربما زاد الشيخ فوضع الخبر في رؤية صالحة رآها فيقصها على جلالتهِ فينتقل الاعتقاد فيهِ من الأرض إلى السماءِ .

ولهؤلاءِ المشايخ أناس من بسطاء الأغوات وغيرهم جذبوهم إليهم بالعهود والأوراد فينقلون لهم أخبار جلالة السلطان وعليها يبنون ما يبنون ويلفقون ما يلفقون . وبهذه الشعوذة دخلوا في أهم الأمور السياسيَّة وغلبوا الصدور والوزراءَ وسفهوا آراءَهم وعكسوا عليهم تدابيرهم . ونذكر بالجملة قصة من القصص نموذجًا يستدل بهِ القارئُ على ما نقول : عقدت الدولة بهمة الرجل السياسي كامل باشا الشروط المعلومة مع السر درمندولف على جلاءِ الانكليز عن مصر بعد مدة محدودة تقررت في تلك الشروط وتم الأمر فيها وأمضت عليها جلالة ملكة الانكليز ولم يبقَ إلَّا إمضاءُ جلالة السلطان ثم سمع أحد هؤُلاءِ المشايخ بواسطة أرصادهِ الموضوعين على جلالة السلطان أن جلالتهُ يتأفف من هذه الشروط فصبحهُ الشيخ بتقرير بني على هذه الشروط خراب الدولة وقيام المسلمين جميعًا ونقض أيديهم من البيعة وغضب النبي ﷺ . فلما أُضيف هذا التهويل إلى تأفف جلالتهِ من تلك الشروط قويت عزيمتهُ على الامتناع من الإمضاءِ بعد أن أمضت الملكة ولم يلتفت جلالتهُ إلى سخط الحكومة الإنكليزيَّة والانكليز عمومًا من امتهان ذلك الإمضاءِ وذهبت الليالي الَّتي سهرها كامل باشا في إحكام هذه الشروط سدًى ولو تمت لما بقي اليوم أحد من العساكر الانكليزيَّة في مصر .

والسير على هذا الأسلوب في المسائل السياسيَّة مستمر إلى هذا اليوم ويستمر إلى ما شاءَ الله والصدور يبيتون في حيرة من أمرهم وما دبروهُ يذهب سدًى والشيخ يرمي فيصيب برمية واحدة ثلاثة أغراض الأول ظهورهُ أمام جلالة السلطان بمظهر حاذق سياسي يرجع إليهِ في عويص السياسة والثاني كيدهُ للصدر بنقض ما أبرم والثالث تجليهِ أمام الناس بقدرتهِ على ردّ جلالة السلطان عن رأيهِ لأن الناس لا يعلمون الحقيقة بأن جلالتهُ كارَه لما دبرهُ الصدر وإنما الشيخ بكهانتهِ استرق السمع فبنى على ما سمع ما بنى .

فماذا يصنع جلالة السلطان وقد أحاط بهِ هؤُلاء المحتالون واتفق بعضهم مع بعض عليهِ ولم يتركوا لهُ وقتًا يكفي للتنقيب عن أحوالهم والتدبير للخلاص منهم فإنهم كلما لحظوا أن الأشغال نقصت لديهِ لفقوا في الحال على ذاتهِ الشريفة ما يقلق خاطرهُ وهذا دأْبهم ولا يزال لأن العلاج غير ممكن . وكيف يمكن العلاج إلَّا بعد العلم بوجود المرض وأَنى يتأَتى العلم بهِ وهم أسوار بعضها فوق بعض فإن صاح من ورائها صائح بأَن الحال منذر بالخطر قالوا مكيدة أجنبيّة وأوّلوا ذلك الصياح بما ينفعهم ويضر بالصائح . وقد صاح كثير فدارت عليهم الدائرة لأن الصائح البعيد لا يغلب القائل القريب . وأنا أكتب هذا وأنا على علم بأن جلالة السلطان لو قرأَهُ وتنبه إليهم لآبوا بالاستفادة مما اكتب .



الشيخ السيد فضل باشا المليباري المكي :

هذا السيد شهير النسب بالعلوي وهو من أهل مليبار وقد اختارهُ أهل ظفار أميرًا عليهم فتولى أمرهم ولما أراد أن يعاملهم بالاستبداد قاموا عليهِ

وأعانهم الانكليز على إخراجهِ من ظفار فجاءَ إلى الأستانة يستصرخ الدولة لإعطائهِ قوة حربيَّة يدخل بها ظفار وكان قدومهُ في زمن السلطان عبد العزيز فلم تصغ الدولة إلى طلبهِ وكان لهُ صداقة مع المرحوم الشريف عبد المطلب أيام كام مقيًا بمكة . فلما جلس جلالة السلطان على التخت العثماني أحسن عليهِ برتبة الوزارة بواسطة الشريف المشار إليهِ فأحضر أولادهُ من مكة واستقر في الأستانة ولكنهُ لا يزال يقيم الحجة على السفارة الانكليزيَّة بمملكتهِ الظفاريَّة ولا يزال يكرر طلب الاستنجاد من الدولة ليعيد إمارتهُ عليها . وكان المشايخ يقبلون يدهُ لشيخوختهِ وشهرة نسبهِ وحسبهِ فكفوا عن ذلك بعد أن ذهب تشاتم المشايخ بحرمتهم جميعًا . وقد أرسل جلالة السلطان إليهِ في بيتهِ ناظر الضبطيَّة ناظم باشا مع السيد أحمد أسعد ليبلغاهُ كدر جلالة السلطان منهُ لشيءٍ أخذ عليهِ فغضب على السيد أسعد وبصق في وجههِ وهمَّ بضربهِ لتصورهِ أنهُ هو الذي لفق عليهِ ما أوجب كدر السلطان منهُ فخرج السيد أسعد من عندهِ مع ناظر الضبطيَّة على هذه الصورة وانتهت المسألة على ذلك . وهو عاميّ ولكنهُ من المؤلفين ولهُ كتب عديدة منسوبة إليهِ وهي مشحونة بكرامات أبيهِ وأجدادهِ . وسنذكر شيئًا من غرابتها في ما يأتي . وهو يدَّعي أن القطبيَّة وراثة فيهم يتوارثها كابر عن كابر منهم ولهذا اشتدت العداوة وعظم التنازع بينهُ وبين السيد أبي الهدى .

وهو يبشر جلالة السلطان بسلطنة الهند وبإسلام أهل أمريكا وإذا وردت عليهِ رسائل من بعض أصحابهِ في الهند بنى عليها تحقيق الأمل فيما بشر بهِ وعرضها على جلالة السلطان فإذا سمع السيد أبو الهدى أنهُ قدم مكتوبًا جاءَ لهُ من الهند أبطل مفعولهُ . ولكيلا يختص السيد فضل باشا بالهند أرسل إليها السيد أبو الهدى الشيخ كمال الدين المقيم الآن بمصر ولما علم الانكليز بمساعيهِ في الهند أخرجوهُ منها .

الشيخ محمد ظافر المغربي المدني :

هو من جهة طرابلس الغرب وقد سكن المدينة المنورة فانتسب بها وجاءَ إلى مصر مرارًا قبل اتصالهِ بجلالة السلطان بصفة مشايخ الطرق ولهُ طريقة انتزعها من الطريقة الشاذليَّة وهو يدعو إليها . وكان جالسًا في بعض الأيام في مجلس السيد القصبي بطنطا وكان بيد أحد الحاضرين بندقيَّة يقلبها ولم يدرِ أنها محشوة فخرجت منها رصاصة فأَصابت الشيخ ظافر فبقي تحت المعالجة مدة وهو رجل متواضع لين الأخلاق معترف بعاميتهِ متظاهر بالخمول . وسبب اتصالهِ بجلالة السلطان أن أخاهُ الشيخ حمزة كان في الأستانة وكان يتردد على بعض الحشم في سراي جلالة السلطان في زمن المرحوم السلطان عبد العزيز فدار حديثهم مع الشيخ حمزة على الذين لهم علم بظهر الغيب ومعرفة باكتشاف المستقبل فقال إن أخي الشيخ محمد ظافر لهُ اليد الطولى والقدم الراسخة في هذه الأشياءِ ولما اتصل الخبر بجلالة السلطان أمرهُ أن يدعو أخاهُ من المدينة إلى الأستانة فحضر إليها وبشر جلالة السلطان أنهُ يجلس على تخت السلطنة في سنة ثلاث وتسعين هجريَّة ولم يكد جلالتهُ يصدق هذا الخبر لقرب الميعاد ووجود السلطان مراد قبلهُ في نظام السلطنة .

ولما صدق قولهُ وجلس جلالة السلطان على التخت العثماني في تلك السنة عظم قدر الشيخ لهذا الاتفاق العجيب وزاد الاعتقاد وبقي على حالة التصوُّف من الزهد في الرتب والنياشين وقد أحسن جلالة السلطان عليهِ بها مرارًا فطلب العفو من قبولها . ولكن جلالة السلطان ألحَّ عليهِ أن يقبل إحدى المداليات فقبلها متكرهًا . وهو الواسطة في استدعاءِ خير الدين باشا من تونس وتقليدهِ منصب الصدارة . وقد أحسن جلالة السلطان على

الشيخ بخمسة عشر ألف ليرة . وذلك أن جلالتهُ كان مريضًا وكان يتخوف من مرضهِ فأَحضر الشيخ أحمد أسعد وقدم لهُ هذا المبلغ وقال خذهُ حَتَّى لا تحتاج بعدي فبكى ولم يقبلها وقال ما يجب أن يقال في هذا المقام فسرَّ منهُ جلالة السلطان سرورًا عظيمًا . ثم أمر بها للشيخ ظافر فقبلها واشترى بها عقارًا لأولادهِ وهم نيف وعشرون من الذكور والإناث وبنى لهُ جلالة السلطان تكيَّة ومسجدًا وبيوتًا بقرب السراي السلطانيَّة وكان جلالتهُ يصلي صلاة الجمعة في هذا المسجد بعض الأحيان . ولكن جاءَ جلالتهُ الخبر مرة أنهم وضعوا الديناميت هناك فامتنع عن الصلاة فيهِ مع أنهُ لم يظهر شيءٌ من ذلك بعد النقب والحفر والبحث والتفتيش الطويل .

ولا يزال الشيخ ظافر يقيم فيهِ الأذكار المعتادة وكثيرًا ما يأْمرهُ جلالة السلطان أن يحيي في السراي بعض الليالي بالأذكار ويحضرها جلالتهُ بنفسهِ ويذكر معهم ويقول أولاد الشيخ أن جلالة السلطان قبلَّ يدهُ مرَّةً . ولو علم الناس مقام الخلافة وقدروها قدرها لاستعظموا هذا الأمر جدًّا لأن الخليفة رأْس الأمة المحمديَّة وليس فوقهُ أحد من أهل الدين والدنيا ولو نشر الأئمة والأقطاب والإبدال في مكان لكان الإمام فوقهم ولكانوا ممتثلين لأوامرهِ المطابقة للشرع ولكان لهُ أن يقيم الحدود عليهم أن ظهر منهم ما يخالف الشريعة . ولكن هؤُلاءِ المشايخ كبروا أنفسهم ومشايخهم وآباءَهم أمام الخلافة الَّتي اتخذوها لهم آلة في ترويج مقاصدهم وكأنهم يمنون على جلالة السلطان بها .

ولما رأَى الشيخ ظافر أن الاعتقاد فيهِ قد رسخ في السراي توسع في الأمر . فمن ذلك أنهُ كان جالسًا في الحضرة السلطانيَّة مع السيد أسعد والسيد أبي الهدى وفي أثناءِ الحديث قام من فورهِ وقال بهيئة الخشوع

والخضوع على الخالي وعليكم السلام ورحمة الله وبركاتهُ . فسأَلهُ جلالة السلطان بعد أن قام وقام السيدان لهذه التحيَّة العجيبة فقال إن الخضر عليهِ السلام قد مرَّ فسلم علينا فرددت عليهِ السلام . ولما خرج وبخهُ صاحباهُ وتوعداهُ إن عاد إلى مثل ذلك فقال لهما اعذراني فقد أخذني الحال . وقال لجلالة السلطان مرة في أثناءِ الحرب الروسيَّة قد اشتريت لجلالتكم ملك الروسيا بكيلتين من الشعير . وقد أدخل جلالة السلطان في طريقتهِ وأعطاهُ عهدًا .



طعن المشايخ بعضهم على بعض :

هذا وقد حان أن نقول ما يطعن بهِ بعضهم على بعض بألسنتهم وأقلامهم .

يقول السيد أبو الهدى عن الشيخ ظافر أن جدهُ كان يهوديًا من أهل سلانيك فأسلم وقتلهُ السلطان محمود لزندقتهِ وأن طريقة الشيخ ظافر خارجة عن القواعد الإسلاميَّة وأن تآليفهُ فيها هادمة للإيمان وأن صلواتهِ الَّتي ألفها لا يفهمها أحد وإذا كررها قارىءٌ لا يظن أحد أنها صوت إنسان كقولهِ (يا هو إلَّا هو عن هو يا من هو) ويقول إن الشيخ ظافر يدعي أن شيخهُ الذي أخذ عنهُ الطريق يصعد إلى السماءِ فيأْكل فيها « المجدَّرة » من الطعام يصنع من العدس والأرز) ويقول أن الشيخ ظافر يعمل أعمال السفليين في سحرهِ فيتحفظ بالقرآن والعياذ بالله وما يجري هذا المجرى . وهذا كلهُ مطبوع منشور معروض على جلالة السلطان مشهور بين الناس في الأستانة ويقول في عرضهِ ما نمسك القلم عن ذكرهِ . وقد قدَّم رجل اسمهُ الشيخ إبراهيم القريانجي تقريرًا يتهم فيهِ الشيخ ظافر بكل الموبقات

وينسب إليهِ فيهِ كل المخزيات ويقول عليهِ أنهُ يعمل السحر ويضع عقدهُ وأرقامهُ وكتاباتهِ في صرة ويودعها في مواضع خربة بين المقابر في اسَكدار . وقد صدرت الإرادة السلطانيَّة بإرسال الباحثين إلى تلك الأماكن فجاؤُوا بصرة تحتوي على ما ذكرنا . والشيخ ظافر ينسب هذا كلهُ إلى مكايد السيد أبي الهدى . ومما أُخذ عليهِ استدلالًا بالاشتغال بالسحر أنهم وجدوا عندهُ صورة جلالة السلطان فوقع لهذا مدة في انحراف وجه الرضا عنهُ .

ومن قرأ الكتاب المطبوع المسمىّ (بتمزيق نقاب التغرير) الذي أغضب السيد أبا الهدى صدور الإرادة السنيَّة بالحجر عليهِ أن يدخل البلاد العثمانيَّة بكى على الإسلام وعلى الدولة بعيون الثكلى فقد تضمن من الطعن واللعن في جماعة من المسلمين منهم الشيخ محمد ظافر ما لا يطعن بهِ عابد الله على عابد الشجر ولا المسلم على الإباحيّ والشيخ ظافر لا يقابل هذا إلَّا بطلب الهداية من الله للسيد أبي الهدى .

ما يقول أحباءُ الشيخ ظافر فيهِ :

يقولون أنهُ رجل لا يدخل مداخل السوءِ ولا يقصد أحدًا بشرّ ولا يسعى وراءَ الانتقام ممن يضرهُ كثير التواضع طاهر المجلس من الغيبة ورع تقي عظيم الاجتهاد أن يتخلق بأخلاق الصالحين وفيّ لأصحابهِ يزورهم في منازلهم لا فرق عندهُ في ذلك بين كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم ومحضرهُ عند جلالة السلطان محضر خير فكم استجلب عفوًا عن مذنب والتمس إحسانًا لمحتاج ورفع منزلة لمستحق وهو صادق الولاءِ لجلالة السلطان مطويّ الجوانح على خالص محبتهِ ومن عاشرهُ يحكم بهذا .

قول أحباءِ السيد أبي الهدى فيهِ :

يقول المرحوم قدري أفندي الحلبي الكاتب الثاني للحضرة السلطانيَّة الذي جاءَ إلى مصر مع درويش باشا والسيد أسعد في كتابهِ (الكوكب المنير

في ترجمة الأستاذ السيد محمد أبي الهدى أفندي الصيادي الرفاعي الشهير) المطبوع على نفقة أحد مريديهِ من شيوخ المشايخ في مصر ما يأتي .

« أما سيدي ومولاي وشيخي وأستاذي وقرة عيني ومرشدي وملاذي وجلاء روحي وسلم ارتقائي وفتوحي الأستاذ الأكبر والعلم الأشهر حجة العارفين علمِ العلماءِ المتبحرين قوام الطريقة والحقيقة والدين ذو الجناحين وارث جدهِ الإمام الأعظم أبى العلمين سيد أعيان السادة الأشراف خلاصة الخلاصة من أفراد بني عبد مناف سيف الشريعة المصلت على المبتدعي صمصام الحقيقة المنتدب لخدمة سيدنا ومولانا وإمامنا أمير المؤمنين قدوة المشايخ الجبل الراسخ الكنز المطلسم بأنواع الفضائل والفراسة والبحر الخضم المتدفق بصنوف الفواضل والسياسة المولى الذي استعارت العقلاءُ صيقل العقول من آرائهِ الشريفة والتحرير الذي عكفت طلاب الحكمة والعرفان على أبواب ساحتهِ المنيعة المنيفة الثابت القدم الهاشمي الشيم الجليل المكانة العلي المساعي مولاي الصدر الكبير السيد محمد أبو الهدى أفندي الصيادي الرفاعي فسح الله لي وللمسلمين بحياتهِ وأعاد عليَّ وعلى جميع المحبين من فياض بركات أسلافهِ الكرام وبركاتهِ آمين . فهو كما شاع وذاع وتواتر في جميع الأقطار والبقاع وسارت بذكرهِ الركبان وثبت في القلوب وشنف الآذان وأجمع عليهِ الموافق والمخالف واستفاض استفاضة نور الشمس رغم الأعشى المجازف وأذعنت لهُ جحاجحة السادة الأحمديَّة في الشام والعراق وعبق نشر عطر اشتهارهِ فملأ الآفاق رفاعي النسب حسيني العنصر والحسب رجال بيتهِ أعيان السادة الأحمديَّة الذين هم عند من يعلم أعيان السادات وجدودهُ أقطاب الوجود الذين خرق الله لهم العادات بل هو علم البيت الصيادي الذي لو ضربنا عنهُ صفحًا لما رأينا للمآثر الأحمديَّة الثابتة في الموجودات أثرًا وشمس سماءِ المجد الرفاعي الذي لو تعامينا عنهُ لما عرفنا لهذا المجد الباهر خبرًا » .

ومن عجائب أسرار الله أن والدة السيد المشار إليهِ رحمها الله كانتِ على قدم عظيم من الصلاح لائحة عليها أنوار النجاح وقد كان يضرب بها وبشقيقتها هناك الأمثال لما منَّ الله عليهما من الصلاح والتقوى وحسن الحال وكان ولي الله شيخنا العارف بالله السيد رجب الرفاعي الصيَّادي صاحب كفر سجناءَ إذا رآها قبل ولادة ولدها السيد المترجم حفظهُ الله يكنيها بِهِ وينوّه لها باسمهِ وكان الأمر موافقًا لكشفهِ الصادق وبصر سرهِ الحاذق » .

« ولا ولد أيدهُ الله سماهُ الشيخ المشار إليهِ وكنَّاهُ ونفخ في فمهِ ودعا لهُ وربي بحجر الدلال رضيع ثدي التقوى والكمال وقد أقسمت والدتهُ البرة التقيَّة رحمها الله أنها ما أرضعتهُ مرة إلَّا وهي على وضوءٍ ولما بلغ ستة أعوام من العمر قرأ القرآن بثلاثة أشهر وفي السنة السابعة أتقن علم التجويد والقراءَات وفنونها على الرجل الصالح شيخ القراءِ بتلك الديار يومئذٍ الشيخ محمود بن الحاج طه وكتب وأحسن الكتابة وقرأ الغاية وشرحها في المذهب الشافعي على الشيخ محمود المومإ إليهِ ثم لازم غيرهُ من المشايخ فقرأ علم العربيَّة وعلم الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان رحمهُ الله تعالى وأكثر من قراءَة علوم الآداب واللغة والأصول والحديث والتفسير وتوسع في الفنون وحفظ أكثر الموت وتبحر في علوم البلاغة والتاريخ والنسب والبيان والبديع وطال باعهُ في التصوُّف فحل بدقيق تصرفهِ غوامض معانيهِ وأوضح مضمرات خوافيهِ وبلغت محفوظاتهُ إلى ما يزيد عن مائة ألف بيت» .

وعلى ذكر حفظ الشعر نذكر شيئًا من ديوان شعرهِ المطبوع الذي قرظهُ الأدباءُ وبالغ في وصف بلاغتهِ الشعراءُ فمن ذلك قولهُ :

كم لسلب الشعور سلسلتُ شعرًا لدغـةُ فـوق لدغــة الثعبــانِ
رب يــوم تلقــى بــهِ العبــد مــولى هكــذا شــأن دولــة الــديَّان

وقولهُ :

ســلوك طريــق الرجــال الأدبْ وخوض الطريقة خوض العطبْ
فمــن نــازع الــشيخ في أهلــهِ بـــذم ولعـــل منـــهُ الأرب
كـــصاعد ســطح بـــلا ســـلم وطالــب علــم بقطــع الحطــبْ
وثاقـــب ســـيناءَ في إبـــرة لعمـــرك إن ذاك إلّا تحـــصبْ
لأن يـــد القـــوم في أهلهـــا تــسد عــلى الغــير بــاب الطلــبْ
ضـــلوع الجهالـــة معوجـــة تـضيق الطريــق عــلى مــن ذهــبْ
وســـلك الطريـــق بـــلا نيَّـــة عجيــب وجهــل الطريــق العجــبْ

وقال مادحًا جدهُ الغوث الجليل السيد أحمد الصيادي:

رعى الله أيامًا تقضت بشيخونٍ وحبــي لــويلات مــضَينَ بمتكــين
ليــالٍ لنــا في ظــل أســتاذنا الــذي بــهِ العــز للإســلام والحــق والــدين
أبو المجد صياد السباع فتى الوغى إذا خاف في البيدا صدور السلاطينِ
عــليٌّ جنــاب شــاد آثــار أهلــهِ بــسر فــشتهُ الأوليــا في الــدواوينِ
مغيــث إذا ضــاق الخنــاق ومنجــد إذا ما اختبا الفرسان بين الصواوينِ
فــرقّ لــهُ معنــى نــسيم اللقــا كــا لــهُ راق خمـــر الارتقـــا بالفنــاجينِ
فتــى مــن بنــى قــوم كــرام أماجــد محبتهم فـرض عـلى كـل ذي الـدينِ

وقال :

يــا غــارة الله طــوفي في منازلنــا دومًا وحلي لنـا مـا كـان من عقـلِ
يــا غــارة الله ظــلي في معونتنــا وشرّفينــا بخــير الخلــق والرســلِ
يــا غــارة الله قــومي دائــمًا أبــدًا بنيـل مـا نرتجـي مـن جملـة الأمـلِ

ويقـول أحبـاؤُهُ عنـهُ أن تلاميـذهُ ومريديهِ قـد بلغـوا عـشرة ملاييـن مـن

النفوس وأن الشيخ مقتدر أن يجمع من بلاد العرب ثلاثة ملايين من الفرسان وقد ذكر هذا بنفسهِ لأحد محرري الجرائد الأوربيَّة وذلك المحرر موجود بمصر الآن فإذا نقصوا أتمهم الله من الملائكة . وقال قدري أفندي لرجل زارهُ في المابين وكان في المجلس بعض حشم السراي أنك لم تعرف الشيخ ولا وصلت إلى ذرة من مَعرفة قدرهِ . أن الله ألقى على قلبهِ علم أربعين كتابًا سماويًا .

وأصحابهُ يقولون عن تآليفهِ الَّتي أربت على المئة أنها من الكرامات الظاهرة وخوارق العادات الباهرة لأن الشيخ يشتغل نهارهُ في المابين بما يؤمر بهِ من جلالة السلطان فإذا رجع إلى بيتهِ لم يسع وقتهُ قضاءَ حاجاتهِ الضروريَّة وجلوسهُ مع زائريهِ وسمرهُ في الليل مع خاصتهِ وما رآهُ أحد ممسكًا بكراسة يكتب فيها فكيف كتب هذه التآليف الكثيرة الَّتي تقضي فيها الأعمار الطويلة فهي الكرامة ولا شك .

ويعتقد فيهِ خاصتهُ أنهُ المهدي المنتظر ويستدلون بأن لفظة (أبو الهدى) عددها تسعة وخمسون بحساب الجمل ولفظة (مهدي) عددها تسعة وخمسون كذا وهذا من أسرارهم الَّتي لا يبوحون بها لعامة الناس وهي مذكورة في كتاب يعطي لخلصان المريدين ويزعمون أن هذا الكتاب يحتوي على جميع ما حصل للشيخ وما يحصل لهُ وهو من كشف القطب الرواس شيخهِ . وينسبون لوالدهِ الشيخ حسن الوادي كرامات . منها أنهُ كان يتحدث في الطريق مع رجل فأحس منهُ إنكارًا لولايتهِ فلما وصل إلى فرن تأجحت نارهُ استوقف صاحبهُ وقال انتظرني ثم اندفع إلى ذلك الفرن فدخلهُ بثيابهِ فصاح الناس عليهِ فحلف لهم أنهُ لا يخرج حَتَّى يأكل رغيفًا

كان في يدهِ ولما أكل رغيفهُ في الفرخ خرج عليهم ضاحكًا فوقع الناس على قدميهِ يقبلونهما . ومن كراماتهِ أن رجلًا دعاهُ إلى بيتهِ فذهب معهُ ولما وصل إلى البيت دخل الرجل ليهيئَ لهُ طعامًا وفي أثناءِ جلوسهِ على باب الدار جاءَ رجل بجمل يحمل خيارًا لصاحب الدار فأخذ والد الشيخ أبي الهدى يأكل من الخيار حَتَّى أتى عليهِ ولم يبقَ منهُ إلَّا ولم يبقَ منهُ إلَّا عدد قليل فخرج صاحب الدار فوجد الجمَّال كالمغشي عليهِ مما رأى فتركهُ حَتَّى أفاق ثم سألهُ عن حالهِ . قال جئت لك بثمانين رطلًا من الخيار فأكلها هذا الرجل الجالس وما أبقى منها إلَّا ما ترى . فجمع الرجل الخيار الذي بقى بين يديهِ وحلف بالطلاق أن لا يدعوهُ مرة أُخرى وأن لا ينكر كراماتهِ أبدًا .

وقد نقل هذه الكرامة السيد أبو الهدى عن أبيهِ في مجلس حافل فقال عبد المجيد الخردجي وهو في آخر المجلس يا مولاي أن وزن الخيار كان خمسة وثمانين رطلًا فقال الشيخ نعم لله درك ما أقوى حافظتك . (وخمسة وثمانون رطلًا شاميًا تزن أربعة قناطير وسبعين رطلًا مصريًّا) وكان في المجلس الشيخ حسين الجسر الطرابلسي المشهور ولما أشيعت هذه الكرامة بين ظرفاءِ الأستانة أنكرها بعضهم ولما سمع الشيخ آكل الخيار بإنكارهم قال إن لم يسكتوا بلعتهم جميعًا . ومن كراماتهِ أنهُ دخل إلى بيتهِ فقيل لهُ لم يبقَ زيت في البيت فوضع يدهُ في خابية الزيت الخالية فامتلأت وصار الزيت يسيل منها حَتَّى استجار بهِ من في البيت أن يرفع يدهُ المباركة .

ما يقول أعداءُ السيد أبي الهدى فيه :

كان أحد حكام فرنسا يقول في كل دعوى تعرض عليهِ « ابحثوا عن المرأة » فكانوا إذا بحثوا وجدوا أصل الدعوى امرأة كما قال . كذلك يقول

أعداءُ السيد أبي الهدى في كل ضرر لحق بالدولة العثمانيَّة أو لحق بأحد رعاياها « ابحثوا عن الشيخ » فإذا بحث الباحثون ونقب المنقبون وجدوا أن جذم [١] كل مصيبة وسنخ [٢] كل بليَّة وأساس كل فادحة هو من الشيخ المشار إليهِ حَتَّى قال بعضهم أنهُ للسلطان كالشيطان للرحمن . وقد أفرط في أضرارهِ بالناس حتى أنك لتراهُ يسعى في إهلاك قرية كانت آمنة مطمئنة بجميع أهلها إذا سمع أن رجلًا منها قال فيهِ كلمة ليست في العرض ولا في الدين ولو وجد إلى ذلك سبيلًا . فقد سعى في نفي الشيخ رشيد المعصراني إلى رودس لكلمة قالها وكره السيد أهل الشام قاطبةً لأجلهِ . وقد وقف نفسهُ وكلف الذين يخطف أبصارهم بنياشينهِ المجوهرة وبرق تأميلهِ الخلب أن يقفوا أنفسهم معهُ لإهلاك النفوس وخراب البيوت فإذا نكب بطائفة منهم وقوفهم على حقيقة عقمهِ خلفتهم طائفة أُخرى من المنافقين الذين لا يعلمون حقيقتهُ . ولهذا لا ترى أحدًا من هذا العالم ثابتًا على ولائهِ وصحبتهِ فقد ظهر لأكثر الناس أنهُ كالشكل العقيم في المنطق لا ينتج خيرًا والأدلة على هذا لا تحصى .

ولقد بلغت بهِ سرعة الانتقال من حصير التكايا إلى بساط السلطنة ومن لبس زيّ أهل الطريقة إلى وضع الوسامات العالية على صدرهِ أن أعتقد أن العالمين غيرهُ هباءٌ منثور وصدق في نفسهِ ما يكررهُ عنها كاذبًا فوضع نفسهُ فوق النجوم وأنزل غيرهُ من الناس منزلة الزاحفات من الهوام احتقارًا وهوانًا وطمحت نفسهُ إلى ما دون النبوة الَّتي حفظها الله بخاتمها . ويقول بعضهم معذور معذور أن يغتر من إذا كذب قال لهُ المنافقون

---

(١) الجذم : بالكسر أصل الشيء . (ط)

(٢) السِّنْخُ : أصل الشيء والجمع أسناخ . (ط)

صدقت وإذا ظلم قالوا لهُ عدلت وإذا ذمَّ أحدًا كفروهُ وإذا انحرف عن أحد عذروهُ وإذا تبسم ضحكوا وإذا عبس بكوا وإذا تحرك قاموا وإذا اختلى خلوة بزيد أو عمرو قالوا الشيخ في المناجاة . فالذنب على الناس لا عليهِ .

ويقولون عنهُ أنهُ دخل على جلالة السلطان بتفسير الرؤْيا والتنجيم ولما فرغت كنانتهُ من السهام الَّتي أصمى بها قلب الدين خرج إلى الساحة الواسعة ساحة الدسائس والفتن فإذا كان يقدِّم لجلالة السلطان مائة تقرير في اليوم فأكثرها : بايحائهِ وإغرائهِ . وقد لعب كل الأدوار في تعظيم نفسهِ أمام السلطان فقال أن تلاميذهُ بلغوا عشرة ملايين من الرفاعية وقال إن بلاد العرب في قبضتهِ وأن الأولياءَ في خدمتهِ وأن النبي ﷺ في معونتهِ وأن الله سبحانهُ في نصرتهِ وأن الأقدار في طاعتهِ . ثم أخذ يلعب دورًا جديدًا بملوك الإسلام وأنهم في حاجة إليهِ ليتبركوا بهِ فطلب من سعيد دلَّه البغدادي أن يخبر أحد الجواسيس أن سفير العجم ميرزا محسن خان أسرَّ إليهِ أن شاه العجم يطلب الشيخ ليزورهُ في طهران فتوقف الرجل أن يكذب على سفيرٍ فكان ذلك موجبًا لغضبهِ عليهِ ونفرتهِ منهُ وإنزال البلايا عليهِ من الحبس والنفي والضرب والتهديد بالقتل وذهبت خدمة الرجل ثماني سنوات لهُ تعبًا باطلًا .

ولما يئس منهُ أوحى إلى جاسوس أن يقول أنهُ سمع من سعيد دله أن سفير العجم أخبرهُ سرًّا بطلب الشاه للشيخ أبي الهدى وقدم الجاسوس تقريرًا إلى جلالة السلطان بهذا فأمر جلالتهُ بالتحقيق والاستنطاق فأنكر السفير وسعيد دله ما قيل عنهما واعترف سعيد بأن الشيخ طلب منهُ أن يكذب هذه الكذبة فحلف الشيخ أنهُ ما قال لهُ وأصرَّ الجاسوس على أنهُ سمع من سعيد دله ذلك الخبر وفي هذه الأثناءِ احتال الشيخ حتى بلغ

جلالة السلطان أن السفير لا يمكنهُ أن يفشيَ أوامر سلطانهِ وانتهت المسألة على حصول الشك فيها عند جلالة السلطان وقد انتفع الشيخ بهذا الشك. ثم أراد أن يوسط رجلًا لأمير آخر من أمراءِ الشرق أن يطلبهُ من جلالة السلطان ليكون عندهُ مدة من الزمان فلم يجسر ذلك الرجل أن يعرض على الأمير ما أرادهُ الشيخ لعلمهِ أنهُ لا يقدر على غش الأمير ولأن الأمير لا تروج عندهُ تلك الأضاحيك لسعة إطلاعهِ وعلمهِ وحزمهِ فنشأ عن هذا انفعال الشيخ أبي الهدى انفعالًا عظيمًا خرج بهِ إلى الانتقام من المسلمين جميعًا بدس الدسائس عليهم ولو أدى هذا إلى تفريق كلمة المسلمين.

وقد اعتاد الشيخ أنهُ يعاديَ كل صدر جالس في مسند الصدارة وكل شيخ للإسلام يتقلد وظيفة المشيخة الإسلاميَّة وقد أمضى حياتهُ وهو ينتظر أن يتقلد هذه الوظيفة ووعدهُ جلالة السلطان بها مرارًا. ولما مرض أحمد أسعد عرياني زادهُ شيخ الإسلام كان جلالة السلطان يسأل عن صحتهِ والشيخ أبو الهدى يسأل عن موتهِ وهو الذي أبلغ جلالتهُ وفاتهُ فسكت جلالة السلطان وأحضر علي باشا قيراط الطرابلسي وأمرهُ أن يذهب إلى بيتٍ وصفهُ لهُ وصف خبير بهِ فيطرق على بابهِ فيدعو عمر أفنديَ بدرومي زاده بعنوان شيخ الإسلام ويأمرهُ بالحضور إلى المابين.

ولما تمَّ تعيينهُ في وظيفة شيخ الإسلام قال جلالة السلطان للشيخ أبي الهدى قد أردت تعيينك ولكن الأتراك اعترضوا بأن العادة لم تجرِ أن يتولى شيخ للإسلام من العرب فأخذ الشيخ أبو الهدى من هذا العهد يبث عداوة الأتراك بين العرب حتَّى لقد كتب رسالة وأمضاها (ترك وإسلام) كأن الترك على زعم الشيخ ليسوا من المسلمين مع أنهم مشهورون بالتمسك بدينهم وجعل دأبهُ مع كل عربي يفد على الأستانة أن يذم لهُ الأتراك

ويقبحهم بالقول والفعل أما القول فبلسانهِ وأما الفعل فبدسائسهِ الَّتي يحول بها بين المرءِ ووصولهِ لغرضهِ الذي جاءَ لهُ فيصدق الرجل كلامهُ لحرمانهِ ولم يدرِ أن الحرمان مسبب عن الشيخ فإن اتفق أن الرجل نال غرضهُ أفهمهُ أنهُ خلصهُ لهُ بادماءِ الأظافر فينال غرضهُ أيضًا .

وينقل أعداؤُهُ عنهُ أن سعيد باشا الصدر الأعظم السابق جاءَ إلى جلالة السلطان يومًا بلوراق عديدة من الشيخ أبي الهدى بعثها إليهِ يطلب فيها أغراضًا لهُ وقال لا يمكنني أن أقضي كل هذا لهُ . فحفظها السيد أبو الهدى عليهِ حَتَّى إذا أمر الصدر أن يزينوا لهُ حجرة في الباب العالي ليقابل فيها السفراءَ قال الشيخ لجلالة السلطان أن الحجرة الَّتي كانت معدة لجلوس الصدور العظام وكانت مباركة بروحانيَّة سلاطين آل عثمان ومشهورة بأن انتصارات الدولة ظهرت منها خرج منها الصدر اليوم وأي تفاؤُل انحس من هذا فأمر جلالة السلطان في الحال بإحضار سعيد باشا وسألهُ عن نقلتهِ . فقال نعم فضربهُ جلالتهُ بيدهِ وبقي ثلاثة أيام محبوسًا في السراي لا يعلم أَفي الصدارة هو أم معزول عنها .

وينقلون عنهُ أن عزيز باشا الطبيب في المابين تكلم فيهِ بعض الكلمات في مسألة لا تذكر فحقد عليهِ ولما زار جلالة السلطان المستشفى المعد للعساكر في يلديز كان يقف جلالتهُ عند المرضى ويسألهم فوصل إلى مريض وسأل عن اسمهِ فقال عزيز باشا . حميد . فسأل عن مرضهِ فقال مرض الأعصاب . ولما سمع أبو الهدى بهذا قال لجلالة السلطان أن عزيز باشا لم يحفظ أمام جلالتكم ما يجب عليهِ وعلينا من جلال شأنكم حيث سمى المريض بحميد وادعى أنهُ مريض بمرض الأعصاب . فغضب جلالة السلطان وأمر الأطباءَ أن يفحصوا المريض ففعلوا وقرروا أنهُ مريض بداءِ

في أعصابهِ فأمر جلالة السلطان بنفي عزيز باشا بعد ذلك .

ويقول أعداؤُهُ أن لهُ مع كل كبير في المابين ودوائر الحكومة عداوات وحزازات ومع كل عظيم في كل بلدة وقد أفتى واحد وعشرون عالمًا من علماءِ مصر بتكفيرهِ وزندقتهِ فهو يريد اليوم أن يخسف الأرض بمصر . وقد سوَّد صحيفة المصريين قاطبةً أمام جلالة السلطان بغشهِ وتدليسهِ ولو كان الشيخ كالناس لعذر العلماءَ لأن الجوابِ في الفتوى على قدر السؤُال . والعلماءُ أفتوا على سؤَال فيهِ يقول السائل « ما قولكم فيمن أعظم الفرية وكفر القطب الرباني والغوث الصمداني الإمام الأوحد والسيد الأمجد محيي الدين عبد القادر الكيلاني رضي الله عنهُ » .

فأفتوا بكفر من يرتكب هذا الذنب العظيم وكان يلزم أن يغضب الشيخ على محرر السؤَال لا على معطي الجواب ولكن الله قضى أن لا ينجو أحد من ضررهِ فأصاب علماء الأزهر بشؤْبوب من شرهِ .

***

كان لنا في نشر « ما هنالك » مقصدان أحدهما أن يتنبه أولو الأمر فيتداركوا الدولة العثمانيَّة أن يقع على نصفها الثاني ما وقع على نصفها الأول من انفصال بعضهِ وإضافتهِ إلى الدول واستقلال البعض الآخر خشية أن تزول دولة كان لها المكان الأرفع بين الدول والدرجة العليا بين الممالك والقول المسموع في مشاكل السياسة فإن أصابها رزءٌ بعد الذي مضى منذ عشرين سنة فليس عن خور في جنودها وقوادها الذين شهد العالم أجمع ببسالتهم وبتراميهم على الموت لا يبالون وقع عليهم أو وقعوا عليهِ وبشهرتهم في الفنون الحربيَّة ولا عن جهل في رجال السياسة العثمانيَّة الذين أقر بدهائهم حذاق السياسة من الأوربيين واعترفوا لهم بإصابة الغرض في

ظلـمات المشكلات ولكـن عـن خيانـة شرذمـة مـن الجواسيس حولـوا همـة جلالة السلطان عن مـصالح الدولـة العامـة الَّتـي جعلنـا إهمالهـا تحـت رحمـة الدول اليوم إلى مسألة خاصة وهي إلقاءُ الخـوف والرعـب في قلـب جلالتـهِ من كل فرد من أفراد الرعيَّة . فكدروا عليهِ صفاءَهُ وشغلوا بالهُ ولفتوهُ عـن كـل مـصلحة للدولـة حَتَّى جعلـوا تقريـر جاسـوس واحـد لديـهِ أهـم مـن معاهدة أوربيَّة فأخذ بناءُ الدولة يتداعى .

قال أحد رجال السياسة لصاحب لهُ عثماني « إني أتعجب دائمًا مـن بنـاءِ هـذه الدولـة العثمانيَّـة تنـصب الـدول عليهـا المجانيق لهـدمها مـن الخـارج ويضرب حكامهـا بالمعـاول فيهـا مـن الـداخل وهـي قائمـة لا تقـع » صـدق الانكليـزي لم تهـدمها المجـانيق والمعـاول ولكـن هـدمتها الأوراق أوراق الجواسيس فسبحان القادر على كل شيءٍ . ولما كانت الدولة مدرعة بنفـوس السلاطين العظام لم يقوَ عليها شيءٌ ولما انعكست القـضيَّة وصـارت الدولـة والملـة والأمـة والكعبـة والـشريعة والكتـاب والـسنة دروعًـا لوقايـة نفـس السلطان أصابنا ما أصابنا وأصبحنا تحـت رحمـة الـدول يفعلـنَ بنـا مـا يـردنَ وأصبحت أساطيلها على شواطئ البلاد العثمانيَّة تنتظر الأوامر فينـا وحـسن باشا الجلاد يقول لعزت أفندي يا كذا وكذا تقول الملة والأمة . والملة والأمة والدنيا والآخرة هي السلطان . صدق الجلاد فإنهُ لم يبقَ إلَّا جلالة الـسلطان والشيخ أبو الهدى يفتي لجلالَتهِ بأن إهلاك الثلث في إصلاح الثلثين جـائز . ولو سمع جلالة السلطان قولهُ لم يبقَ في الدولة على هذا الحساب بعـد ثـمان وثلاثين فتوى متتابعة إلَّا الشيخ والجلاد . وأنهُ لمن نحوسـة الطـالع أن بقينـا حَتَّى رأينا دولة الإسلام في الاحتضار تئن موجعة على أيدي هؤُلاءِ المـشايخ الذين يبخلون عليها في أحرج الأوقـات بكراماتهم الَّتي مـلأُوا بهـا الكتـب وما كان أحوجنا إلى استيقاف الخضر عليهِ السلام وهو يسلم عـلى الـشيخ في

حضرة جلالة السلطان لالتماس المساعدة منهُ لدولة الإسلام . وهم الشيخ لا يرى الخضر إلَّا فوق الأصفر الرنان . وعلى هذا فقد يئسنا من القصد الأول لوجود هذه السدود بين الأمة وجلالة الخليفة نائب الرسول . فإن نفذ منها صوت ناصح من أهل الأستانة كان الجواب ضرب الرقاب ولو كان القرآنِ الآمر بالنصح مفتوح على يمينهِ والسنة الآمرة بالمعروف منشورة على يسارهِ .

أما القصد الثاني فهو أن يعلم المصريّون والعثمانيون حقائق الأمور في الأستانة وما وصلت إليهِ الدولة الَّتي قاومت أوربا وحدها ستة قرون من الاضمحلال الذي سترهُ الساترون بأوراق الصحف عن العيون فيسعى المصريون مع العثمانيين الأحرار المعتصمين بالبلاد الحرة إلى استرحام جلالة السلطان في إنفاذ إرادتهِ السنيَّة بنشر القانون الأساسي [1] واستدعاءُ مجلس المبعوثان [2] . فأخذ بعض من لا وقوف لهُ على شيءٍ من أحوال الدولة يرمينا بالتعصب تارةً والمبالغة أُخرى حَتَّى قامت الحوادث تشهد على

(١) القانون الأساسي : هو الدستور وقد ارتبط باسم مدحت باشا ، وكان قد أقره السلطان عبد الحميد فور توليه السلطنة ، إلا أنه كان يلغيه ويحكم بمشيئته ، وقد هللت الولايات التركية عند نشر القانون الأساسي وتطبيقه عام ١٩٠٩ بعد خلع عبد الحميد. (ط)

(٢) مجلس المبعوثان : أو مجلس المبعوثين هو بمنزلة مجلس النواب ، دورته أربع سنوات ، وينتخب الشعب الأعضاء باعتبار أن كل ٥٠ ألف عثماني ينتخبون عضوا ، وكان من حق السلطان إطالة أجل المجلس أو إيقافه ، وما أكثر توقفه ، ومن تقاليد المجلس أن يحلف النواب اليمين القانونية ومضمونه : « أقسم أني أحافظ على الإخلاص للسلطان ما بقي جلالته محافظا على الدستور الذي أقسم اليمين بالمحافظة عليه وأن أكون أمينا للدستور ولوطني في المهمة التي انتخبت لها والله وبالله » . (ط)

صدق قولنا فانصفونا ونعم المنصفون ونحن لم نذكر إلّا قليلًا من كثير والله يعلم أن الأمر فوق ما كتبنا ولنرجع إلى ما يقول أعداء السيد أبي الهدى فيهِ فنقول .

يقول أعداؤهُ أن لهُ أطوارًا متناقضة مع جلالة السلطان فتارة يمدحهُ ويقول : « ربي يحفظهُ هو في جيبي » وتارة يقول فيهِ ما ينافي ما يجب عليهِ من الإخلاص لجلالتهِ لنعمهِ السابغة عليهِ . فإن السلطان يجري عليهِ وعلى أخويه الشيخ نور الدين صاحب رتبة البالا والشيخ عبد الرازق صاحب رتبة اسلامبول بايه سي وابنهِ حسن خالد بك صاحب الرتبة الأولى خمسمائة ليرة في كل شهر . والشيخ ينفق هذا كلهُ في معاداة الناس وإضرار عباد الله ودس الدسائس وربما احتاج فوق ذلك فاستدان برهن جواهرهِ . ومن غريب ما وقع أن جلالة السلطان سمع أنهُ رهن جواهرهُ في صندوق الأيتام على ألفي ليرة وكان الشيخ مكسور الخاطر لأن جلالتهُ لم ينفِ لهُ رجلًا ناصبهُ العداوة . فأراد جلالتهُ استرضاءَهُ فأحضر الجواهر ووضعها في سلة كما توضع الفواكه وجعل عليها أوراقًا تسترها وبعثها إليهِ . فظن الشيخ أنها فاكهة ففتحها فوجد فيها جواهرهُ الَّتي رهنها . والشيخ يرسل كل يوم صباحًا ابنهُ حسن خالد بك وهو من أذكى الأذكياءِ إلى المابين فيمر في وقت قصير بأصحابهم والمتفقين معهم فيخطف بمهارتهِ أخبار السلطان من المساءِ إلى الصباح ويرجع إلى والدهِ يسجل الحوادث كما يرجع المخبر إلى جريدتهِ . فيأخذ الشيخ في ترتيب أعمالهِ عليها ويلقي على الجواسيس ما ينبغي أن يكتبوهُ في يومها وينتظر استدعاءَهُ إلى السراي فإذا جاءَ لهُ الطلب بالحضور إليها ذهب فوضع مقاصدهُ مواضعها فلا يصدر من المابين إلّا ما كان موافقًا لرأيهِ . وربما قضى أشياءَ كثيرة بإظهار كراهتهِ لها فإنهُ يعتقد أن

جلالـة السلطان لا يثق بـهِ ولا يأتمنـهُ وإنـما يخافـهُ ولـيس بقـادر على إيذائـهِ للشعوذة الَّتي تمكن بها ولا سرار وأوراق يحفظها عليهِ عندهُ .

منها فتوى عرياني زاده شيخ الإسلام الأسبق بخلع جلالـة السلطان . والحقيقـة أن المرحـوم عريـاني زاده لا يجسر أن يفتـي بخلـع جلالتـهِ مطلقًـا لخوفهِ منهُ ولإحسانهِ عليهِ . ولكـن بعـض المحتـالين المتفقـيّن مـع الشيخ أبي الهدى كتب سؤَالًا عن ناظر وقف خرَّبـهُ وأضـاع ريعـهُ . وقدمـهُ إلى عريـاني زداه فحصل منهُ على الجواب بعزل نـاظر الوقـف . وكـان مقـصد الـسيد أبي الهدى مـن هـذا أن يـضر شـيخ الإسـلام ليعـزل فيتـولى المشيخة فلـم تنفعـهُ الفتوى في هذا ونفعتهُ في شيءٍ آخر وهو خوف السلطان من وجودهـا عنـدهُ ثم أفهموا جلالتهُ أن هذه الفتوى كافية في خلعهِ للـصفة الجامعـة بـين نـاظر وقف وحاكم أمة وجلالتهُ يخاف من الكلام فيها ومن كل فتوى شبيهة بها . ولهذا ضيق على شـيخ الإسـلام بالجواسـيس تـضييقًا تكـره لـهُ الحيـاة مـع أن الخوف لا ينحصر في شيخ الإسلام وحدهُ لأنهُ يفتي على سؤَال والجـواب في الكتاب . وأصـغر مفـتٍ مـن أحقـر قريـة وأبـو حنيفـة وأبـو يوسـف وشـيخ الإسلام سواءٌ في هذا لأن الافتاءَ ليس من عندهم حتى يتفاوتوا بهِ وإنـما هـو الشرع فكان ينبغي أن جلالتهُ يخاف من الـشرع نفـسهِ لا مـن شـيخ الإسـلام وحدهُ .

وقد تعب الناس من تقديم التقارير في الـسيد أبي الهـدى وهـي لا تزيـدهُ إلَّا قربًا ولا أظن أن أحدًا يقدر على إسقاطهِ من مركزهِ . وهـو لا يغيـب عنـهُ شيءٌ مما ينطق السلطان بهِ ليلًا أو نهـارًا لأن جلالتـهُ أمـر المابينجيَّة وغـيرهم من الذين يقفون على الحجرة السلطانيَّة أنهم يقفـون وراءَ البـاب كلـما دخـل واحد أيًّا كان ويضعون آذانهم عليهِ للنـداءِ علـيهم وقـت الحاجـة الـضروريَّة

فلا يعزب عنهم قول يقال . ولذلك ترى الأخبار في السفارات بأوقاتها . وقد أضر هذا بالدولة كثيرًا وسببهُ التحذر والخوف وعدم الثقة بأحد من المخلوقين وقد أسرَّ السلطان إلى أحد وكلاءِ الدولة حديثًا فوجدهُ مشاعًا فعاتبهُ على ذلك وقال لهُ قد أشعت ما أسررتهُ إليك وقدمت على أمر أوجب سخطي عليك ولا أشك أنك القائل المشيع فإنهُ لم يكن أحد إلَّا أنا وأنت فقال الوزير « والآذان الَّتي على الباب يا مولانا » .

قلنا أننا كنا نرمي إلى غرضين في مقالاتنا . الغرض الأول تنبيه أولي الأمر إلى ما هم فيهِ من وشكِ السقوط في الخطر والدولة معهم . والغرض الثاني تنبيه الأمة إلى الحال الَّتي وضعها أولو الأمر فيها فيئسنا من الغرض الأول بما نسمعهُ اليوم ونراهُ . وأما الغرض الثاني فقد نجحنا فيهِ كما بيناهُ . ومن بوادرهِ أن جماعة من فضلاءِ المصريين دفعهم الإشفاق على الدولة والملة إلى طلب غرض هو المنقذ الوحيد لها الآن مما ألمْ بها وهو نشر القانون الأساسي واستدعاءُ مجلس المبعوثان . وشرعوا في تحرير ذلك بصورة نصيحة إسلاميَّة لمقام الخلافة فاحجم ببعضهم ما أنذرهم بهِ خبير أن لا يؤمن والحال على ما نراهُ من فوز المشايخ أن يوجهوا تلك النصيحة إلى غير الغرض المقصود منها فينعكس الأمر ويذهب تعبهم في منفعة المشايخ وتكون نصيحتهم من جملة ما يجهز على الدولة .

وهذه صورة النصيحة والأمر لله

دعانا الإسلام الذي أنت خليفة النبي عليهِ والبيعة الَّتي لك في أعناقنا أن نعرض على سدتك النصيحة خالصة من جميع الشوائب الَّتي تهجس في الخواطر .

والنصيحة للسلطان من أقوى قواعد الإيمان خصوصًا في وقت أصبح

الإسلام فيهِ على شفا الخطر .

وأنت يا خليفة الرسول الملجأُ الوحيد اليوم للإسلام وأهلهِ فهو واقف أمامك وقفة الراجي يمد إليك أيديَ الملايين من النفوس لتنجيهُ بعزيمتك المشهورة وحكمتك المأثورة ويدك البيضاءِ .

وجميع المسلمين في المشارق والمغارب يتحدثون في هذا الوقت بوشك عثرة الدولة الَّتي هي روح الإسلام إذا لم تجد من جلالتك يدًا ترفعها .

وما ترتفع الممالك وتصان الدول إلَّا بالإصلاح الذي لا يجد الأجنبي سبيلًا من خلالهِ للتداخل في الشؤُون .

وأنت يا غياث الملك ـ أصلح الله بك وعلى يديك ـ كنت أول من أدرك هذا السر منذ استويت على العرش العثماني فدبرت العلاج وزينت جلوسك السعيد بالقانون الأساسي ومجلس المبعوثان ونحن معاشر العبيد المخلصين نرى مع بقيَّة رعايَا السلطنة أن الوقت قد حان لمباشرة ذلك والسير عليهِ وقاية للدولة وصيانة للملة .

وقد وجب علينا فرضَ عين أن ننبه إلى ذلك لتمكننا من التصريح بما يهمس بهِ كل مسلم في دار الخلافة وولايات السلطنة ولا يقدر على الجهر بهِ خوف السعاية بقلب الحقائق . ونحن نسمع وجيب قلوب المسلمين في كل صقع من الخوف على مركز الدولة .

ولا نرى لمؤمن وجه اعتراض علينا في أقدامنا على العرض لسدتك بذكر ما يتألم منهُ المسلمون من الحالة الَّتي وصلنا إليها قال الله سبحانهُ وتعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » .

فعلى هذا النص التصريح قمنا بالعرض لسدتك وعلى هذا النص الصريح

ترجمنا عما يتردد في نفوس المسلمين قاطبة والإسلام جسم واحد إذا أصاب عضوًا منهُ شيءٌ عم الألم سائر الأعضاءِ . فمسلم مصر يتألَم لهُ مسلم الأستانة . ومسلم الشرق يتألَم لما يتألَم لهُ مسلم الغرب . والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ (الحجرات: ١٠)

كنا وعدنا أن نأْتي على ما يقولهُ أعداءُ السيد أبي الهدى فيهِ ولكن عدلنا عن هذا الآن كراهة أن يستقبح الناس منا التطويل عليهم بما لا يعنيهم من ذكر رجل لا يهمهم ثبت نَسبهُ أم لم يثبت أبعدهُ السلطان أَم قرَّبهُ مدحهُ الشعراءُ أَم ذموهُ غلب خصومهُ أَم غلبوهُ صحت كرامة أبيهِ أَم لم تصح . ومع هذا استفدنا من ذلك التطويل فائدة واحدة وهو علمنا بأن الزمان متشابه الحوادث وإن فصلت بينها القرون العديدة .

هذه الأستانة دخلها السلطان محمد الفاتح وأهل الحل والعقد في حكومة الروم يتنازعون بينهم على أيهم يتقدم الآخر في المجلس المنعقد للنظر في دفع الفاتح عنهم . وهذه الأستانة اليوم على بابها أساطيل الدول وفي وسطها سفراؤُها يجتمعون ويفترقون على المداخلة في أمور السلطنة . وهذا صدر الدولة يفرُّ إلى السفارة الانكليزيَّة خائفًا يترقب . وهذا وهذا مما يسيل تامور القلب من العيون والسيد أبو الهدى يخاصم ويجادل ويطاعن ويلاعن ويحرم نفسهُ النوم ويحمل عليها اللوم ليجبر الناس على التصديق بصحة نسبهِ . ولو بلغ موسى الكاظم عليهِ السلام أن رجلًا طعن في نسبهِ لم يزد على قولهِ الله أعلم فإن الأنساب من الأمور الَّتي يوكل أمرها إلى الله اللهمَّ إلَّا أن يكون للسيد في هذا الافراط الذي كان يستغنى عنهُ بما كسبت نفسهُ من الأفعال الجميلة سر من الأسرار ونحن على أثرهِ حتى نكشفهُ . وقد آن أن نختم فصول المابين بذكر جلالة السلطان وحياتهِ الخصوصيَّة في السراي السلطانيَّة .

السلطان :

هو السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان وخلفائهم . ولد في اليوم السادس من شهر شعبان المُعَظَّم من سنة ألف ومائتين وثمان وخمسين وجلس في الثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ على سرير السلطنة العثمانيَّة « بالارث والاستحقاق » ويراد بالإرث في هذه العبارة المستعملة رسميًا السلطنة وبالاستحقاق الخلافة . وقد استقرت الخلافة الإسلاميَّة في هذا البيت الرفيع الذي حفظ بيضة الإسلام ستة قرون وذلك من عهد السلطان سليم فاتح مصر الذي بايعهُ الخليفة العباسي بالخلافة بعد أن استفتى السلطان العلماءَ في الحالة الَّتي وجد عليها الخليفة العباسي من عدم السلطة في أمور الملك . فإنهُ كان في مصر أيام الملوك الجرَاكسة كشيخ الطرق الصوفيَّة لا يعقد ولا يحل وليس لهُ إلَّا أن يقول لمن يتولى منهم وليتك على ما وراءَ بابي . فأفتى العلماءُ أن الخلافة لابد أن يكون لها السلطنة العامة فبايع العباسي السلطان سليم الخليفة الأول ولكنهُ لم يتلقب بالخلافة بل تلقب بخادم الحرمين الشريفين[1] وأول من تلقب بالخليفة السلطان سليمان القانوني وبقيت الخلافة بعد ذلك لا تذكر إلَّا مع الألقاب الَّتي تضاف إلى أسماء السلاطين . وكان السلطان منهم يذهب عند التولية إلى جامع أبي أيوب الأنصاري وهناك يقلدهُ نقيب الإشراف السيف وهذا الذي كانوا يسمونهُ البيعة . ولما أراد أهل الحل والعقد خلع السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد نقلوا السلطان مراد ليلًا إلى ديوان السر عسكريَّة واتفقوا أن يبايعوهُ البيعة

(١) روى أنهُ كان يصلي في الحرم بمكة والخطيب يدعو لهُ ويقول « مالك الحرمين الشريفين » فأوقفهُ وقال بل « خادم الحرمين الشريفين » فصار ذلك لقبًا لهُ . (المويلحي)

الشرعيَّة الَّتي تعقد بها الخلافة توثيقًا لمشروعهم . فقام حسين عوني[(١)] باشا وكان يرى على وجه الشريف عبد المطلب نيَّة التوقف في البيعة وقال من لم يبايع هذا ـ وأشار بيدهِ إلى السلطان مراد من الحاضرين ـ في هذا المجلس ضربت عنقهُ . فبايعهُ أهل الحل والعقد على العمل بالكتاب والسنة .

لا يظن القارئُ أننا خرجنا عن الموضوع بذكر قصة تاريخيَّة فإنا ما قصدنا ذكرها إلَّا لأنها لا تخلو من فائدة مهمة ولكي يعلم الناس أن الخلافة جرت على الوجه الشرعي في السلطان سليم والسلطان مراد .

ولنرجع إلى ذكر جلالة السلطان فنقول هو نحيف الجسم ربعة أو تحت الربعة في الرجال عصبيٌّ المزاج قويُّ العارضة متوقد الذكاءِ شديد التيقظ والحذر على نفسهِ كأنهُ يرى أنهُ نصب لهُ في كل خطوة مكيدة . وقد بذل جميع أوقاتهِ وجزءًا عظيمًا من أموالهِ في المحافظة على نفسهِ بما لم يسمع بمثلهِ واستعمل لذلك ما يبعد أن يخطر على البال من أفانين التفرقة بين الناس حَتَّى صار جمعهم لديهِ مفردًا واستحال أن تقع عليهم صيغة الجموع فالكل هو والواحد هم . وقد بلغ بذكائهِ في أساليب التفرقة إلى ما لم يحط ميكافلي بهِ علمًا فأبعد عن الأستانة من أهل الحل والعقد من يزدوج وأبقى فيها من يعلم أنهُ ينفرد . وقد جرت عادتهُ أن يعد كل وزير في الوزارة بالصدارة

---

(١) حسين عوني باشا : (١٨٢٠ - ١٨٧٦) تقلب في عدة مناصب عسكرية ، واشترك في بعض الحروب وقد اتصف بالشجاعة والحزم ، وكان السلطان عبد العزيز قد نفاه إلى مسقط رأسه إسبرطة ، ثم عفى عنه ، وتولى عدة وظائف كبيرة منها الصدارة العظمى ، إلا أن حسين عوني لم ينس نفي السلطان عبد العزيز له وإذلاله إياه ، فلما عاد من منفاه أخذ يفكر في الانتقام ، فاشترك في مؤامرة خلع عبد العزيز ثم في قتله ، وقد لقي جزاءه على يد حسن باشا الشركسي ياور السلطان عبد العزيز وشقيق مهري هانم زوج السلطان القتيل . فأطلق عليه النار ، وطويت صفحته (ط)

حَتَّى لا يعيش الصدر بينهم مستريحًا وحَتَّى لا يجد فرصة من مكائدهم ليفتكر في خلع السلطان . ولهذا كره الصدور الذين ذاقوا تلك المرارة أن يقبلوا الصدارة .

وكثيرًا ما يستدعي الصدور المعزولين ويختلي بهم على علم من الصدر المنصوب ليَكون عينًا عليهم لا تنام وقد استدعى إحدى الليالي المرحوم خير الدين باشا إلى المابين ودخل بهِ إلى حجرة بعد حجرة بعد أُخرى وأمر الحاشية أن يغلقوا جميع الأبواب فأخذ الصدر آلمعزول يعظم في نفسهِ ما سيلقيهِ عليهِ جلالة السلطان من الأسرار المهمة . فجلس معهُ مدة طويلة والحديث كلهُ في الطيور والعصافير وخرج وهو لا يدري على أي شيءٍ بنى جلالتهُ هذه الخلوة بتلك الصورة العجيبة .

ويقول العارفون بحدة ذكائهِ وقوة عارضتهِ ودقة نظرهِ أنهُ لو صرف مِنْ عنايتهِ بالمحافظة على نفسهِ جزءًا قليلًا خالصًا لا تشوبهُ تلك المحافظة في شؤون الدولة لم يصبها ما أصابها . ولكنهُ مهما أعطى من عنايتهِ للدولة فالمقصود الحقيقي منهُ التحرز على نفسهِ . وهو قليل العناية بالمطاعم والمشارب واللذات وليس في حياتهِ وعيشتهِ شيءٌ شعريٌّ على قول الافرنج بل كل أفعالهِ وأعمالهِ جد في جدّ . وقد ذكر أحد الوزراءِ في حضرتهِ نكتة لطيفة ليضحكهُ بها فحوَّل وجههُ عنهُ ولم يخاطبهُ مدة بقائهِ في المجلس .

ولا يشرب الآن الخمر كما يزعم الزاعمون لأنهُ يمنعهُ عنها ما يعتريهِ في أكثر الأوقات من الصداع ولأنهُ لا يرضى أن يفقد بها جزءًا من تيقظهِ وحذرهِ على نفسهِ . ولا ينام جلالتهُ في حجرة مرتين متواليتين . ولجلالتهِ كلب عظيم الجسم يحرسهُ في الحجرة الَّتي يقع عليها اختيارهُ للنوم فيها . وهو يصب الماءَ البارد على جسده وثلاث مرات في اليوم ولا يستغرق في

النوم وربما لم يجاوز نومهُ أربع ساعات في الليل . وكان لجلالتهِ جارية شركسيَّة اسمها ملك وعمرها تسع سنوات تباشر خدمة جلالتهِ . فوقف يصلي بعض الأوقات وكان أمامهُ مرآة فرأى في المرآة أن الجارية خطت خطوة من مكانها . وكان جلالتهُ قبل الدخول في الصلاة وقد وضع المسدس الذي تعود حملهُ في موضع من الحجرة . فخرج من الصلاة ورتب على تلك الخطوة الَّتي خطتها الجارية آخر ما يراد من المسدس وأمر باستنطاقها . فقامت السراي وقعدت وانتهى الأمر بنفي الجارية وخمسين من الجواري . والسراي لا تخلو داخلًا في أكثر الأوقات من هذه الحركات وإذا تعطلت الأشغال في المابين أيامًا عرف الناس أنهُ في الداخل ما يشغل عن الخارج . وقد قال أحد عقلاءِ الوزراءِ أن جلالة السلطان وقف حياتهُ على حفظ حياتهِ فلم يبقَ لهُ ولا للرعيَّة شيءٌ منها .

ولا يعرف جلالتهُ من اللغات إلَّا اللغة التركيَّة وألفاظًا قليلة من اللغة العربيَّة على لهجة أهل الحجاز أخذها من أفواه الخصيان السودانيين في الحرم السلطاني . ويفهم جلالتهُ جملًا من اللغة الفرنسويَّة لطول استعمالها أمامهُ مع السفراءِ . وهو من أغنى ملوك الأرض الآن ولم يجمع سلطان عثماني ما جمعهُ من الأموال وامتلكهُ من الضياع . وقد كان من أعظم الأسباب لنفاد ثروة الأهالي هذه الضياع الواسعة الَّتي امتاز من يشتغل فيها باعفائهِ من العسكريَّة وكثير من الأموال الأميريَّة فعمرت تلك الضياع وخربت البلاد ونهب نظارها ومديروها ثمانية أعشار ما يجنون منها والخزينة الخاصة لا تحصل إلَّا على اثنين من العشرة من دخلها . ومن شدة التحرز والتوقي صار جلالتهُ لا يثق بأحد مطلقًا قريبًا كان أو بعيدًا . وقد رأى مرة من نافذة قصرهِ أحد مربي نجلهِ سليم أفندي يكلم عسكريًّا فأمر

في الحال باستنطاقهما واشتغل جلالتهُ بهذه المسألة أسبوعًا وهما مسجونان . وهو كثير التردد ولكنهُ إذا عقد العزيمة على أمر فهو الحكم البت والقضاءُ الحتم . وهو شديد التأْثير على من يحادثهُ فلا يخرج أحد من عندهِ إلَّا راضيًا ولكن هذا الرضى لا يبقى إلَّا ريثما يلاقي الخارج داخلًا بعدهُ ويبلغهُ ما سمعهُ من المقربين عنهُ في غيبتهِ فينقلب الرضى حنقًا وغضبًا . ومن هذا أن أحد الوزراءِ كان جالسًا أمام جلالتهِ فجاءَت القهوة فأخذها جلالتهُ وناولها لهُ بيدهِ فقام الوزير وقعد وركع وسجد شكرًا على هذه العناية وكان السلطان يلاطفهُ بكلام الذ من البشرى . ثم قابل الوزير بعد هذا المجلس صاحبًا لهُ دخل وراءَهُ فذكر لهُ صاحبهُ القهوة واتبعها بما سمعهُ في غيبتهِ من فلان وفلان . فقال الوزير أني لما أخذت القهوة حسبت ألف حساب فالحمد لله على اكتفائهم بالسباب .

ولولا التحرز والتوقي اللذان استغرقا أوقاتهُ وأموالهُ لكان أول سلاطين آل عثمان قدرًا وأكبرهم شأْنًا . والظاهر أن هذا التحرز ابتدأ معهُ من أيام عمهِ حين أمر بالتضييق عليهِ وعلى أخيهِ السلطان مراد بعد أن تكلم نابليون مع السلطان مراد على المائدة في باريز بحضرة عمهِ السلطان عبد العزيز كلمات بالفرنسويَّة بؤَانسهُ بها . فتخوف السلطان عبد العزيز مِنْ هذا وأمر في الحال بالتضييق عليهما ونقلهما من قصورهما إلى بيوت صغيرة أُحيطت بالجواسيس . ثم إذا أُضيف إلى هذا ما رآهُ بعينهِ من خلع عمهِ وأخيهِ قويت الأسباب الموجبة للخوف .

ولكن للأمة عليهِ حقًّا تطلبهُ منهُ حفظًا لراحتها فإنهُ حصر الأمور جميعها صغيرها وكبيرها تحت مراقبتهِ ونظرهِ وعدم تسليم شيءٍ منها لأحد من كفاة الدولة . ولهُ نوادر في الإحسان عجيبة فإنهُ يعطي لشخص خمس

ليرات مرة ثم يعطيهِ خمسة آلاف ليرة مرة أُخرى . وهو شديد الخوف من الكوليرا لان امرأة اسمها ماهتاب من الضاربات بالودع وبيتها مقيمة في السراي عندهُ الآن أخبرتهُ قبل جلوسهِ على سرير السلطنة أنهُ يتولى الملك ويخشى عليهِ من الكوليرا . فلما وقع بعض الإصابات في الأستانة العام الماضي واشتبه الأطباءُ بها نفي الذين نفوها وأحسن على الذين أثبتوها لأن نفيها يدعو إلى إهمال التوقي ولا يخفى ما فيهِ من سوءِ النيَّة . هكذا يقال وهي لا تزول من الأستانة لأنها أصبحت من أسباب الزلفى والقربى .

خلع السلاطين :

أن جلالة السلطان عبد الحميد شديد الرغبة في أن يتصف بالحزم والتوفير وحسن الإدارة والتدبير فلم يبنِ كما بنى أسلافهُ العظام من شاهخات القصور الّتي استنزفت أموال الدولة . وهو من المحافظين على بقاء القديم على قدمهِ فلا يسمح بما يسميهِ أهل العصر بالمحسنات العصريَّة كالكهربائيَّة والتلفون وما أشبه ذلك ويقول بعضهم أن السبب في الامتناع عن إعطاءِ الامتياز في التلفون كراهة قرب المواصلات بين أفراد الرعيَّة لأن المقربين من الحاشية أفرطوا في إظهار خوفهم على جلالتهِ من رعاياهُ الأمناءِ الصادقين حتَّى دعاهم هذا أن جعلوا الجبن من أن أبهى ما يتزينون بهِ . وصار أحدهم إذا رأى في الحضرة السنيَّة ورقة مَكتوبة بالمداد الأحمر وقع مغشيًّا عليهِ لمشابهة المداد الأحمر بالدم .

ولجلالتهِ غرضٌ مهمٌّ يسعى وراءَهُ ولَكنهُ يخشى نشرهُ قبل أخذ الاحتياطات لهُ وهو حصر الوراثة في أكبر أنجالهِ . وأنهُ لأَحسن الأعمال المفيدة للدولة وللرعيَّة . ولو التفت الناس إلى التاريخ لفتةً واحدة لوجدوا أن هذا البيت الكريم تأَسس على هذه القاعدة من أيام السلطان عثمان

الأول . ومـا زال الارث في الـسلطنة جاريًـا عليهـا مـدة ثلثمئـة سـنة إلى السلطان أحمد . وقد تولى السلطنة على هذا النمط أربعة عشر سلطانًا عثمانيًّا وكان بقيَّة الأخوة يتولون مناصب الدولة . وهـذه أمثل المزايا الَّتـي فقـدتها الدولـة والرعيَّـة فأصبح ولاة عهودهـا يعيشون بـين الجـواري والخـصيان والخدم فإذا جلسوا على سرير السلطنة كانوا كمن خـرج من ظلمـة شـديدة إلى نور باهر يغشي البصر دفعة واحدة إلَّا من وهبه الله مـن نـور البـصيرة ما يعينهُ على هذا الانتقال الفجائي . واستمر ولاة العهـود عـلى هـذا الأسـلوبَ يتدربون على أعمال الدولة نحو مئتي عـام حَتَّـى ثـار بعـضهم عـلى الـسلطان محمـد الفـاتح فـأراد أَن يـدرأ عـن نفسهِ وعمـن بعـدهُ فـسنَّ قانونًـا أبـاح فيـهِ للسلاطين أن يقتلوا إخوتهم عند ارتقائهم سرير الملك . وجـرى الأمـر عـلى ذلك يتوارثونهُ كابرًا عن كابر حَتَى تـولى الـسلطان أحمـد الملـك وكـان عمـرهُ أربع عشرة سنة ولم يولد لهُ ولد فأبقى على أخيه ولم يقتلهُ .

ولما أن رزق بولد كان الشفيع لبقاء أخيهِ والمنقذ لهُ من المـوت مـا فطرتـهُ عليهِ الطبيعة من السذاجة . ولمـا أوفى عـلى الوفـاة فكـر أنـهُ إذا أوصى بالملـك لابنه على حسب المادة الجارية والقاعدة المتبعة في البيـت وهـو في سـن اثنتـي عشرة سنة لم يأمن عليهِ بائقـة الجـيش الـذي كـان حينئـذٍ في شـغب فـرأى أن يولي أخاهُ وهو الساذج فلا يلبث الجيش أن ينتقض عليهِ لقلة تدبيرهِ وحينَئِذٍ لا يكون أمامهم سوى ابنهِ مرشحًا للملك : وقـد جـاءت الحـوادث مطابقـة لما دبره فلم يمكـث أخـوهُ الـسلطان مـصطفى إلَّا بـضعة أشـهر في الملـك ثـم خلعوهُ . ومن هنا يبتدئُ تـاريخ الخلـع في ملـوك آل عـثمان حتـى صـار كأنـهُ فيهم طريق مسنون . فإن عددهم يبلـغ أربعـة وثلاثـين سـلطانًا لم يمـت عـلى فراش ملكهِ منهم إلَّا تسعة عشر سلطانًا والباقون ماتوا بين مخلـوع ومقتـول وشهيد منهم أحد عشر مخلوعًا وثلاثة تنازلوا عـن الملـك مـن تلقـاءِ أنفـسهم

وواحد مات شهيدًا في الحرب وإليك البيان .

(الخلع الأول) خلع السلطان مصطفى الأول لسذاجتهِ وعدم لياقتهِ للحكم . وقد كان رحمهُ الله آية في التبذير والإسراف . ومن نوادرهِ أنهُ كان يقضي وقتهُ مطلًّا على البحر وبجانبهِ مال الرعيَّة فيرمي الدينار في أثر الدينار ليطرب من رنتهِ في الماءِ ولئلَّا يحرم السمك كما كان يقول مما يتمتع بهِ الإنسان في قضاء حوائجهِ إلى غير ذلك من الأعمال . فثار عليهِ العسكر فخلعوهُ بعد بضعة أشهر من ولايتهِ ثم سجنوهُ .

(الخلع الثاني) وتولى بعدهُ السلطان عثمان الثاني ابن السلطان أحمد الذي تركهُ والدهُ في الثانية عشرة من العمر كما ذكرنا آنفًا . فاشتغل باللهو والشهوات فأفرط وأسرف وكان يكره العساكر وكان اهتمامهُ بتعبير الأحلام واعتقاد الأوهام وتسلط عليهِ الاغا وخوجه أفندي شيخهُ . وكان شديد الولع بالتجسس أيضًا ولكن لم يمنعهُ الخوف أن يباشر التجسس بنفسهِ فكان يخرج متنكرًا في الأسواق ليقف على من يخالف أمرهُ في تناول المسكرات وتدخين التبغ . فإنهُ كان قد شدد في النهي عن تعاطيهما فكان إذا عثر على من يشرب الدخان أو من يتعاطى شيئًا من الخمر أمر بقتلهِ في الحال والتمثيل بهِ . وما زالت هذه حالتهُ حَتَّى راق لهُ أن ينقض عادة آبائهِ وأجدادهِ من سلاطين آل عثمان بالتسري بالشركسيات فأراد أن يتزوج من بنات الأمراءِ بالعقد الشرعي فعقد لهُ على بنت الوزير وبنت شيخ الإسلام فوجد العسكر هذا العمل من المنكرات وانتهزوا فرصتهُ فهموا بالانتقاض عليهِ . ولما أحسَّ بذلك أراد أن يفرق جمعهم فادَّعى أنهُ متوجه إلى الحجاز لأداءِ فريضة الحج فاستعانوا بشيخ الإسلام ليمنعهُ من حج بيت الله . فأفتى بأن السلطان لا حج عليهِ فلم يذعن لفتواهُ وأقام على رأيه وتوجه إلى

اسكدار وضرب خيامهُ هناك واستعد للسفر إلى الحجاز فأمسكوهُ وأعلنوا خلعهُ للحج الذي كان ينوي عليهِ ووضعوهُ في السجن ثم قتلوهُ .

(الخلع الثالث) وأخرجوا السلطان مصطفى ذلك الساذج ليتولى الملك فظن أنهم يريدون قتلهُ فطأطأ لهم رأسهُ ومد عنقهُ امتثالًا وخضوعًا فوقعوا على أقدامهِ يقبلونها . ولما جلس على سرير الملك تجدد بسبب قتل عثمان الثاني من سلاطين آل عثمان ما صار بعد الخليفة الثالث عثمان بن عفَّان رضي الله عنه من طلب الثأر بدمه . فقام أهل الولايات يطلبون بدم المقتول واستقل بعضها والسلطان لا يدري شيئًا من ذلك لبلاهتهِ المعلومة ولم يبقَ إلَّا ثلاثة عشر شهرًا في السلطنة ثم خلعوهُ .

(الخلع الرابع) لما تولى السلطان إبراهيم السلطنة مال إلى شهواتهِ وكان مسرفًا مبذرًا حتَّى ساءت أحوال الدولة في أيامهِ وعمت الرشوة سائر الأنحاءِ وكان مولعًا بحب الفراءِ السموريَّة حتى أنهُ كان لا يسأل الجيش عن انتصاراتهِ وأسلابهِ إلَّا ليعلم ما جاءُوا لهُ بهِ من الفراءِ الثمينة إكرامًا لها . وخرج في يوم عيد على أهل مملكتهِ لابسًا كل ما في الخزائن من الجواهر والحلي ولم يرجعهُ عن هذا إلَّا حيلة وزيرهِ فإنهُ عرض عليهِ أنهُ إذا ملأ الناس عيونهم منهُ على هذه الصورة خشي عليهِ تأثير العين فنزعها . وهو الذي وقف في أثناءِ سير موكبهِ على بائع لبن فطلب منهُ وشرب وهو على جوادهِ. فاحتال الوزير للاعتذار عن هذا العمل بقولهِ أن جلالة مولانا السلطان سمع أن الناس يغشون اللبن فأراد أيدهُ الله أن يمتحنهُ بنفسهِ الشريفة إشفاقًا على رعيتهِ . وهو الذي أخذ ابنهُ الرضيع من مرضعتهِ وضرب بهِ حوضًا من المرمر فكسر جبهتهُ لكيلا يكون في البيت العثماني غيرهُ فشفاهُ الله وصار أطول ملوك آل عثمان حكمًا بعد السلطان سليمان فإنهُ حكم أربعين

سنة . وكانت الدولة في زمن السلطان إبراهيم متتابعة الانتصار والظفر فوفي أيامهِ فتح العسَكر جزيرة كريد إلَّا أنهم سئموا منهُ فتألبوا عليهِ وخلعوهُ بعد تسع سنوات من حكمهِ .

(الخلع الخامس) ثم تولى بعدهُ ابنهُ السلطان محمد الرابع وهو في سن أربع سنوات . وكان مشهورًا بشدة شغفهِ بالصيد وقد قضى مدة ملكهِ في الفيافي والقفار للصيد ويعدون مدة إقامتهِ في قاعدة سلطنتهِ مع طِول زمن حكمهِ بالأشهر . وكان قد منح الله الدولة ووهبهُ من فضلهِ رجالًا من أهل الفضل والتدبير وهم رجال العائلة المشهورة بكوبرولي فتولى الصدارة منهم الجد والابن والحفيد فشيدوا أركان المملكة وضبطوا الجمهور ونظموا الأمور والسلطان مشغول بالصيد في جبال الروم إيلي . ولمَّا توفي أحمد باشا كوبر ولي واسطة عقد هؤُلاءِ الصدور وأشهرهم حزمًا وعزمًا وحلًّا وعقدًا وهو صاحب الكتبخانة المشهورة بقرب مدفنهم بالأستانة وقعت أمور الدولة في يد من لا يحسن سياستها وتقلد المناصب من لا يستحقها وتولي الأحكام من ليس بأهل للقيام بها والسلطان مشغول بصيدهِ والدولة مشغولة بحصار فينا الشهير الذي رجعت منهُ غير فائزة . وكان هذا أول انحطاط السلطنة العثمانيَّة الذي لم ترتفع بعدهُ وهو يماثل عودة نابليون الأول من موسكو . ولما تولى الكوبر ولي الثالث وكيلًا عن الصدر لأن الصدر كان في الحرب كما جرت بهِ عادة الدولة جمع العلماءَ في جامع أيا صوفيا وكشف لهم سوءَ الأحوال وما لحق بالدولة فأعلنوا عند ذلك خلع السلطان ولكنهم لم يحبسوهُ ولم يقتلوهُ بل تركوهُ في أدرنه يصطاد ما عاش فبقي ست سنوات في لذة الصيد والقنص .

(الخلع السادس) وتولي الملك مصطفى الثاني وقد وقعت في أيامهِ

الحرب بين الدولة وروسيا والنمسا فتبسم الانتصار للدولة أولًا ثم كشر لها عن نابهِ ثانيًا فتداخلت، انكلترا وهولانده لفض الحرب وعقد الصلح فتم أمرهُ بالمعاهدة المعروفة بمعاهدة قولويتس ولكن العساكر العثمانيّة رأوا أن هذا الصلح يحط من شرف الدولة وقدرها ويخفض من مجدها وعزها (ومَن للدولة بهم ليروا معاهدة برلين) - فثاروا على السلطان وأفتى العلماءُ بخلعهِ فخلعوهُ .

(الخلع السابع) ثم تولىّ السلطان أحمد الثالث فطالت مدتهُ نحو ثماني عشرة سنة وهو صاحب الحرب الشهيرة مع بطرس الأكبر وكاترينا . وكان الذي يباشر الحرب محمد باشا البلطه جي الصدر الأعظم فتمكن من حصار بطرس الأكبر والتضييق عليهِ فكاد يأخذهُ أسيرًا ولكن جاءَتهُ كاترينا فرَشتهُ فانفض الحصار في الحال ونجا بطرس الأكبر وفي نجاتهِ كان الويل على الدولة لليوم . ومن نوادر ما يحكي أن هذا الصدر لما سئل عن إغفالهِ لأسر القيصر وتهاونهِ في أمرهِ أجاب ولمن نترك ملْك الروسيا يدبر شؤُونهُ . ولما رجع الجيش مكسورًا على هذه الصورة الفظيعة خشي السلطان العساكر فأراد أن يبعدهم بإثارة حرب على الفرس فبادرهُ العساكرُ بالخلع .

(الخلع الثامن) تولى السلطان سليم الثالث الملك مدة تسع عشرة سنة وهو يلقب عندهم بفاتح مصر الثاني . لأن في مدتهِ أخرج الانكليز الفرنسويين من مصر . وكان يحب أن يدخل نظام الجيوش الفرنسويين من مصر . وكان يحب أن يدخل نظام الجيوش الأوربيّة في الجيش العثماني فلم يقبل الانكشاريّة هذا الانقلاب . واستصوبوا خلعهُ وطلبوا من عطاءِ الله أفندي شيخ الإسلام أن يصدر فتوى شرعيّة بذلك فأصدر الفتوى بهذا النص « هل يترك السلطان الذي يخالف القرآن الشريف على تخت

السلطنة» الجواب « كلّا » وبناءً على ذلك تمَّ خلعهُ .

(الخلع التاسع) ثم تولى بعدهُ السلطان مصطفى الرابع وكان أكثر عساكر الدولة الذين من حزب السلطان سليم الثالث المخلوع مقيمين خرج الأستانة . فلما بلغهم الخبر هموا أن يعيدوهُ إلى الملك فاستشعر السلطان مصطفى بذلك فبادر إلى قتل عمهِ السلطان سليم قبل حضور العساكر لإرجاعهِ إلى الملك . فلما دخل العساكر الأستانة خلعوا السلطان مصطفى ثم قتلوهُ ولم يبقَ وقتئذٍ في بيت آل عثمان إلّا السلطان محمود وحدهُ.

(الخلع العاشر) هو خلع السلطان عبد العزيز وهو مشهور وأسبابهُ لا تغيب عن ذاكرة أحد اليوم فلا حاجة للإطالة بذكرها إنما نقول أن الفتوى الشرعيَّة الَّتي صدرت بخلعهِ كانت مبنيَّة على أنهُ مختل الشعور .

(الخلع الحادي عشر) وهو خلع السلطان مراد وذلك مشهور معلوم وقد بنوهُ أيضًا على أنهُ مختل الشعور.

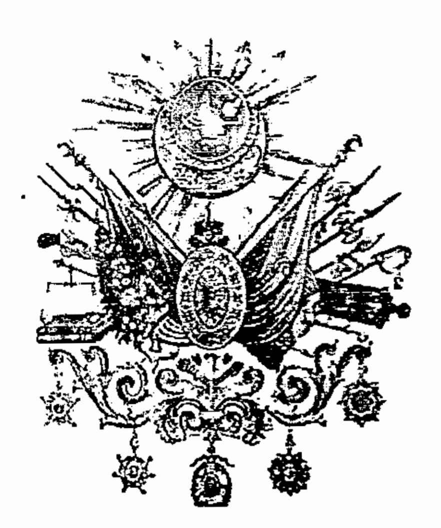
وإذ فرغنا من المخلوعين من سلاطين آل عثمان فنذكر المتنازلين عن السلطنة ونذكر الشهيد رضي الله عنهُ .

(التنازل الأول) تولي مراد الثاني الملك وكان رجلًا صالحًا يحب الراحة ويميل إلى الخمول فتنازل من تلقاءِ نفسهِ لابنهِ السلطان محمد الثاني وذهب إلى مغنيسيا فسكنها مستريحًا خالي البال . ثم جاءَ الخبر باستدعائهِ إلى الملك ثانيًا لأن العساكر الذين شرعوا في حرب الروم هربوا وابنهُ صغير لا يستطيع ملافاة هذه الخطوب فحضر وتولى الملك وقاد العساكر وباشر الحرب وقد توجه ابنهُ إلى مغنيسيا مَكانهُ حَتَّى إذا انتصر واستتبت الأمور وهدأَت الأحوال تنازل مرة ثانية وهو التنازل الثاني . وأعاد ابنهُ إلى الملك ورجع هو إلى مغنيسيا وكل هذا عن طيب نفس من الأب والابن .

(التنازل الثاني) هو تنازل السلطان بايزيد الثاني حين حاربهُ ابنهُ سليم لعهدهِ بالملك لأخيه فترك لهُ الملك حقنًا لدماءِ المسلمين وأراد أن يتوجه إلى الحج ثم يعود إلى مغنيسيا للإقامة فيها ولكن بعد سفرهِ بثلثة أيام توضأ لصلاة العصر في أثناء السفر فمات .

أما الشهيد فهو مراد الله رضي الله عنهُ قتل في واقعة من حرب الصرب وكان بعد الانتصار قد خرج لينظر القتلى فطعنهُ أحد الأسرى ثم نقل إلى بورسه الَّتي تسمى باسمهِ خداندكار . انتهى .

المصادر



المصادر

أولا : الكتب :

١ ـ مذكرات السلطان عبد الحميد .

ترجمة وتحقيق محمد حرب عبد الحميد ـ دار الأنصار صدر سنة ١٩٧٨

٢ ـ تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر .

لجرجي زيدان ـ الطبعة الثالثة الصادرة سنة ١٩٢٢ .

٣ ـ الجزء الثالث من أدب المقالة الصحفية في مصر .

للدكتور عبد اللطيف حمزه ـ دار الفكر العربي ١٩٥٩ .

٤ ـ المعلوم والمجهول .

تأليف ولي الدين يكن ـ مطبعة الشعب ١٩٠٩ .

٥ ـ كتاب غرائب المكتوبجي .

تأليف سليم سركيس ـ مطبعة السلام ١٨٩٦ .

٦ ـ سر مملكة .

تأليف سليم سركيس ـ صدر سنة ١٨٩٥ .

٧ ـ مقدمة ابن خلدون .

٨ ـ تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي .

تأليف أنور الجندي ـ مكتبة الأنجلو ١٩٧٠ .

٩ ـ تاريخ الصحافة العربية .

للفيكونت فيليب دي طرازي المطبعة الأدبية بيروت سنة ١٩١٣ .

١٠ ـ المسألة الشرقية .

لمصطفى كامل مطبعة اللواء الطبعة الثانية ١٩٠٩ .

١١ ـ رجال عرفتهم .

للعقاد ـ ط الهلال ١٩٦٣ .

١٢ ـ الأدب المصري في ظل الحكم العثماني .

لمحمد سيد كيلاني .

١٣ ـ كتاب الأمير لمكيا فللي .

١٤ ـ السياسة لأرسطو .

١٥ ـ الأدب الكبير لابن المقفع .

ثانيا : الدوريات :

١ ـ مجلة الهلال : الأعداد المشار إليها .

٢ ـ المشرق مجلد سنة ١٩٠٩ .

٣ ـ فتاة الشرق عدد ١٥ أكتوبر ١٩١٥.

٤ ـ الصاعقة عدد ١٤ إبريل ١٩٠٥ .

٥ ـ مصباح الشرق : أعداد مختلفة .

٦ ـ الرسالة : عدد ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

٧ - مجلة مصر الحديثة المصورة عدد فبراير ١٩٢٨ .

٨ - مجلة الجامعة (فرح أنطون) عدد أغسطس ١٩٠٠ .

٩ - مجلة الضياء (لليازجي) عدد ١٥ مايو ١٨٩٩ .

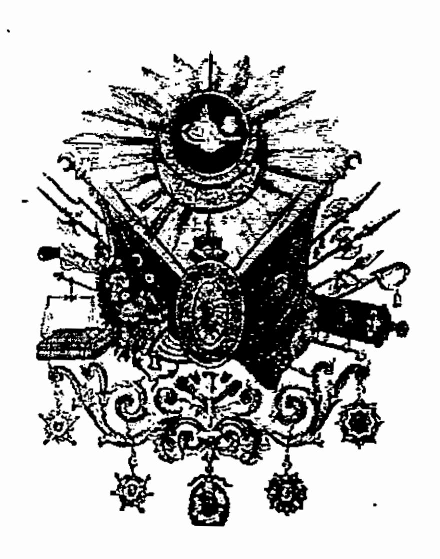
١٠ - مجلة الدوحة عدد سبتمبر ١٩٨٤ .

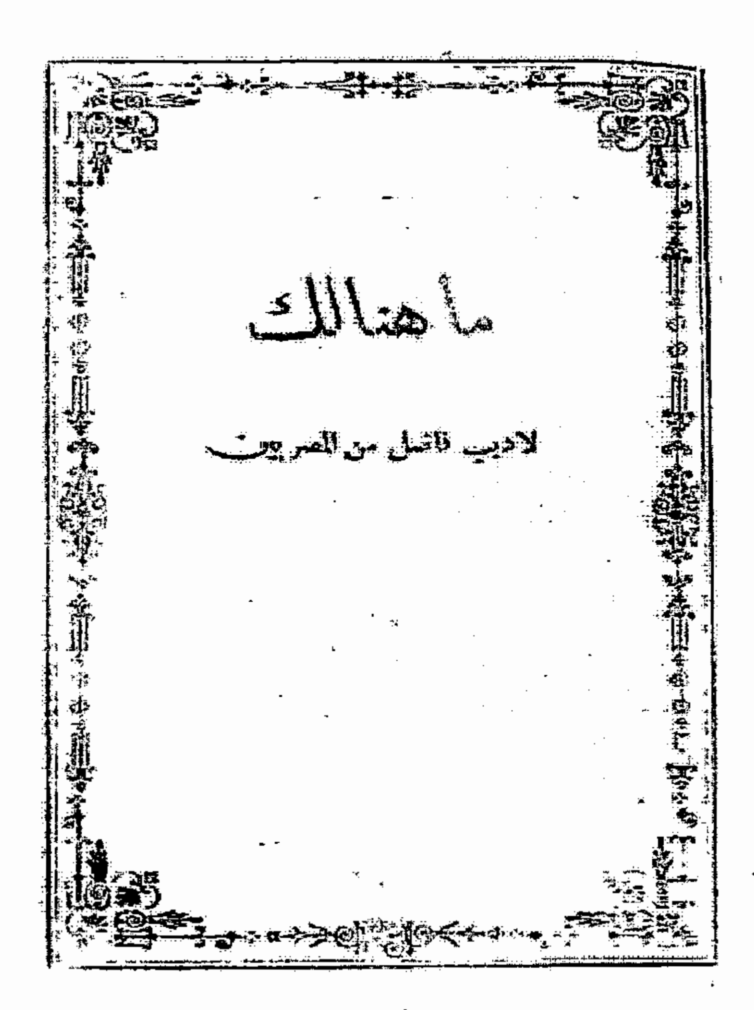
١١ - مجلة المحيط عدد مايو ١٩٠٩ .

١٢ - جريدة الفلاح (لسليم حموي) عدد ٣١ يناير ١٨٩٦ .

❖❖❖

صور لعناوين بعض
ما كتب عن ما هنالك





ما هنالك

لأديب فاضل من المصريين

الطبعة الأولى ١٨٩٦



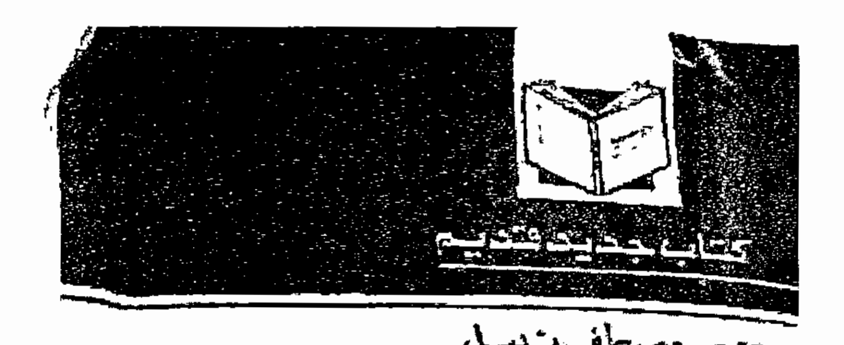
إبراهيم المويلحي

ما هنالك
من
أسرار بلاط السلطان عبد الحميد

دراسة تاريخية : أحمد حسين الطماوي
تقديم : د. على شلش



الطبعة الثانية ١٩٨٥



تقديم : مصطفى نبيل

ماهنالك!

كيف تتداعى وتنهار الدول؟

لا تنهض الدول على الاباطيل ولا تشيد صروحها على الاكاذيب ..

النظام السوفيتي يفقد الاكتفاء .. ويقترب مثاله الهوء !

مجلة الهلال يناير ١٩٨٦

ثقافة اليوم

كتاب اختفى تسعين عاماً وعاد للظهور!!

كشف جديد لبعض أسرار الحكم العثماني

مؤلف الكتاب المويلحي من أبناء الجزيرة العربية

عاطف مصطفى / مكتب "الرياض" القاهرة

● نشأة أدبية ●

كتاب

ما هنالك

أسرار يلدز السلطان عبد الحميد

لا تزال وثائق سقوط الخلافة العثمانية طي الكتمان حتى اليوم، وقليلة هي الوثائق التي عثر عليها المؤرخون واشتروها واستخلصوا منها الدروس والعبر.

وهذه وثيقة أدبية بالغة الخطورة والأهمية، وتعني بها كتاب «ما هنالك» للأديب المصري الكبير «إبراهيم المويلحي»، التي ينشره اليوم بعناية [illegible] الأستاذ «أحمد حسين الطماوي» وبتقديم عام للأستاذ الدكتور «علي شلش».

ومن الواضح أن الأستاذ «أحمد حسين الطماوي» باحث مدقق واسع الاطلاع على كل ما يختص بهذه الحقبة وبالفترات التي سبقتها والتي تلتها، ومن الواضح كذلك أنه من النوع الذي يعمل في صمت بعيداً عن مجالات الصخب والأضواء، ولهذا فإنه باستمرار يكشف الوثائق الأدبية والكتب التي يمكن أن تغير الحقائق القائمة وفي نفس الوقت يمكن أن تلقي في طي النسيان، والدليل على ذلك هذه الوثيقة الخطيرة! «وما هنالك - من أسرار يلدز السلطان عبد الحميد» لإبراهيم المويلحي.

وإذا إبراهيم المويلحي فإنه أحد أعمدة الأدب والصحافة في مصر في أواسط القرن التاسع عشر، وكان من أكبر كتاب السياسة، ومن أشهر من انتقدوا الباب العثماني في فترة كانت فيها الخلافة العثمانية على حافة السقوط النهائي، ويكفي القول بالذكر أن «إبراهيم المويلحي» هو والد الأديب الكبير «محمد المويلحي» مؤلف «حديث عيسى بن هشام» ذلك العمل الأدبي العظيم الذي يعتبر من عيون الأدب العربي الحديث.

وكان «إبراهيم المويلحي» قد سافر إلى الآستانة وأقام بها مدة من الزمن في ضيافة الخليفة، ثم عاد ليكتب انطباعاته عن هذه الرحلة، فإذا به يكتب وثائق خطيرة تفضح ما يدور في الباب العثماني، وتظهر الفساد الذي تعاني منه الآستانة، وكان ينشر هذه المقالات في جريدة المقطم، ثم جمعها في كتاب أسماه «ما هنالك - من أسرار يلدز السلطان عبد الحميد» وكان ذلك سنة ١٨٩٦ وما كاد الكتاب يصدر حتى أرسل الخليفة إلى المويلحي يطلب منه كافة النسخ المطبوعة من الكتاب، فاستجاب المويلحي لرغبة مولاه وسلم كافة النسخ بالفعل لممثل السلطان في القاهرة، الذي عمل على إعدامها.

ومن حسن الحظ أن كانت هناك بعض النسخ القليلة نجت من المصير المحتوم كان المؤلف قد أهداها لبعض أصدقائه، ولقد بقيت إحدى هذه النسخ حتى وصلت إلينا في نهاية الأمر وبعد انهيار الخلافة العثمانية بسنين طويلة، فهذا الكتاب صفحة سوداء في تاريخ الدولة العثمانية كتبها المويلحي في مرحلة مظلمة ودون أية مواربة.

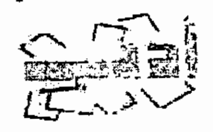
ونشهد أن الأستاذ «أحمد حسين الطماوي» قدم لنا دراسة للوثيقة كاملة، [illegible] تلك الفترة تماماً ووضعها أمام أعيننا بكل [illegible] كانت تعيش فيها.

خيري شلبي

مجلة الإذاعة والتليفزيون

٨ مارس ١٩٨٦





المويلحي .. وسقوط السلطان عبد الحميد

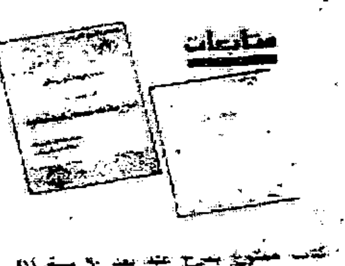
هذا الكتاب من تأليف « المويلحي » الأب ، وقليل جداً الذين يعرفونه . يعرفون أكثر منه إبنه « محمد إبراهيم المويلحي » مؤلف الرواية المصرية الرائدة « حديث عيسى ابن هشام » .

والكتاب عبارة عن ثلاثة أجزاء .. الجزء الأول تقديم بقلم « الدكتور علي شلش » والجزء الثاني دراسة تاريخية بقلم « أحمد حسين الطماوي » ثم الجزء الثالث وهو بيت القصيد ، وقلم « المويلحي » المتميز إستمداداً من العنوان « ما هنالك من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد » .

[illegible]

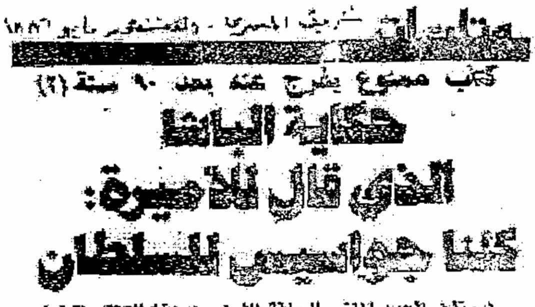
روزاليوسف ١٩ مايو ١٩٨٦

متابعات



أسرار بلاط السلطان عبد الحميد وخفايا الباب العالي

جزء من مقال لشريف المصري – الدستور – مايو ١٩٨٦



كتاب ممنوع يفرج عنه بعد ٩٠ سنة (٢)

حكاية الباشا الذي قال للأميرة: كلنا جواسيس للسلطان

قدمنا في العدد الماضي الحلقة الأولى عن هذا الكتاب الخطير الطريف الذي ظل ممنوعا من النشر والتداول ٩٠ سنة. وقد تحدث المؤلف ابراهيم المويلحي – ابو محمد المويلحي صاحب «حديث عيسى بن هشام» – عن الكثير من مظاهر الفساد في الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد. وكان حديثه عن واقع عيشه في العاصمة (الاستانة) نحو ١٠ سنوات.

وفي هذه الحلقة الثانية، نقدم عرضا لبعض فصول الكتاب الأخرى التي يتحدث فيها المؤلف عن الجاسوسية مرة أخرى، وهيبة الدولة العثمانية، وطريقة التعامل مع المرشحين للمناصب الصغيرة والكبيرة.

ويتابع رصدنا [illegible] الكتاب الطريف [illegible] بنا ابراهيم المويلحي في مسيرة [illegible] السلطان الى دائرة الوزارات [illegible] في تعريفها [illegible] على [illegible] بقوم الاصطلاح ورجال [illegible] بحسن [illegible] ولكنه [illegible] الرائحة [illegible] بحسهم وشجاعتهم [illegible] جفونهم للمكاسب، وتخلوا عن [illegible] الاسلام الذي قام [illegible] على سيوف آبائهم وأجدادهم، وأصبحوا [illegible] الانتفاش والاستهتار [illegible]

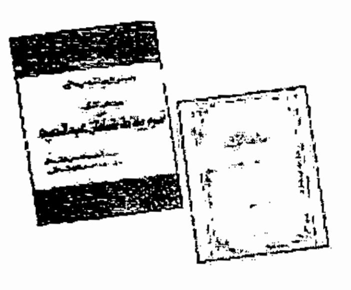
كذلك تلك وصايا [illegible] – وصايا [illegible] [illegible] السلطان او [illegible]

ويضيف المويلحي

[illegible] ثلاثة [illegible] باشا، [illegible] ثم [illegible] محمد باشا صاحب رتبة [illegible] جلالة السلطان.

ويبلغ عدد الباشوات [illegible] اكثر من عشرين [illegible] من [illegible] على رتبة [illegible] ويبلغ عدد [illegible] ١٢٠ وعدد الباشوات [illegible] ١٢٣٠ . ويقارن المويلحي [illegible] هذا [illegible]

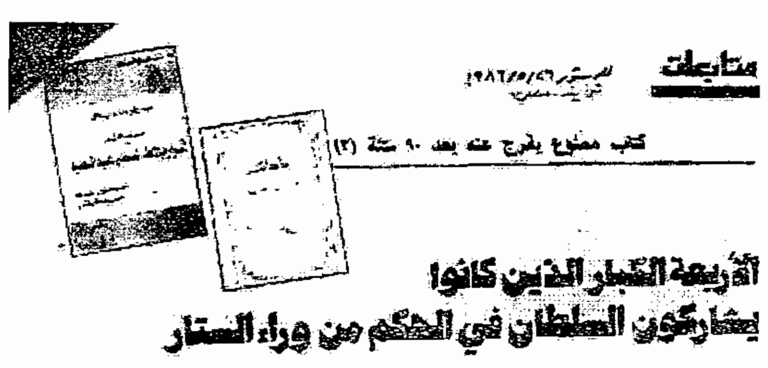
جزء من مقال لشريف المصري – الدستور – مايو ١٩٨٦



هل قصد سوء؟

الطرقة وسر خفية

المطوعون والمعتزلون



الأربعة الكبار الذين كانوا يشاركون السلطان في الحكم من وراء الستار

الأربعة الكبار

إبراهيم المويلحي وأسرار بلاط السلطان عبد الحميد

قدم الأستاذ أحمد حسين الطماوي دراسة تاريخية عن إبراهيم المويلحي وعلاقته بالسلطان عبد الحميد.

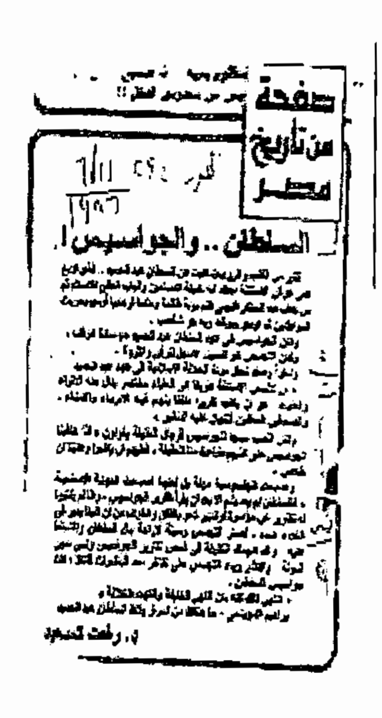
يوصف تلك الفترة بأنها صفحة سوداء في تاريخ الدولة العثمانية [illegible]. سطرها رجل بعد تكوين قراءة ودراسة وعرض فيها للوقائع السياسية والثقافية الدامية دون تمويه أو تعمية.

حيث ذكر الأشياء بأسمائها والرجال بألقابهم.

ويركز المويلحي في كتابه على حياة السلطان عبد الحميد وقصره وما يحيط به من بطانة وحاشية.

ويرسم صورة بالغة الدقة. وكلمات تاريخية وحياة ذلك السلطان المستبد الظالم، مسلط على الرعية طرقاً مختلفة بالتعذيب والاضطهاد.

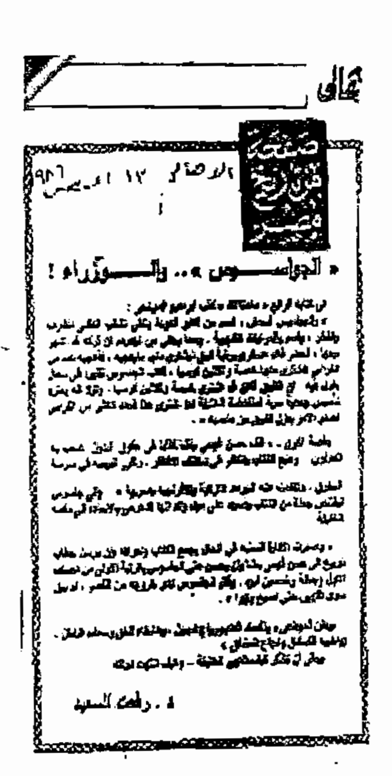
مجلة القاهرة – ٧ يناير ١٩٨٦



صفحة من تاريخ مصر

السلطان .. والجواسيس !

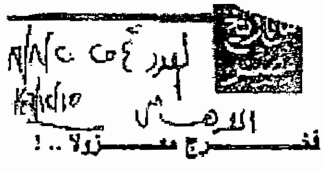
د. رفعت السعيد



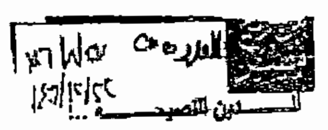
صفحة من تاريخ مصر

« الجواسيس ».. والوزراء !

د. رفعت السعيد



د. رفعت السعيد



د. رفعت السعيد

عندما يلتقي القارئ بكلمة «الكتوبجي» قد يتجه ذهنه إلى أنها تعني «تاجر الكتب»، ولكنها في الحقيقة كانت تطلق في القرن التاسع عشر وما قبله على رقيب المطبوعات، ولذلك كان المفكرون [illegible] يسمونه «شرطي الفكر». وكم كان لهذا «الكتوبجي» من نوادر!

غرائب



بقلم: شريف الراس

يبدو أن العرب كانوا أول من [illegible] مهنة [illegible] بطريقة استبدادية [illegible]، سموها [illegible] «رقيب المطبوعات» [illegible] «الكتوبجي» [illegible] حسب مصطلح اللغة الرسمية للسلطنة [illegible] التي كانت تحكم معظم أقطار الوطن العربي.

ويبدو أنه كان للكتوبجي أو شرطي الفكر [illegible] نوادر عجيبة وطريفة وهي محفوظة إلى حد [illegible] الكتب [illegible] فصلا كاملا. [illegible] في بيروت عام ١٨٩٦ بعنوان «غرائب الكتوبجي» [illegible] هذا الكتاب [illegible] الجريدة لا يجوز لها أن تذكر كلمة «جمهورية» [illegible] «النهضة» أو «الثورة» [illegible] وفي الإعلانات [illegible] «الجمهورية» [illegible] «الكتوبجي» [illegible] عليها

٤٤

العربي – العدد ٣٦٧- يونيو ١٩٨٩م

وثيقة خطيرة أهملها التاريخ عمرها أربعة وتسعون عاماً

شاهد عيان على سقوط الخلافة العثمانية ..

شكري شلبي

مجلة الإذاعة والتليفزيون العدد ٢٨٦٩

١٩٩٠/٣/١٠

وثيقة خطيرة لعصرنا التاريخي
عمرها أربعة وتسعون عاما - ٢ -

شاهد عيان على سقوط الخلافة العثمانية

من دائرة الباشا أغا إلى دائرة البارونات

صفحة من مقال

مجلة الإذاعة والتليفزيون

١٩٩٠/٣/١٧

ما هنالك
من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد

هذا هو الكتاب الأول الذي صدر عن المركز العربي للإعلام والنشر عام ١٩٨٥، وهو حين تقديم المكتوب على الشكل الذي يرجع إليه الفضل في نشر هذه الوثيقة التاريخية المهمة يبقى تقدير على المحقق لوثيقة تاريخية الأستاذ أحمد حسين الطماوي.

ويوضح لنا على الشكل مهمة المركز العربي وأهدافه من إنشائه، لا غرابة أن يكون نشر هذا الكتاب مقدمة لمهمة نشر بقية تراث المويلحي المبعثر في الصحف، وكذلك نشر تراث عمرو وهي المهمة التي أخذها على عاتقه المركز العربي للإعلام والنشر، ويضيف لنا على الشكل أسباب اختيار هذا الكتاب... الكتاب وثيقة مهمة من وثائق التاريخ، ومرجع لا غنى عنه في دراسة أحد عهود الخلافة العثمانية، فضلا عن أنه وثيقة سياسية من وثائق الحكم على السياسي نفسه كتبه صاحب فكر وأسلوب متميز.

ويضيف أيضا على الشكل في تقديمه إلى إبراهيم المويلحي والد كاتب [illegible] ينتمي إبراهيم المويلحي إلى أسرة كان لها دور بارز في حياة مصر السياسية والاجتماعية والثقافية خلال الثلث الأخير من القرن الماضي والربع الأول من هذا القرن، وقد ساهم في هذا الدور ثلاثة من أعضائها هم بترتيب أعمارهم في الحياة: إبراهيم نفسه وشقيقه الأصغر عبد السلام وابنه الأكبر محمد، ومع ذلك لم ينل هذا الدور البارز في تقديرنا، ما يجب أن يناله من عناية الدارسين واهتمامهم.

ويضيف أيضا على الشكل عن هذه الوثيقة قائلا:

الكتاب في الأصل مجموعة مقالات نشرها في المقطم، وقد ظل وجوده خافيا إلى أن عثرت على العثور عليه في دار الكتب المصرية، ثم [illegible]، ثم وجدت عنوانه ضمن فهارس مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، فأتيح الاطلاع عليه، ولكن موظفي المكتبة لم يعثروا له على أثر بل ادعوا أنها فقدت، لسبب [illegible] أخرى منه مصورة على ميكروفيلم وصلت في [illegible] به على ما نشر منه عبد اللطيف حمزة، وأخيرا الباحث المدقق الأستاذ أحمد حسين الطماوي الذي لديه نسخة من الكتاب [illegible] منه، وبعضها الذي حصل عليه [illegible] وتكرما [illegible] مشكورا.

كان عنوان الكتاب الذي نشره إبراهيم المويلحي [illegible] الأبيض الناقل من المصريين هو [illegible] وحصل على ذلك:

وقد كان عنوان الكتاب متواضعا مختفيا، وكان يجب أن يوضع له عنوان يشير إلى موضوعه، ثم لاختيار [illegible] لهذا العنوان، ولكن العنوان الذي شغلني بعد الفراغ من قراءته لأول مرة، هو أسرار الخلافة العثمانية، لأن المويلحي يصور فصلا بعد فصل، دواوين الخلافة العثمانية وسقوطها، وكأنه يصور هنا كان يتخذ منه [illegible] من وقته.

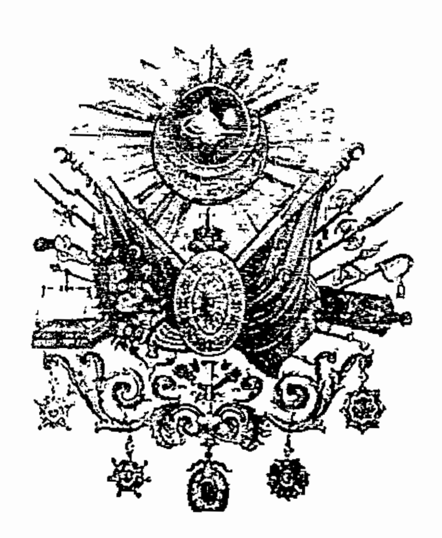
ويتحدث الطماوي عن الوثيقة المهمة، [illegible] معه على الشكل أن عنوان [illegible] مخطوط الخلافة العثمانية [illegible] لكن كان المويلحي [illegible] لولا [illegible] عن المحقق، وهو [illegible] وأوضح [illegible] المحقق [illegible] المويلحي [illegible] صاحب الكتاب في [illegible] هذا العنوان [illegible] في مصر التي نشرها بالفرنسية في مجلة [illegible] تاريخ مصر [illegible] إبراهيم [illegible] مقالاتها بالتحري [illegible] في المقطم [illegible] إلى [illegible] الآستانة [illegible] في الآستانة [illegible] فيها تحت عنوان «ما هنالك» لم [illegible] وطبعها كتابا سنة ١٨٩٦ ميلادية، [illegible] السلطان عبد الحميد [illegible] النسخ التي [illegible] إلى [illegible] إبراهيم لأمر [illegible] وأرسلها جميعا إليه [illegible] على [illegible].

[illegible] السلطان عبد الحميد [illegible] وصادرها إلى الآستانة.

ويقول على الشكل: كان المويلحي قد قضى في الآستانة بضع عشر سنين (١٨٨٥ - ١٨٩٥)، [illegible] إلى كتابة شاهد عيان، وتصوير [illegible] في أحيان كثيرة لا يمكن أن يكون كله [illegible] لأن ما صوره [illegible] جاء [illegible] تصوير [illegible].

ويفصل على الشكل [illegible] المويلحي [illegible] بوصف القصر السلطاني [illegible] بعد [illegible] والسلطان [illegible] أشبه بالقصر [illegible] والرقيق الذي [illegible] أن [illegible] ذكرت روايات [illegible] في رواية [illegible] ولا أدري لماذا لم [illegible] أن يستلهم هذا الكتاب [illegible] في رواية أو في

الفهرس



الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة